محمد عبد الرحيم سليمان

حياتنا للحب

قصة مصرية

الحياة الحب والحب الحياة
هو من سرحتها سر النواه
وعلى صحرائها مرت يداه
فجرت ماء وظلا وجنى

« شوقى »

obeikandl.com

obeikandl.com

إهداء

إلى أستاذى توفيق الحكيم

الكاتب الذى أثبت للدنيا أن مصر تستطيع أن تقدم للعالم وللانسانية أدباً رفيعاً ممتازاً .

إلى صاحب « دعوة الروح » و « حياة تحطمت و « أهل الكهف » .

إلى الفنان المثالى أرفع بكل خشوع وإجلال أول نتاجى الأخير

محمد عبد الرحيم سليمان

obeikandi.com

obeikandl.com

الفصل الأول

ارتفعت أهدابها عن عينين فى لون العسل المصفى ونقاء البللور الذى تخللته أشعة الشمس الذهبية . وتسلل إليهما أول شعاع من أشعة الحياة فاضطرب جفناها ولم تتمالك أن أغمضت عينيها مرة أخرى وارتفع صراخها ، وما لبثت أن امتدّ إليها ساعدان قويان ورفعاها إلى وجه يكاد يتفجر بالسّعادة والبشر . . كان وجه أبيها كاظم أفندى التركى ، ولم تستطع حالة التعب والإعياء التى كانت عليها الأم الصغيرة أن تمحو الابتسامة الشاحبة التى أضاءت محياها الجميل ودفعت الدماء إلى وجنتيها الناصعتين . .

كانت جيهان هانم تحس سعادة غامرة فقد انتقم لها القدر من أيامها السوالف التى حُرمت فيها نعمة الولد ، وها هو يجازيها على صبرها خير الجزاء فوهبها مولودها الأول قبل أن يتم أشهر الحمل التسع ، فخرجت طفلتها إلى الحياة بعد سبعة أشهر فقط . .

ولا تسل عن فرحة الزوج بالطفلة الجميلة التى أهداها إليه القدر على غير انتظار . . وكانت أجمل حلم طاف بخيال كاظم أفندى فما فكر قط حين اضطرته ظروفه القاسية إلى مغادرة استانبول أنه سيتزوج يوماً فى مصر ويكون له مثل هذه الطفلة الجميلة . . وكان هو فى تفكيره هذا وانشغاله فى تدبير أمر معيشته لا يعلم أن القدر من وراءه يدبّر له قصة زواجه هذه فكانت تتويجاً لجهاده وصبره وكفاحه . .

وأسند كاظم أفندى رأسه إلى ظهر مقعده وأخذ يقلب صفحات ماضية . . تذكر والده الذى راح ضحية الحركة الكمالية التركية حين أراد أتاتورك بيد باطشة أن يمحو فى لحظة ما بنته أجيال و يقضى قضاء مبرماً على تقاليد العثمانيين ومقدساتهم واضطرت كثير من الأسرات المحافظة المتشبعة بروح الشرق الطيب أن تفر من وجهه . . وكان الفتى كاظم وأختاه من بين تلك الأسرات واستقبلتهم القاهرة المعزية فاتحة الذراعين فى حنان وسمع العجوز الطيب نسيم باشا وكان يتربع على كرسى الوزارة فى ذلك الحين بأمر الأسرة الصغيرة البائسة فآثرها بعطفه ورعايته وفتح لها أبواب قصره ، وأبى الرجل الطيب الذى تجرى فى عروقه الدماء التركية إلا أن يستضيفهم فى قصره يقيمون فيه ولا يبرحونه حتى يقضى الله فيهم بما يشاء . . وهكذا نجد أن رحمة الله التى وسعت كل شىء لم تقصر عن أن تمتد إلى هذه الأسرة الهزيلة البائسة . . .

وراح كاظم أفندى يسرح الطرف فى جنبات خياله الفسيح وأخذ يتذكر كل ركن من أركان ذلك القصر الفخم الذى ضمه هو وأختيه ردحاً من الزمن وقد بادر الباشا إلى إلحاقه بإحدى المدارس الفنية لاستكمال دراسته التى قطعتها الهجرة ولكنه لم يلبث أن غادر المدرسة لعدم استطاعته التمشى مع نظم الدراسة المصرية . .

ولما كان للفتى بعض إلمام بالصناعات الميكانيكية التى درسها

فى تركيا فقد التحق بأحد المصانع واستفاد كثيراً من عمله مع المدير الألمانى الذى يمتلك المصنع ثم اتجهت رغبته إلى الاستقلال والعمل الحرّ فرأى أن يفتتح جاراجاً لإصلاح السيارات ، وأمده الباشا الطيب بمبلغ من المال أعانه على غرضه وتقبله كاظم بالشكر والتأثر ولم تمض أسابيع حتى كان الفتى الطموح قد اتخذ له جاراجا بشارع فاروق أخذ يعمل فيه بهمة ونشاط و إخلاص ولفت إليه الأنظار بحسن نظامه ودقته وتفانيه فى عمله واستطاع أن يكتسب كثيرا من العملاء وعرف بينهم باسم كاظم أفندى التركى . .

و يتنهد كاظم أفندى حين يصل به الفكر إلى هذا الحدّ . .

يا لها من أيام جميلة . . نعم كان يعمل طوال يومه ولا يكاد يلتفت إلى راحته ولكنه كان قرير العين مؤمناً بالله أعمق الإيمان يصرف همه كله إلى إتقان عمله و إرضاء عملائه . .

وتحسنت حاله وامتلأ جاراجه بالعمال وما لبث أن اختار له مساعداً « أرمنياً » ارتاح إليه ووثق فى إخلاصه واستطاع أن يحمل عنه بعض العبء . . وطابت نفس الفتى وانتعشت آماله وخاصة بعد أن تزوجت شقيقتاه زواجاً موفقاً : الأولى من مهندس نابغ والثانية من مزارع ثرى . وكان لا ينقطع عن زيارتهما وكان يحبهما أشد الحب و إن كان يخص الكبرى بقسط أوفر لأنها طالما أعانته فى محنته ونفخت فيه من روحها المرحة الطلقة وكان لذلك يخصها بأسراره وآلامه وآماله . .

obeikandi.com

وكانت هي من ناحيتها تفكر في أمره وتبحث له دون علمه عن امرأة تكمل حياته وتملأ جوانب قلبه الكبير الفتيّ . .

أما هو فكان إذا سمع منها حديثاً حول هذا الموضوع احمر وجهه وقال « لا وقت عندي للزواج » فتضحك أخته وتسكت وتترك كل شيء لتدبير القدر . . وأخذت نفسه تتفتح رويداً لهذه الفكرة وتاقت نفسه إلى زوجة تشاركه حياته وحظه ويتدخل القدر مرة أخرى فيقدم لكاظم أفندي الزوجة المنشودة ، فقد التقى ذات يوم عند أخته الكبرى بغادة فاتنة الوجه جميلة القد ذات عينين زرقاوين آسرتين خلبتا لبه وملكتا قلبه العصيّ في ثوان قليلة ! . .

وكانت أخته تشيع ضيفتها الشابة إلى الباب ولم يغب عن عينها الفاحصة شيء من حالة أخيها فرمقته بابتسامة خبيثة . .

وكانت خديجة هانم كثيرة المرح تتميز بشخصية جذابة ولم يشأ كاظم أفندي الذي لا يعرف اللف والدوران إلاّ أن يصارحها بشعوره تجاه ضيفتها الجميلة وأخبرته أخته أنها سيدة تركية ومطلقة أحد كبار الفنانين الذي أبى إلاّ أن يسرحها بإحسان حين علم أن به عيباً لا يستطيع معه إنجاب أطفال . ولم يشأ رغم هيامه بها أن يحرمها عاطفة الأمومة وهو الفنان الرقيق الحسّ وحاول أن يمنحها مبلغاً كبيراً من المال ولكنها رفضته بإباء وشمم وأقامت في كنف خالها « صادق بك سيف الدين » .

وكان صادق بك من عملاء كاظم أفندي الممتازين وكانت

العلاقة بينهما ترتفع عن المعرفة وتقترب من الصداقة نظراً لأن كلا الإثنين تركى ، ولم يرد كاظم أفندى أن يضيع الوقت بعد أن عرف من أخته ما عرف وبادر فى الحال إلى صادق بك وخطب جيهان لنفسه فوافق خالها مسروراً ولم تمض أسابيع حتى زُفت جيهان إلى كاظم أفندى وضمّت العروسين السعيدين شقة صغيرة أنيقة بحى الروضة الهادىء الجميل حيث رزقا مولودهما الأول بعد سبعة أشهر .

* * *

وانحنى كاظم أفندى على زوجه وطبع على جبينها الناصع قبلة تفيض حناناً وحباً فرفعت إليه عينيها باسمة ومدت ذراعيها فوضع بينهما الطفلة التى كانت قد نامت بين يديه ، فضمتها إلى صدرها فى حنو بالغ كأنما تريد أن تدخلها فى قلبها بينما امتدت يدا الطفلة الصغيرتان بحركة غريزية إلى ثدى أمها وتهاوت عليه بفمها الدقيق تنهل منه راضية قريرة العين ..

وجلس كاظم أفندى الذى حركت الذكريات قلبه يرقب هذا المشهد بعينين ملؤهما السعادة والفرح الغامر وسأل زوجه مبتسما :

— ترى ماذا نسميها يا جيهان ؟

فقالت جيهان هانم وقد لمعت عيناها فى سرور وجذل :

— طالما تمنيت لو رزقنى الله ابنة فأسميها « سناء » .

— سناء ! . . ياله من اسم جميل ينطبق على هذه الحسناء الصغيرة تمام الانطباق ! . .

فضحكت جيهان هانم وقالت فى جذل :

— أأعجبك الاسم ؟

— جميل ولا شك . . مبروك . .

* * *

ومضى على هـذا الحوار سنتان بالضبط ، وكانت الصالة الصغيرة فى بيت كاظم أفندى تسبح فى الأضواء الملونة وجلست صغيرتنا سناء يحيط بها عدد من رفيقاتها وأقاربها وكوّنّ جميعاً باقة جميلة من الزهرات الغضة . . وكن يتصايحن مرحاً حول « طورطة » جميلة توسطت المائدة واستقرت فى وسطها شمعتان مضيئتان بينما جلست جيهان هانم فى غرفة الاستقبال مع ضيفاتها فى ثوب أنيق وقد علا محياها المرح وطغى على قسماتها سيماء السرور والهناءة ، وكانت ترد شاكرة باسمة على عبارات التهنئة التى كانت ضيفاتها تزجينها إليها بمناسبة عيد ميلاد سناء الثانى وفى نفس الوقت ارتفعت صيحات الأطفال وعلا ضجيجهم فقد استطاعت الصغيرة سناء بنفخة واحدة من فمها الدقيق أن تطفىء الشمعتين ، وامتدت الأيدى الصغيرة إلى الطورطة الشهية فسارعت جيهان هانم إليهم واقتطعت لـكل منهم قطعة ما لبث أن التهمها فى اغتباط .

كانت سناء قد وضحت قسماتها وأصبحت كأجمل ما تـكون الطفلة . . شعر بنىّ مذهب وأنف رومانى أشم وعينان عسليتان صافيتان

وفم صغير مستدير وجبين ناصع مرتفع . . أما قدها فكان ينبيء عن طول غير معتاد في قامتها ! . .

هناك قول بأن ابن السبعة يكون عادة حاد الذكاء غريب الأطوار سريع التقلب رقيق الإحساس إلى درجة المرض ! . .

والواقع يؤيد هذا الرأى إلى حدّ بعيد كما يعلله الأطباء تعليلاً فسيولوجياً سليما . .

ومهما يكن فإن هذه النظرية كانت تنطبق إلى حدّ كبير على صغيرتنا سناء فكان كل من يجلس إليها وينظر إلى عينيها يرى توقد الذكاء فى بريقهما الخاطف وكانت بالرغم من سنها حاضرة البديهة سريعة الخاطر ، رقيقة الإحساس إلى درجة أنها كانت تبكى لأوهى الأسباب وتصفق لأتفه المشاهد . . شديدة التطرف فى عواطفها ، ورغم صغر سنها كانت لها شخصية تفرضها على أترابها ورفقائها فكانت دائماً تقود اللاعبين معها وتملى إرادتها ، و إذا ما أرادت شيئاً نالته مهما أصابها فى سبيله من مصاعب .

ألحقها أبوها بروضة الأطفال فكانت نموذجاً للذكاء اللامع وصفاء القريحة ثم انتقلت إلى مدرسة الساكركير الفرنسية فكانت فخر مدرسيها وكانت واسطة العقد بين زميلاتها . .

وعلى هذا المنوال سارت سناء بين إعجاب والديها وتشجيع

أساتذتها حتى بلغت الخامســــة عشرة وتفتحت أكمامها وأسكر عبيرها القلوب والنفوس جميعاً وأضحت غادة هيفاء طويلة القــد ممشوقة القوام رشيقة الخطى تنسدل غدائرها الذهبية على كتفيها فى إهمال حبيب وظهرت بوادر أنوثتها فى صدرها الناهد والتفاف قدها فــكانت بهجة القلوب ومتعة العيون .

obeikandl.com

الفصل الثانى

انتهى مراد من الكتابة وجفّف الخطاب وأشرق وجهه بابتسامة الرضى ومضى يقرأ ما كتب فإذا به :

عزيزى محمود

لا شك أنك ناقم على لانقطاعى عن الكتابة طوال فترة العطلة ولكنى أعلم يقيناً أنك ستغفر لى تقصيرى بمجرد وقوفك على الأسباب التى أخرتنى عن الكتابة إلى صديق يمتزج حبه بدمى ولا يفارق رسمه خاطرى .

. . لا أقول لك إنى كنت مريضاً وهذا عذر وجيه ولا شك إلا أنى أمقت الكذب . . والحقيقة أنى كنت مشغولا بجنى القطن ! لا تضحك حين وقوع نظرك على هذه الكلمات فتتخيلنى رابطاً وسطى بحزام جاعلا من الجزء الأعلى من جلبابى « عِباً » أضع فيه ما أجمع من القطن كما يفعل الفلاحون . . لا يا صديقى ، إنك لا تقدر مبلغ اللذة التى أحسها وأنا أشاهد صفوف الجماعين وهم ينحنون على شجيرات القطن التى تفتحت لوزاتها كقلوب طاهرة بيضاء نقية ، بوجوه ناضرة وثغور باسمة وكلهم فتية وفتيات . أى طرب يملأ قلبى وأنا أستمع إلى أغانيهم الريفية الساذجة يرتلونها بأصوات شجية ونغمات حلوة . .

obeikandl.com

محمود . . هل كانت أم كلثوم واحدة من هؤلاء ؟ . . أنا لا أستبعد هذا الآن !! . .

وهكذا ياصديقى تجد الوقت يمر علىّ دون أن أحس ودون أدنى ملل . نهارى أقضيه فى الحقل حتى إذا آذنت الشمس بالمغيب هرعت إلى ساقية قريبة وجلست إليها أرقب منظر الغروب . . ما أجمل موكب الغروب يامحمودوخاصة فى الريف .. إنى أشيع الشمس كل مساء وهى تسير مختالة متكاسلة جليلة رائعة إلى خدرها البعيد البعيد على توقيع موسيقى سماوية ساحرة رهيبة . .

كل يوم يا محمود أجلس أتأمل الشمس حتي تختفى عن ناظرى بين طيات فراشها الأزرق ذى الحواشى الأرجوانية . . حتى إذا اختفت تماماً أحسست رهبة ووحشة . . لقد ذهبت الشمس التى كانت تملأ الدنيا نوراً وبهجة وحياة وتعزف الأنسام ألحانها الرائعة على صفحة الغدير وكأنما هذا إيذاناً بمقدم المساء فلا يمضى قليل حتى يأتى الليل الوقور من بعيد يجر وراءه طيلساناً من النعاس والظلمة ! . .

أخى : أظن أنى أنانى استأثرت بالجانب الأكبر من الخطاب فى الحديث عن نفسى ولكن طول الفرقة وأثر هذه المشاهد فى نفسى جعلنى أطيل هذه الإطالة التى لا أظن أنها تضايقك . .

أخى : أقبلك بين عينيك وأشد على يدك القوية وأرجو لك كل

متعة وبهجة على شاطئكم الجميل ولا تنس فى خطابك القادم أن تمتعنى بطرف من مغامراتك طوال هذا الصيف وأنا أعلم أنها كثيرة وشيقة وسلام عليك وعلى آلك .

مراد عبد الشافى

ووضع مراد كتابه فى مظروف أنيق وأرسله مع الخادم إلى صندوق البريد بالبلدة التى تبعد عن القرية مسيرة ساعة على الأقل لذلك فقد أهاب مراد بالخادم أن يسرع حتى يلحق بقطار العاشرة والنصف .

كان مراد عبد الشافى هو النجل الأصغر للحاج عبد الشافى السيد أكبر أثرياء القرية وأكرم رجالها وكان فتى فى السابعة عشرة من عمره طويل القامة عريض المنكبين فاحم شعر الرأس والحاجبين ذا عينين سوداوين جذابتين وأنف حاد مستقيم وشفتين ممتلئتين تنبئان عن حدة العاطفة ، وكان طالباً بالتوجيهية وكان له صديق واحد يمضى معه معظم أوقاته . . فى المدرسة وخارجها ، وكانا صديقين متلازمين أبداً متشابهى الأخلاق والميول وهذا الصديق هو محمود فهمى نجل أحد كبار رجال الإدارة بالزقازيق وينحدر من أسرة عريقة بالإسكندرية وهو الذى أرسل إليه مراد ذلك الخطاب الطويل .

وكل من ينظر إلى وجه مراد يوقن أنه ذو نفس شاعرية وحسّ مرهف ، فقسماته الرومانتيكية المتناسقة ونظراته العميقة الحزينة لغيرما سبب ، كل هذا يكشف عن سريرته . .

وهو إلى جانب هذا شجاع ميال للمغامرة واقتحام الأخطار وقد عرف عنه هذا منذ كان طفلا وكان أخوه الأكبر مهندساً بإحدى الشركات الكبرى بالقاهرة تزوج بابنة مديرها وأقام معها فى شقة جميلة بالقاهرة وكثيراً ما كان مراد يزورها فيجد من عطف أخيه وكرم زوجه ما حببه فى القاهرة وأهلها وجعله يتمنى أن ينتهى من دراسته الثانوية حتى يقيم فى القاهرة لإتمام تعليمه العالى . .

وكان هو يرغب فى الالتحاق بكلية الآداب حتى يشبع نهمه من الأدب والتاريخ والفلسفة ولكن أباه كان يريده مزارعاً يشرف على أراضيه ويستثمرها بالطرق الفنية الحديثة وهذا مما تؤهله له كلية الزراعة . .

ومضى العام ومراد يضاعف كده للنجاح وبجانبه صديقه وتوأم روحه محمود . . ودخلا الامتحان بقلوب واجفة وعزائم قوية . . وما أن ظهرت النتيجة حتى كان الصديقان فى مقدمة الناجحين ، ولا تسل عن فرحة مراد بالنجاح وخاصة حين علم بنجاح محمود صديقه العزيز وأخذ مراد يعدّ العدة للتعليم الجامعى بعد أن نزل على رغبة والده فى الالتحاق بكلية الزراعة وما أن أزف ميعاد الالتحاق حتى واتاه خطاب من محمود ينهى إليه أنه التحق بالكلية الحربية ويزين له طريق الجيش والجندية ويقول له فى نهاية الخطاب « . . لم لا نكون زميلين حتى النهاية . فى المدرسة وفى الكلية وفى الحياة ! . . » وفعلت هذه العبارة فى نفس مراد المرهفة

فطلها وتاقت نفسه إلى أن يصبح ضابطاً وكان همه الأول أن يكون بجانب محمود ووقف أخوه الأكبر « أمين » يشجعه ويشدُّ من أزره حتى وافق الحاج عبد الشافى بعد لأى وسافر معه إلى القاهرة وبمساعدة أحد الكبراء تمكن مراد من الانتظام فى سلك الكلية الحربية الملكية وعاد الحاج عبد الشافى إلى قريته بعد أن أمضى يومين فى ضيافة ابنه الأكبر وخلف وراءه مرادا فى صحبة أعز إنسان إلى نفسه وقلبه جميعاً . . محمود العزيز . .

وكما كان الفتيان صديقين حميمين فى المدرسة صارا أكثر من أخوين شقيقين فى الكلية مما جعل علاقتهما مضرب المثل بين الأساتذة والزملاء .

obeikandl.com

الفصل الثالث

مضت الأيام والصديقان عاكفان على دروسهما ولم يضايقهما نظام الكلية الصارم فقد كانا يجدان فيه متنفساً لرغبتهما الشديدة فى المغامرة والرياضة العنيفة ، وفى العطلات الأسبوعية كانا يكتفيان بالتنزه فى هليوبوليس و إذا ساورتهما رغبة فى مشاهدة فيلم سينمى كانا يفضلان الذهاب إلى إحدى الدور الصيفية بتلك المنطقة حتى إذا انقضى الصيف كانت لهما دار مفضلة بشارع الألفى الجميل وكانا يرتادانها فى حفلات بعد الظهر ثم يخرجان إلى الحدائق العامة سيرا على الأقدام و يمكثان بعض الوقت يشاهدان موكب الغروب ثم يعودان إلى الكلية ممتلئين نشاطا ومرحا . . .

وكانا أحيانا إذا لم يمانع محمود يذهبان لزيارة أمين شقيق مراد و يمضيان وقتا طويلا فى أنس وسمر ثم ينصرفان ولم تكن تلك البزة الأنيقة التى يرتديها كل منهما والتى كانت حلم كل فتى مراهق لتستهويهما بل على النقيض ، كانا يتضايقان منها و يود كل منهما لو طرحها عن جسمه جانبا وانطلق فى لباسه العادى . .

هكذا كانت حياة الصديقين تسير بانتظام وهدوء و بساطة . . .

وانتصف العام ومنحتهما الكلية عطلة نصف السنة وصمم محمود على

أن يصطحب مرادا معه إلى الاسكندرية ولكن مراداً اعتذر بحلول الشتاء وأن من الأنسب أن يمضيا العطلة بالعزبة وأخذ كل منهما يلح على الآخر وانتهى الأمر أخيراً على أن يزور محمود العزبة فى الصيف ليشاهد جمع القطن ثم يصطحب مراداً معه للإصطياف بالاسكندرية .

وخرجا من الكلية كل يحمل حقيبة ملابسه واتفقا على أن يمضيا الليلة فى القاهرة ثم يسافران صباح اليوم التالى ، وأشار مراد إلى سيارة تكسى كانت تسير أمام الكلية فوقفت وما استقرا داخلها حتى أمر مراد السائق بالتوجه إلى شارع المدارس حيث يقطن أمين . . وأشار إلى السائق بالوقوف إلى باب عمارة فخمة حديثة البناء تحمل رقم ١٦ .

وكان أمين وزوجه الحسناء يقيمان فى الطابق الثانى من العمارة وصعدا إلى الشقة وفتحت لهما الخادم فدفع مراد إليها بالحقيبتين وسألها وهما يدلفان إلى الداخل عن سيدتها فأجابتهما أنها فى زيارة أسرة تركية تقطن على قيد خطوات من المنزل وهمت بالخروج لاستدعائها ولكن مراد منعها من ذلك وأمرها بإعداد قدحين من الشاى .

ولم تمض هنيهة حتى كان الصديقان يحتسيان الشاى فى دعة وانسجام ونظر مراد إلى ساعته ثم قال :

— هلم بنا فقد أزف الوقت لنشاهد اليوم فيلما رائعا .

— ومن أدراك أنه رائع ؟

— لعلك سمعت عن اسم « خاود » وهو من أروع الأفلام الأمريكية ومن نوع المأساة فقال محمود مؤمناً :

— لقد سمعت بهذا الفيـــلم . . إن كل من شاهده يمتدحه ويثنى عليه . .

— إذن فلنبادر قبل نفاد الأماكن ! . .

وفى تلك اللحظة كانت جيهان هانم تشيع حسنية إلى الباب وهى تشد على يدها ولم تطل حسنية زوجة أمين جلستها فى هذه المرة على غير مألوفها نظرا لأنها لم تجد سناء بالمنزل فقــد كانت فى زيارة عمتها خديجة هانم .

كانت حسنية زميلة سناء بمدرسة الساكركير قبل أن تقترن بأمين وهى وإن كانت تسبق سناء بعامين فى الدراسة إلاّ أنها كانت صديقة حميمة لفتــاة تدعى ميرفت وهى من أم تركية وأب مصرى وبالطبع كانت سناء أقرب الزميلات إلى قلب ميرفت هذه وبالتالى توطدت الصلات بين حسنية صديقة ميرفت الحميمة وسناء الطالبة الجميلة المجدة التى كانت تنال جوائز التفوق فى كل شىء مما كان حديث الطالبات جميعا ومثار حسدهن . .

ولو كان مراد ومحمود قد تأخرا قليــلا لسبب أو آخر لتقابلا مع حسنية لدى عودتها من بيت كاظم أفندى ولضاعت عليهما من غير شك

حفلة بعد الظهر لأن حسنية ما كانت لتدعهما يخرجان قبل تناول طعام الغداء مهما تكن الأعذار ! . . .

وانطلق الصديقان إلى سينما « أوبرا » تلك الدار المصرية الأنيقة التى تقوم كعروس فى مواجهة تمثال الفاتح إبراهيم باشا . وتمكنا بعد جهد من الدخول والجلوس فى مكانين لا بأس بهما وكان الزحام شديدا حقا مما دل على شهرة الفيلم . وكان مراد من عشاق النجم « شارل بوايبه » بطل الفيلم فلما غادرا دار العرض بعد انتهاء الفيلم كان محمود أكثر فتونا بشخصية الممثل العبقرى الذى كان أعظم سفير لفرنسا فى عاصمة السينما . .

وسار محمود يتحدث إلى مراد مبهور الأنفاس ملتهب الوجه :

— يا له من فيلم ! لقد استدر دموعى أنا الذى لا أبكى أبدا . .

فابتسم مراد وقال :

— حقا يا لها من مأساة ولكن هل تظن أن الإنسان يموت من الحب كما فعلت بطلة المأساة ؟! . .

— والله لست أدرى ولكن حتى إذا استحال هذا الأمر فإنى آمنت بإمكان حدوثه بعد مشاهدة هذا الفيلم ! . .

— لا تنس أنه خيال وليس حقيقة ثم هناك جانب جدير بالاعتبار وهو أن بطلة القصة كانت مريضة القلب واهنة الجسم لم يتحمل قلبها

صدمات الحب وخاصة حين رأت حبيبها الذى وهبته روحها تنتزعه منها امرأة أخرى هى أقرب الناس إليها ، وتحكم الظروف أن تعيش الفتاة المسكينة معهما تحت سقف واحد وتلمس سعادة هى محرومة منها ، فلم تطق صبراً فتهاوى جسمها الهزيل وفاضت روحها بعد أزمة من أزمات القلب المريض . فقال محمود فى تأثر :

— ولكن يا صديقى ألا ترى معى أن البطلة تلك الفتاة الطروب التى كانت كالعصفور الجميل تنطلق مع الطير هائمة فى سماء أحلامها الجميلة الساذجة . . ألا ترى معى أنه لو نالت هذه الفتاة مبتغاها وحققت رغبة عمتها من أعماق روحها المعذبة وعاشت بها ولها سنين لعاشت عيشة رغدة هانئة وامتلأت صحة وحياة وقوة ! . .

— أنا معك فى هذا الرأى ولكن ما بالك إذا لم يتحمل القلب المريض المحروم انفعالات الحب وطفراته العنيفة ؟ !

— لولا أن هذا القلب يحب من أعماقه ويعيش لهذا الحب وبه لما انتهت حياته بهذه المأساة . .

وهكذا كان مراد ومحمود يتحاوران وهما يسيران على كوبرى قصر النيل وكانت الأنسام الباردة تهب عليهما فتدفع إلى عروقهما النشاط والحركة وأخيراً وجدا نفسيهما فى حديقة النادى الأهلى وكانا مشتركين فيه وجلسا يستريحان إلى إحدى الموائد المتناثرة على ذلك البساط

الأخضر الممتد وحضر الجرسون فطلب مراد منه قدحاً من الشيكولاتة الساخنة بينما قال محمود :

— أما أنا فاحضر لى عشاء فإنى أكاد أموت جوعاً ! ثم التفت إلى مراد وقال :

— عجباً ؟ ألا تشعر بالجوع يا مراد ؟ !

— فى الحقيقة أنى جائع ! . . أحضر لنا عشاء لاثنين من فضلك . .

وانتقيا ما طاب لهما من ألوان الطعام وجلسا يأكلان فى شهية وسرور .

obeikandl.com

الفصل الرابع

سار الصديقان فوق كوبرى إسماعيل واقتربا من نهايته ونظرا إلى الثكنات الحمراء وقد رفرف عليها العلم الإنجليزى وكان كل منهما يود من صميم نفسه لو انقض على هذا العلم اللعين ومزقه إربا . وتقابلت نظراتهما وكان كل منهما يفهم تماما ما يجيش فى صدر صاحبه وسارا فى صمت حتى بلغا الميدان الواسع الذى يعج بالضجيج والحركة . .

وبينما هما واقفان فى انتظار إشارة المرور إذ شعرا بشخص يتوسطهما ويحيطهما بكلتا يديه فالتفتا فإذا به أمين وصاح مراد فى فرح وجذل :

— إلى أين أيها الهارب ؟ لقد غادرنا الكلية منذ خمس ساعات وتوجهنا إلى المنزل فلم نجدك ولا حسنية . . فقال أمين فى نبرة أسف :

— من سوء حظى أنى تغديت فى الخارج فقد كان لدى عمل كثير لا يحتمل التأجيل ففضلت الانتهاء منه وتناولت الغداء فى مطعم قريب من مقر الشركة . . ثم التفت إلى محمود وقال :

— إلى أين أنتما ذاهبان ؟ ! لا سينما الليلة لأنكما ستذهبان معى إلى الأوبرا لمشاهدة مسرحية الفرقة القومية الجديدة !!

فقال مراد معترضا :

— لن نذهب إلى السينما ولا إلى الأوبرا لأننا شاهدنا حفلة بعد الظهر .

وصاح أمين محتجا :

— لن يكون هذا. إنها تمثيلية رائعة من نوع الأوبريت ولن أدعكما تفلتان من يدى بعد أن عثرت عليكما ! . . . فالتفت مراد إلى محمود فى حدة وقال :

— ماذا ترى يا محمود ؟ فقال محمود ضاحكا :

— والله لقد أوقعتمانى أنت وأمين بك فى حيرة . . فقال أمين وهو يربت على كتفه وكان يحبه كمراد :

— إن الأمر فى منتهى البساطة . . سنتوجه الآن إلى المنزل لإمضاء بعض الوقت والدردشة مع حسنية فهى فى شوق إليكما ثم نتناول طعام العشاء وبعد ذلك يتحرك موكبنا الجليل إلى دار الأوبرا ! . .

فضحك مراد ، وعلق محمود باسما .

— لا بأس بهذا البرنامج بعد استبعاد بند العشاء ! لأننا تعشينا منذ قليل فى النادى الأهلى . . وصاح أمين فى عتاب وهو ينظر إلى أخيه الذى ارتبك :

— ما هذا يا مراد أتتعشيان خارج منزلى ؟ أهذا يليق ؟

فابتسم مراد فى حرج واحمر وجهه وهو يقول :

obeikandi.com

— آسف يا أمين لقد عضنا الجوع وكان المكان جميلا فأحببنا أن نتعشى هناك . . فقال أمين وقد عاوده مرحه الأصيل :

— حسناً . . عفونا عنكما هذه المرة على أن تكون الأخيرة . .

واستقبلت حسنية ضيفيها مرحبة وعاتبتهما فى رقة حين أبلغها أمين أنهما قد تعشيا فى الخارج وأمضى الجميع وقتا ممتعا فى سمر وتناول الزوجان عشاءً خفيفا بينما انهمك مراد ومحمود فى لعب الشطرنج .

واقتربت التاسعة فارتدت حسنية ملابسها وخرجوا جميعا إلى دار الأوبرا .

كان محمود منهكا فما لبث حين استقر فى مكانه أن راح فى سبات عميق أما مراد فقد كان فى شغل عما يجرى على المسرح بما يجرى فى خاطره . كان يفكر فى المأساة التى شاهدها منذ ساعات وكان لا يريد أن تطغى مشاهد التمثيل وموسيقى الأوبرا فتشوش المشاعر الجميلة التى خلفها الفيلم فى نفسه .

وعزفت موسيقى الختام ، أفاق محمود على عاصفة من التصفيق تجاوب صداها فى أرجاء المسرح الكبير ولم يجدوا كبير عناء فى البحث عن تاكسى رغم أن الساعة كانت الواحدة صباحا . .

وانطلقت بهم السيارة فى شوارع العاصمة الساكنة النائمة ووقفت بهم أمام عمارتهم الأنيقة فصعدوا إلى الشقة ولم يمض نصف ساعة حتى كان النوم يبسط سلطانه على الصديقين والزوجين . . .

وفى الصباح استيقظ محمود مع الشمس التى كانت تتمطى فى خدرها وأيقظ مراد وارتديا ملابسهما وأعدا حقيبتيهما واكتفيا من الإفطار بقدحين من الشاى وتأهبا للخروج بعد أن ودعا أمين الذى استيقظ وهما على وشك الخروج . .

وسارا فى الطريق وتعلقت نظرات مراد باللوحة الصغيرة المكتوب عليها اسم الشارع وقال فى تعجب :.

— شارع المدارس ! وأين المدارس ! ؟ إنى لم أر مدرسة واحدة منذ سرنا فى هذا الشارع . فقال محمود :

— حقا ؟! ولكن ألا ترى هذه الزرافات التى لا تنقطع من الفتيات الذاهبات إلى مدارسهن ثم انظر إلى هذه الشقراء الرشيقة وكيف تخطر فى همة ونشاط . . يبدو أنها طالبة مجدة . وتأمل مراد الفتاة ذات الشعر الذهبى التى كانت تسير على قيد خطوات منهما تخطو فى سرعة وخفة فى ثوبها الأسود القصير وشعرها يتماوج وراءها . . كانت طويلة القامة رائعة القدّ . وحانت منها التفاتة فرأى جانبا من وجهها فإذا به ناصع البياض وأحسّ مراد بإحساس غريب وهو يتأملها ولم يدر سر تلك الكآبة التى استولت عليه ولكنه قال بعدم اكتراث :

— أغلب الظن أنها أوروبية . . أرى ذلك من سمتها . .

ولم تكن هذه الطالبة الحسناء سوى سناء كاظم فتاتنا التركية التى تقطن على قيد أمتار من منزل أمين . . .

الفصل الخامس

« من مذكرات سناء كاظم »

الأربعاء ١٧ مارس :

استيقظت اليوم متأخرة على غير عادتى فقد امتدت بنا السهرة فى بيت عمتى خديجة هانم حتى الواحدة صباحا . . أواه ! . . ما هذا الصداع الشديد . . إن رأسى يكاد ينفجر ! . . إنى أكره السهر وأكره الحفلات الصاخبة المزعجة . . رباه كيف تسنى لى أن أقضى كل ذلك الوقت فى بيت عمتى ؟ أما كان الأجدر بى أن أذهب إلى فراشى وأغرق فى أحلامى اللذيذة التى حرمت منها هذه الليلة ؟ ! . . .

إنى لأبحث فى ثنايا ذاكرتى عما تبقى من ذكريات تلك السهرة فلا أجد سوى صوراً مختلطة ممزوجة بموسيقى مزعجة تلك التى يسمونها الجاز لا تزال تطن فى أذنى حتى الآن ! ! . .

وإنى لأذكر تلك الثياب الرقيقة المفهافة التى كانت ترتديها المدعوات حتى المسنات منهن . . ولست أنكر أنها رائعة إلاّ أنها كانت تكشف عن صدورهن وظهورهن مما لا أحبه لنفسى أبداً . وكيف أنسى نظرات الرجال النهمة التى كانت تفترس الأكتاف العارية

والظهور البضة ! . . ثم ذلك الشباب الرقيع الذى كان يضيق به البيت والذى لم يكف لحظة عن ملاحقتى بنظراته الجريئة الوقحة ونكاته السمجة التافهة ، ولم يعجبنى واحد منهم وإن كانوا جميعا نماذج للأناقة والوسامة إلاّ أن شيئا كان ينفرنى منهم جميعا هو تلك الطراوة البادية فى حركاتهم وتلك النعومة فى الحديث والدقة فى الصوت . .

ولولا أن سعيدا ابن عمتى كان يخف إلىّ كلما ضيّق علىّ هؤلاء الشباب الخناق لتركت الحفل قبل التاسعة . . وليتنى فعلت !

رباه ! . . كأنى كنت فى حلم مزعج استيقظت منه الآن .

إن هذه المرة الأولى والأخيرة التى أحضر فيها مثل هذه الحفلات وإذا كانت عمتى وزوجها بإقامتهما هذه الحفلات الصاخبة يدّعيان أنها من مستلزمات الرقى والأرستقراطية فإنى أفضل ألف مرة أن أقضى عمرى فقيرة خاملة . . .

الأحد ٢١ مارس

كان اليوم هو موعد زيارتنا لعزبة زهدى بك القريبة من المطرية وقد كانت نزهة ممتعة حقا . هأنذى أكتب كل مشاهداتى ومشاعرى طوالها .

قبل بضع سنوات كنت أضيق ذرعا بيوم الأحد وهو يوم العطلة الأسبوعى ولست أدرى بالضبط السبب أو الأسباب التى جعلتنى أكره

هـذا اليوم فى الوقت الذى تنتظره كل زميلاتى بصـبر نافد وقلوب ملهوفة ! ! هل ذلك لأنى مشغوفة بالدرس محبة لمدرستى ؟ أم لأنى كنت لا أجد ما أفعله طوال يوم العطلة ؟ !

ومن الغريب أنى كنت لا أجد أية رغبة للنزهة أو الخروج أو الترويح عن النفس كغيرى من الفتيات . . .

على أى حال فقد أصبحت الآن وفى السنتين الأخيرتين على وجه التحديد أشعر بنفسى تضيق ذرعا بالمدرسة ومن فيها وصارت أسعـد أوقاتى هى التى أقضيها فى المنزل مستلقية أقرأ فى مؤلف أو كتـاب فى الأدب وصار لى من بين الـكتاب والشعراء أصدقاء أجلهم وأحبهم من أعماق روحى وأذكر من بينهم هيجو وموسيه ولامارتين وإلى جانب هؤلاء من أبناء السين شوقى والحـكيم والمازنى ولم أجد كبير اختلاف بين كتاب السين وكتاب النيل ، وكأنى بهم جميعا خلقوا من جبلة واحدة يحملون بين جنوبهم نفس القـلوب الحسّاسة الزاخرة بأجمل العواطف وأرق المشاعر ولأقف عند هذا الحد فلست أريد الانسياق مع حديث الأدب والأدباء لأنه حديث طويل ذو شجون . . .

صرت أردد فى نفسى متى يأتى الأحد بعد أن كنت أقول متى ينتهى الأحد ! . . صرت أقل رغبة فى الدرس أشد ميلا إلى العزلة والتأمل والقراءة وأصبح يوم الأحد يوما حبيبا انتظره ضجرة مشغوفة ،

ولما دعانا زهدى بك والد ميرفت إلى زيارة عزبته لم أجد ميلا إلى الموافقة لولا إلحاح والدتى وتوسلات « ميرفت » .

وانطلقت بنا السيارة فى الصباح الباكر وكانت الأنسام رفافة منعشة بددت الضجر الذى جثم على قلبى ، وعرجت بنا السيارة فى طريق زراعى تحف به أشجار الكازورينا من الجانبين وانتهت بنا إلى فيلا صغيرة جميلة تحيط بها حديقة واسعة بديعة التنسيق واستقبلتنا عند الباب سيدة ريفية تجرر أذيال طرحتها السوداء الطويلة بابتسامة عريضة ووجه يطفح بالبشر والصحة وأقبل رجل أسمر يتعثر فى ثيابه الريفية وانحنى على يد زهدى بك يقبلها فى احترام عميق وما لبث الإثنان أن انخرطا فى حديث طويل عن الزراعة والمحصول الجديد .

ودخلنا إلى الفيلا أنا وميرفت بينما وقفت والدتى وحرم زهدى بك فى الحديقة تملآن أعينهما من مناظرها الرائعة وكانت حرم زهدى بك تشرح لوالدتى بإسهاب تاريخ شرائهم للضيعة والمجهود الذى يبذله زوجها لاستصلاح أرضها واستثمارها . . . وتخلف والدى كى يجمع باقة من الزهور وهو ينظر فى جذل بين لحظة وأخرى إلى الغدران الفضية المنبثة بين الخمائل والأشجار . . .

وكانت الدار الأنيقة مؤثثة ببساطة ونظام ينمان عن ذوق سليم . واستلقينا على مقعدين مريحين فى غرفة الاستقبال الصغيرة ودخلت علينا

الخادم اللطيفة التي استقبلتنا حين وصولنا تحمل كوبين من عصير البرتقال ولم تفارق وجهها الصبوح ابتسامتها العريضة . . وقامت ميرفت تجول بي في أنحاء الفيلا وقد راقني حسن ترتيبها ونظافتها وعلقت ميرفت على ملاحظاتي بقولها :

— إن السبب فيما ترين من عناية وترتيب هو كثرة ترددنا على الضيعة فلا يكاد يمر أسبوع حتى يزورها والدى رغم مشاغله الكثيرة في العاصمة . . . ثم تركتني وعادت بعد هنيهة تحمل بين يديها قفصاً جميلا يحتوى على مجموعة فريدة من العصافير الملونة ودفعت به بين يدى صائحة في جذل :

— انظرى يا سناء إلى هذه الطيور الصغيرة الجميلة . . أترين كيف تقفز في رشاقة وخفة ؟ . . فقلت وقد أخذتني الشفقة والألم لمنظر هذه الطيور الحبيسة المسكينة — :

— لك الله يا ميرفت . . هل تظنين أن الله خلق هذه الطيور لعباً نلهو بها ؟ ألا تعلمين أن الله خلقها كما خلقنا لتستمتع بحريتها وتحلق تحت هذه القبة الزرقاء صادحة مغردة . . بالله أنصتى إلى تغريدها الآن ألا يشبه أنات مختنقة تند عن قلوب كليمة ؟ ! !

ماذا عليك يا حبيبتى لو أفرجت عنها ومنحتيها حريتها التى هى أثمن عندها من كل شيء ؟ . .

opeikandi.com

ولم أكن أدرى أو أتصور أن كلماتى سيكون لها كل ذلك الأثر فى نفس ميرفت الطيبة الرقيقة إذ رأيت الدموع تترقرق فى عينيها الجميلتين وقالت وهى تنشج .

— بالله ياسناء كفى لوماً . . لست أدرى كيف فاتنى إدراك هذه المعانى ولكنه تقليد أخذته عن أسرة خالى فهم يقتنون مجموعة كبيرة من الطيور النادرة . أهكذا يكون الأغنياء غلاظ الأكباد قساة القلوب لاشك أنى أنانية قاسية ...

فقلت وأنا أشعر بشىء من اللوم على اندفاعى :

— لست أقصد إلى إيلامك أيتها العزيزة ، وإنما هى طبيعتى منذ ولدت فاعذرينى . هلمى بنا ولنمتع قلبينا بمنظر هذه الطيور المسكينة وهى تتنسم أولى أنسام حريتها بعد سجن طويل . .

ونزلنا إلى الحديقة والتفتت إلى مرفت وقالت :

— ذرينى أفرج عنها بيدى لعلى أخفف من وزر سجنى لها وتعذيبها الأيام الطوال . . وأمسكت بالقفص بين يديها وفتحت فرجة فى جانبه فأطل عصفور جميل منها ثم حرك رأسه الصغير ووقف على حافة القفص وبرقت عيناه كأنما هو لا يصدق مايرى ، ومالبث أن قفز ونشر جناحيه وترك نفسه منتشيا جذلا بحريته وتبعته باقى العصافير وحلقت فى سرب صغير وما لبثت أن غابت عن أنظارنا ونحن نتبعها بأعيننا فى سرور وبهجة .

ومدت ميرفت يدها إلى القفص قائلة :

— أما هذا فليس لى به حاجة بعد الآن . . فأخذته وسرنا نتجول ثم خرجنا إلى المزرعة لنشاهد الإصطبل وصادفنا طفل صغير نظيف الثياب وابتسم فى وجهنا فى وداعه وبراءة وأخبرتنى ميرفت انه ابن ناظر الضيعة فما لبثت أن أعطيته القفص فأخذه وانطلق مسروراً وابتسمت ميرفت وقالت :

— شكراً ياسناء ، لولاك لـكانت العصافير المسكينة معذبة فى سجنها حتى الآن . . .

وقابلنا والدتى وهى تمتطى صهوة جواد أبيض يسير بها متمهلا وهى تحاول أن تخفى جزعها بابتسامة ! ولوحت لنا بيدها وسارت فى طريقها وتبعتها حرم زهدى بك التى أخبرتنى ميرفت أنها فارسة ماهرة وما أن بلغنا الدوار حتى وجدنا والدى جالسا مع زهدى بك يحيط بهما جمع من الفلاحين . . .

و بعد أن شاهدنا الإصطبل غادرنا الدوار وسرنا نتجول فى أنحاء المزرعة نرقب السواقى الدائرة فى حركتها الرتيبة ونصغى إلى قواديسها وهى تصب مياهها وإلى صرير تروسها الذى كان أشبه بأنين حزين وتذكرت ما قالته لى والدتى من أن كل شىء فى تركيا الحديثة يسير بالآلة وذلك حين رأيت آلة بخارية تقوم بحرث مساحات كبيرة من

الأرض . وكانت أقدامنا قد تعبت من السير الطويل فعدنا أدراجنا إلى الفيلا وارتمينا على مقعد مستكين فى ظل كرمة عجوز بالحديقة . وأخذنا نتبادل الحديث ألوانا ، واكتمل شملنا حول مائدة الغداء . وبعد الانتهاء أحسست رغبة فى الاستلقاء فقادتنى ميرفت إلى حجرة رحبة بها سريران وصوان كبير بديع الصنع وبعض قطع الأثاث الصغيرة وزينت جدرانها بلوحات فنية رائعة تحمل توقيع ميرفت فأنا أعلم أنها رسامة ماهرة . . واستلقيت على الفراش منهكة بينما جلست ميرفت بجوارى على « الشيزلونج » . وأزحت الستائر الوردية بأصابعى فطالعنى منظر الخضرة الممتدة وهى تلتقى عند الأفق البعيد بصفحة السماء الزرقاء الصافية ، وسبحت فى تأملاتى وخواطرى وشعرت بخدر الراحة والهدوء يسرى فى كيانى ولم ألق بالا إلى ميرفت حين غادرت الغرفة وعادت بعد قليل إلا حين انسابت أنغام الفالس الجميلة وملأت الغرفة سحراً ومرحا فعلمت أنها أحضرت الجرامافون من السيارة وكنا قد اصطحبناه معنا من القاهرة .

كم كانت ساعات جميلة تلك التى قضيتها فى عزبة زهدى بك . . .

وعادت بنا السيارة مع موكب الشمس الغاربة وأصر زهدى بك على أن يوصلنا إلى منزلنا أولا وبعد ذلك يعودون إلى منزلهم بالجيزة . . .

والآن ها أنا ذا أعود إلى منزلى . . إلى غرفتى الصغيرة الحبيبة . . إلى خزانة ملابسى وكتبى العزيزة . .

حقا كنت أشعر بشىء من الكآبة حين كانت السيارة تعود بنا

إلى القاهرة ولـكن هذه الـكآبة تبددت الآن تماماً حين وجدت نفسى ثانية فى حجرتى مع كتبى وخواطرى .

الخميس ١٨ أبريل

« لست أدرى كيف فقدت السيطرة على نفسى هذا اليوم حتى لقد أخذ العجب كل زميلاتى حين انفجرت فجأة فى البكاء وأنا أجيب على أسئلة مدرس التاريخ بالمدرسة ، وعقدت الدهشة لسان الشيخ الطيب وما لبث أن تقدم منى وهو يمسح نظارته ثم ربت على كتفى فى رفق وقال :

— يظهر ياسناء أن أعصابك متوترة .. يحسن أن تنصرفى الآن ..

وكان الدرس الأخير فبادرت إلى مغادرة المدرسة وجلست ساهمة شاردة فى مقعدى بالأتوبيس ..

كنت أشعر بالأسى لأن والدتى أمضت ثلاثة أيام متوعكة فى فراشها وكان قلبى يفيض هما : كلما وجدتها طريحة الفراش ذابلة المحيا حتى فاضت الـكأس فانفجرت باكية أمام زميلاتى ... أوه كم كان هذا مخجلا !..

كادت الفرحة تطير بى حين وجدت والدتى بالشرفة تطل على بوجهها الجميل الحبيب وصعدت الدرج قفزاً واستقبلتنى فاتحة الذراعين فارتميت بين أحضانها باكية ... أواه يا أمى العزيزة كم أحبك !

قالت والدتى وهى تنظر إلى بعينين ملؤهما الحنان والدهشة :

— ماذا ياسناء أتبكين ؟ !

— أبكى فرحاً بشفائك يا أماه ألا تعلمين أنى أحبك أكثر من حياتى . . وابتسمت والدتى ثم قبلتنى فى عينى وقالت متسائلة :

— ماذا عاد بك هكذا مبكرة ؟

— لم أستطع المكوث فى المدرسة فأذن لى الأستاذ بمغادرة الدرس والانصراف . .

كنت أنظر إلى والدتى وأرى تورد وجنتيها فلا أصدق عينى وقفزت من مقعدى وقبلتها بسرعة وقلت :

— لا شىء يعدل فرحتى بشفائك يا أماه : فقالت باسمة :

— لقد كانت وعكة بسيطة وأحمد الله أنها لم تستمر يوما آخر .

— أنسيت أن باكر عيد ميلادك ؟ !

— لقد أنسانى مرضك كل شىء حتى عيد ميلادى الذى كنت أترقبه وأعدّ الدقائق والثوانى فى انتظاره .

وبعد قليل أقبل والدى يحمل بين يديه كيسا كبيرا من الفاكهة فحملته عنه ولم يخف علىّ حزنه لأن قبلته لى كانت فاترة بعد أن كان يقبلنى وهو يحملنى عن الأرض كطفلة صغيرة . .

وكان لظهور والدتى وإقبالها عليه بوجهها المشرق الباسم فعل السحر فى نفسه فما لبث أن أحاطنا نحن الاثنتين بذراعيه وهو يضحك ويحاول عبثا أن يخفى الدموع المتألقة فى عينيه . . وكانت ساعة أنس وبهجة

بعد أيام أمضيناها فى كدر وحزن ، وأقبلت عمتى خديجة هانم وتلتها خالتى ثم عمتى أنصاف هانم ولم يمض قليل حتى اكتظ المنزل بالزائرات، وانطلقت الضحكات الناعمة تبدّد الوجوم الذى خيم على البيت ثلاثة أيام طوال . . وسرنى حضور ميرفت التى أقلقها مسلكى فى المدرسة فحضرت لتطمئن وتستفسر عن صحة والدتى . . ومكثت معى فترة طويلة ثم قامت حين سمعت صوت السيارة يدوى من الشارع .

وجلست إلى كتبى ولكنى لم أقرأ شيئا فتناولت عشاء خفيفا وها أنا ذا أتأهب للنوم . . لا شك أنى سعيدة وأحب أن أرى كل مخلوق سعيد فى هذه الدنيا .

(انتهت المذكرات)

obeikandi.com

الفصل السادس

أية براعة هذه التى يحبك بها القدر أطراف أقاصيصه ومآسيه ؟

إنه ليخرجها إخراجا يعجز عن مثله أعظم المخرجين فنا وأروعهم خيالا !

إنه لينظر إلى عجلة الزمن فى لفاتها السريعة وهو يبتسم ابتسامة حوت آلاف المعانى وحارت الأجيال فى استكناه سرها أو إدراك معناها !. .

إنه القدر و إرادته الفولاذية العاتية الذى يحرك أبطال هذه القصة..

هل من يستطيع الوقوف فى طريقه أو اعتراض إرادته ؟ . .

كان يوما عاصفا من أيام الخريف اكتست فيه المدينة حلة رمادية داكنة وعبثت الريح بالأشجار فتساقطت أوراقها وأخـذت تئن أنينا خافتا تحت أقدام المارة . .

وانحدر مراد من منزل أخيه ببزته السوداء الأنيقة وهو يشعر بانقباض لعل لحالة الجو دخلا فيه . .

وكانت الشمس متوارية خلف السحب لا تكاد تطل على الـكون بوجهها المنير حتى يتزاحم أمامها الغمام وترتفع ذرات الغبـار محاولة أن تبدد أشعتها الصفراء . . .

وتابع مراد خطاه تجاه الميدان الواسع ولم يكن محمود معه فى ذلك الوقت فقد ذهب لزيارة ابن خالته وهو طالب بكلية الهندسة وظن مراد

أول الأمر أن سر انقباضه يرجع إلى تخلف محمود عن صحبته ولكن هذه ليست المرة الأولى التى يتركه فيها محمود ، وكم من مرة سار وحيدا يجوب أنحاء العاصمة كالطائر السعيد . وفى الواقع إن حالة الجو كانت تدعو إلى الانقباض فقد كانت هبات الغبار المتطاير تعمى العيون وتضايق الأنوف . ووجد مراد أمامه بغتة غادة هيفاء تسرع الخطى وهى ممسكة بقبعتها بكلتا يديها مخافة أن تطير مع الريح . . وابتسم مراد وتبدد ضجره فى لحظة ! وكان منظر الآنسة الصغيرة الجميلة يدعو حقا إلى الابتسام . . كانت أشبه بطفلة صغيرة . . ولما صارت على قيد خطوات منه عرف فيها تلك الطالبة النشيطة التى رآها هو ومحمود صبيحة يوم من أيام الربيع وكانت تغذ السير إلى مدرستها خفيفة رشيقة الخطى . .

ولم تكن الفتاة الجميلة سوى سناء كاظم التى تقطن فى نفس الشارع وقد عرفها مراد من قامتها الفارعة وموجات شعرها الذهبى المنحدرة على كتفيها البديعتين ، وبهت مراد وهو يتفرس فى محياها الفاتن فقد أخذته تلك المسحة الشرقية الساحرة المتجلية فى قسماتها . . يا لله ما هذا الحسن؟! لكأنها إحدى أميرات الأساطير ، كان يرى فى عينيها الآسرتين سحر الشرق وعمقه وأسراره وفى شعرها الذهبى المتوهج شمس الشرق القوية الساطعة . .

وأخذه العجب فقد حسبها فى المرة الأولى أوروبية وهو يكاد يجزم الآن أنها شرقية . .

وعجب مراد أكثر من ذلك الراقد بين جنبية ماله وقد كان منذ لحظات يتململ ضجرا يقفز فى رعونة ويصفق جذلا !! . .

وتابع مراد خطاه غير مستريح للشعور الذى انتابه وهو يقول متصنعا عدم الاكتراث : « لعلها لبنانية » ! !

* * *

دلفت سناء إلى منزلها وهى تحاول عبثاً أن تكظم شعور الخجل والغضب الذى تملك نفسها . . .

ترى ماذا فيها جعل هذا الفتى السخيف يضحك منها ؟ هل فى ملبسها ما يجعلها هدفاً لسخرية الناس ؟ ! . .

أو أن منظرها لم يرق فى عين ذلك الشاب المغرور الذى يسير فى بزته العسكرية وهو يحسب نفسه ماريشالا أو قائداً عظيما ؟ ! واستعرت فى نفسها نيران الغيظ والغضب تذكيها نعرتها التركية الموروثة . . . كم ودت لو أسمعته كلمة قاسية أو هوت على وجهه الصفيق بيدها ! !

وكانت والدتها فى غرفتها تتهيأ للخروج ووجدت سناء نفسها واقفة فى الشرفة وعيناها تبحثان عن بزة سوداء تلاشت بين المارة ! ! !

وجرت إلى غرفتها فى انفعال وأغلقت الباب وراءها بعنف وبعد

هنيهة سمعت نقرتين خفيفتين ودخلت على أثرهما جيهان هانم بكامل ملابسها وتقدمت منها قائلة فى حنان وتساؤل :

— ماذا بك يا سناء ؟ !

— لاشيء يا أماه . . .

— ولكنى أرى أنك عصبية . . هل حدث شيء ؟

— لا ! . .

— إنك تكتمين فى نفسك أمراً . . هلا أخبرتنى عنه ؟ ورقت نبراتها وقالت :

— هلا بحت لوالدتك بما يثقل قلبك ؟

— لاشيء يا أماه . . إنى بخير ولكن هناك سؤال يتردد فى نفسى وددت أكثر من مرة لو طرحته عليك ! . . هل ترين فى منظرى أو مشيتى ما يضحك أو يدعو إلى السخرية ؟ !

فرفعت جيهان هانم حاجبيها فى دهشة وعجب وصاحت :

— أنت يا سناء ؟ ! إنك لا تعلمين أنى أدعو الله ليل نهار أن يحرسك من أعين السوء ويرد عنك سهام الحاسدين . . . . وقالت سناء وقد برقت عيناها الجميلتان :

— هل معنى هذا أنى جميلة ؟ . . أقصد غير قبيحة أو مضحكة ؟ !

— أقولها غير متحيزة إننى لم أر فتاة أوسيدة فى مثل حسنك . . إنك درة الحى وأنضر وردة فى هذه الروضة .

obeikandl.com

فأطرقت سناء حياء وأضاء محياها الساحر بومضة خاطفة من الفرح الغامر بينما قالت أمها باسمة وهى تربت على كتفها :

— هل استرحت الآن ؟ خبريني إذن بما فى نفسك . . .

— لا شيء سوى أنى أحس هذه الأيام أن بى شذوذا أو شيئاً غريباً يجعل أعين الناس تتفرس فى أينما سرت وقد صادفنى فى طريقى الآن فتى مغرور من طلبة الكلية الحربية وأخذ يحملق فى وجهي ثم ابتسم ابتسامة فيها سخرية وفيها شيء يشبه الإشفاق وكأنى به ينظر إلى طفلة غريرة حمقاء ! . .

وأطلقت الأم ضحكة رقيقة تجاوب صداها كرنين أجراس الفضة حين سمعت من سناء ذلك القول ثم قالت جادة :

— لا عليك يا سناء ستصادفك أشياء كثيرة من هذا القبيل فلا تعيريها أدنى التفات وإلا عشت فى وساوس وآلام مضنية لا تنتهى . . من هو هذا الشاب أو غيره حتى يغضبك أو يتسبب فى إيذاء شعورك ؟ !

— ولكنك يا أماه لا تتصورين مقدار صفاقته .. كم وددت لو صفعته أو أسمعته كلمة قاسية ! . . فنظرت إليها جيهان هانم فى لوم وجزع وقالت :

— وهل بك عادة أن تشتمى المارة وتصفعيهم ؟ . . لا ياسناء . . ليس أنت من تسلك هذا المسلك الشائن .

فأطرقت سناء رأسها وتجمعت الدماء فى وجنتيها من الخجل حتى صار لونهما كتفاحتين ناضجتين وقالت :

— آسفة يا أماه سأنسى هذه الحادثة ولن أعير مثلها أدنى اهتمام بعد اليوم .

— إني أرى أعصابك متوترة ويحسن أن تتناولى ملعقة من الزجاجة الموضوعة فوق النضد الصغير فى غرفتى ففيها راحة لأعصابك ثم تستلقين قليلا وليس من الضرورى أن تعكفى على دروسك الليلة . . وقبلت الأم ابنتها وانصرفت . وكم سرت سناء بهذه المحادثة فقد صادفت كلمات أمها هوى فى نفسها . . وأعادت إليها ثقتها فى حسنها . .

وسمعت صوت الباب الخارجى يغلق ثم خطوات أمها السريعة وهى تهبط الدرج وأحست راحة خفية لانفرادها بنفسها ! . .

أية أفكار جاشت فى رأس هذه الفاتنة الصغيرة حتى أطالت التحديق فى مرآتها على غير مألوفها ؟ !

لقد اعتادت أن تختلس من المرآة كل صباح نظرة خاطفة قبل ذهابها إلى المدرسة لتطمئن على منظرها العام ، ولم تجذبها المرآة السحرية التى جذبت ولا زالت تجذب الملايين من بنات جنسها وتستأثر بهن الساعات الطوال كل يوم وليلة . . ولم تكن سناء تعلم أن المرآة لاتقنع بهذه النظرة العابرة العجلى من ذلك الوجه الفاتن ! وكأنما هى أدركت أخيراً وهى منفردة بنفسها فى غرفتها أنها تمادت فى إهمال مرآتها بينما هى لاتستحق منها هذا الإهمال ! ! فأقبلت عليها حانية وهى تحدق فى وجهها اللامع المصقول وإذا بوجه ملائكى مورد الوجنات قرمزى الشفاه تشيع

من جوانبه البساطة والإشراق والطهر وينبعث من العينين الصافيتين بريق يخلب الألباب ويأسر القلوب إذا بهذا الحسن كله يطالعها وإذا بالعينين تتأملانها في شغف !! . . وأطالت سناء التحديق وانحدرت نظراتها إلى قوامها الفارع وأخذها اعتدال القد والتفافه ودقة الخصر وكانت في الواقع تفتح عينيها لأول مرة على كنوز حسنها الرائع النادر . . والتهب وجهها بحمرة الخجل وهي تنظر إلى صدرها الناهد بتواميه الشامخين تيهاً والذي كان يعلنها بانقضاء عهد الطفولة وإقبال عهد النضوج والاكتمال وهل هي صغيرة ؟! إنها قاربت السبعة عشر ربيعاً . إن «يسرية» بنت جارهم الأميرالاى خالد بك تدانيها سناً وقد تزوجت منذ أشهر وعلى وشك أن تصير أماً !

واعتراها خجل شديد حين انتهت بها أفكارها إلى هذا الحد ، واضطربت وسرت في جسدها رعدة خفيفة وتحولت عن المرآة ووقفت في الشرفة تتقبل مداعبات النسيم ببسمة فاترة . . أخذت تنظر إلى الأفق البعيد . . ترى ماذا يخبىء لها القدر ؟ استعرضت شريط حياتها فوجدته زاخرا بالذكريات الحلوة مليئا بالمباهج والمسرات . . لقد كانت سعيدة دائما ولم تذكر أنها كانت تعسة أو حزينة لشيء ما ، نعم كانت سريعة التأثر حادة المشاعر وقد سبب لها هذا الكثير من الآلام ولكنها على أي حال كانت آلاما سطحية ووقتية ، ولم تذكر أنها تاقت

إلى شيء ولم تنله أو تطلعت إلى أمنية ولم تحققها . . كل طلباتها مجابة وكل أمانيها محققة .

كان أبواها يحبانها حبا لم تنعم فتاة بمثله ، كانا يجدان فيها رمزاً لحبهما الدافق القوى ، وكانت جيهان هانم على الأخص تخاف على ابنتها من لمس النسيم فقد أنجبتها بعد أن كادت تقنط من نعمة النسل .

وكانت سناء تحس حب والديها وتعلقهما الشديد بها وهى سعيدة قريرة العين بهذا الحب ، ولم يجد الغرور الذى يستبد بمن كان مثلها أى سبيل إلى قلبها الطاهر . . وهى مثال للرزانة والطيبة وسماحة النفس لم تذكر أنها أساءت لمخلوق وإذا حدث أن بدر منها شيء يؤذى شعور زميلة لها كانت بلباقتها ورقتها تسارع إلى إزالة آثاره . . كانت صفحة حياتها ناصعة نقية كقلبها ، وكان قلبها يعكس نقاءه وصفاءه على محياها الملائكى الساحر . . إذن فهى لم تذكر أنها فى حياتها قد أساءت لمخلوق فماذا جعل تلك الأفكار الشريرة تجيش فى صدرها منذ لحظات ؟ !

إنها لتعجب العجب كله كيف فكرت فى صفع الشاب أو سبه دون ذنب أو جريرة سوى أنه يبتسم ؟ !

وهل الناس لا يبتسمون إلاّ سخرية واستهزاء ببعضهم ؟ ! وعلى فرض أن هذه المعانى كانت تجول برأس الشاب وهو يبتسم إلاّ أنها

تعترف لنفسها أن ابتسامته كانت لطيفة رقيقة بعيدة عن السخرية أو التهكم ! ربما كان ينظر إليها نظرته إلى طفلة لطيفة . . ! وهل هى إلاّ طفلة ؟ ! إن أبويها يعاملانها كطفلة رغم أنها دخلت طور السيدات المكتملات . .

ولكن هذا الشاب . . طالب الحربية . . إنه لا يتجاوز العشرين كما بدا لها فكيف يعتبرها طفلة وهو لا يكبرها إلا بسنوات معدودات ؟! وبينما هى فى تأملاتها وأفكارها إذ أحسّت برودة تسرى فى أطرافها . كان الظلام قد بدأ ينتشر وكان ثمة أنسام باردة تخز الأجسام كالإبر . وأفاقت سناء إلى نفسها ودخلت إلى غرفتها بعد أن أغلقت باب الشرفة وخطت إلى مكتبتها ساهمة وكأنما هى أفاقت من حلم طويل . .

يا لله . . ما الذى جعلها تعاود التفكير فى هذه الحادثة التافهة ؟ ! ألم تعد والدتها أن تنساها كأن لم تكن وإلا تألمت كثيراً ؟ ! وامتدت يدها إلى بعض الصحف المصورة تتسلى بها وتطرد من ذهنها تلك الهواجس التى شغلتها وقتاً طويلا وما لبثت أن انغمرت فى القراءة . .

وتقدم بها الوقت ونظرت إلى ساعتها فإذا بها الثامنة . . وأحست بجوع فقامت مسرعة إلى المطبخ وهى تدندن لحناً جديداً لعبد الوهاب وأعدت لنفسها عشاء خفيفا وجلست تأكل فى شهية وتستأنف قراءتها وكانت بين الفينة والفينة تلقى نظرة إلى ساعة معصمها فقد اقترب ميعاد

أوبة أبيها . . وهى لم تتعود أن تتناول طعامها بمفردها ولكنها أيضا لا صبر لها على الجوع ! وفجأة حضرت فى ذهنها صورة طالب الحربية بقامته الطويلة وابتسامته التى ضايقتها وحيرتها وقتاً طويلا . . ولكنها فى هذه المرة قابلت ابتسامته بمثلها واتسعت ابتسامتها وانفجرت ضاحكة ! إنها لن تفكر فى هذا الشاب حتى لو قابلها فى الطريق باكرا مثلا ! فلن تلقى بالا إليه ولو قهقه فى وجهها !

وسمعت صوت أقدام إلى الباب وقبل أن تتقدم لتفتح كان الباب قد فتح ودخل منه كاظم أفندى وجيهان هانم وجرت سناء إلى أبيها والقت بذراعيها حول عنقه كما تعودت أن تفعل وهى طفلة فاحتضنها وقبلها بفرح وحنو وتقدمت من أمها وطبعت على وجنتيها قبلة ثم قالت فى دهشة :

— عجباً كيف تقابلتما ؟ فأجابت الأم باسمة :

— كنت أعود عمتك خديجة هانم لأنها متوعكة كما تعلمين فوجدت والدك هناك فجئنا معاً . .

— وكيف حال عمتى ؟

— بخير وقد أبلت من وعكتها . .

ونظر كاظم أفندى إلى المائدة ورأى بقايا الطعام المتخلفة فى الصحاف والتفت إلى سناء وقال ضاحكا :

— عجباً أيتها الصغيرة إنك لاتطيقين صبراً على الجوع حتى ولا دقيقة واحدة ! فقهقهت سناء جذلا وقالت :

— لقد تأخرتما . . وحاولت الانتظار فلم أستطع . . سأعدّ لكما العشاء حتى تخلعا ملابسكما . . وهرولت خارجة . .

وبعد الفراغ من العشاء التام شمل الأسرة الصغيرة فى غرفة سناء وأخذوا فى سمر حتى العاشرة ثم قاموا إلى فراشهم وكانت أسبقهم بالطبع هى سناء التى غلبها الكرى وهى جالسة فى مقعدها . . ومن العجيب أن سناء التى كانت تجد فى أحلامها الهنيئة ما ينسيها متاعب اليوم ومشاغله . رأت تلك الليلة فى منامها أنها تتقدم من طالب الحربية وتصفعه على وجهه بقسوة وماراعها بعد ذلك إلاّ أن الابتسامة زادت اتساعا على وجه ذلك الفتى اللعين ثم إذا هو ينظر إليها بتعال وينطلق فى سبيله طويل القامة واسع الخطى تماما كما رأته وإذا بها تهمّ بالجرى خلفه لولا أن ترى أمها من بعيد فتجحم وبعد ذلك تلاشت الرؤيا وطالعها مشهد آخر ، رأت نفسها فيه وسط حديقة فيحاء وقد ركع الفتى أمامها يستعطفها ويطلب صفحها وقد رفع إليها عينين تنطقان بالندم والألم والاستغفار ! ومن الغريب أنها رأت نفسها تمد يدها إليه وتنهضه وإذا به ويا للعجب يحتوى يدها بين يديه الكبيرتين ويضغطها فى رفق وإذا بها تجف وتسارع بسحب يدها وتمضى عنه غاضبة !

وراودتها رؤى أخرى مختلطة متضاربة . .

واستيقظت سناء من نومها منقبضة الصدر متضايقة وعجبت كيف

تلح عليها صورة ذلك الفتى هذا الإلحاح الغريب حتى لتجتاز حرم أحلامها المقدس . .

وبعد قليل كانت سناء تخطر فى خطوات متئدة إلى مدرستها وهى التى كانت قبل أيام تسير وكأنها تجرى ، وكان شعرها معقوصا ، بطريقة بديعة حتى لقد عجب كل من رآها من سكان الحى من التبدل الذى طرأ عليها ، وكان بعضهم يبتسم ابتسامة العارف وهو يقول : إن سناء لم تعد تلك الطفلة ذات الشعر الذهبى التى كانت تلهو بينهم منذ سنوات ويختلط صراخها بضحكها !

إنها دخلت فى السن التى تعنى فيها الفتاة بزينتها وتنظر إلى نفسها كامرأة ! !

وكانت سناء من ناحيتها تحس أن تبدلا تاما يشملها وأصبحت تضيق ذرعا بعاداتها القديمة وتريد أن تتصرف فى كل شىء تصرف المرأة الناضجة المكتملة . .

وعجبت كيف يقترن هذا التبدل الشامل بهذه الحادثة العارضة التافهة حادثة طالب الحربية الذى ابتسم منها !! . .

وكيف توقظ فيها كل هذه المشاعر وتثير فى رأسها كل تلك الأفكار ! ؟

كانت سناء تسير وهى تدير فى ذهنها تلك الخواطر .

وكانت تحس أنها مقبلة على عهد جديد . . مجهول ! .

الفصل السابع

لم تمض شهور على هذه الأحداث حتى كانت الـكلية الحربية الملـكية تقيم احتفالا بتخريج فوج من ضباطها . وكانت الـكلية تموج بالحركة والضجيج وتجمع عدد كبير من أولياء أمور الطلبة وأقربائهم فى تلك المساحة الشاسعة من الأرض التى أقيم فوقها الاحتفال .

وفى أحد الأركان من ذلك الحقل الواسع المتخذ ساحة للتدريب والاستعراضات ، وقف الشيخ الطيب الحاج عبد الشافى فى زيه الريفى الوقور يتحدث إلى نجله مراد طالب الحربية — الذى لم يعد طالبا الآن ! ووقف معهما محمود فهمى وأمين شقيق مراد ، وكان محمود يدور بعينيه فى أنحاء الساحة باحثا عن والده الذى أكد له أنه لا بد حاضر الاحتفال والتقت عينا الصديق بعينى مراد ومكثا فترة صامتين . .

كان كل منهما يقرأ فى عينى الآخر ذكريات الماضى السعيد وكذا ومضات الأمل فى مستقبل سعيد . . هكذا سريعا أصبحا على عتبة الحياة الاستقلالية . . وإنهما ليخوضانها سريعا كما كانا معا دائما . . . وأشرقت عينا مراد بالدموع وهو يتأمل قسمات صديقه المشرقة ببسمة وديعة وإن كان القلق يلوح فى عينيه بين آن وآخر وهو يرقب جموع المدعوين . . رأى مراد فى وجـه محمود نفس الابتسامة التى أسرته

من أول وهلة وحبته فى صديقه الأوحد منذ الصغر . وأحسّ أن أثمن ما يعتز به فى حياته هو تلك العلاقة القدسية التى ربطت بين قلبه وقلب محمود العزيز وعجب لأولئك الذين يعيشون بغير أصدقاء ويقصرون حبهم كله على أنفسهم ولا يبذلون من عواطفهم إلاّ بمقدار ما ينالون من نفع . . إنه لا يستطيع أن يتصور قط أن له حياة بغير محمود إذا فرح شاركه فرحه وإذا حزن وجده إلى جانبه يحمل عنه أثقال نفسه وإذا أقبل على أمر ذى بال شاوره واستنصحه . . . حقاً إن الصداقة أعلى درجات الحب فهى منزهة عن الغرض بريئة من الأنانية التى تتملك المحب عادة . . .

ست سنوات مرت على تلك الصداقة القدسية وكانت الأيام طوالها تزيدها متانة وقوة . . وكان من فضل الله عليهما أن جمع بينهما فى الكلية بعد أن كاد كل منهما يسير فى طريق . .

ووضع مراد يده على كتف محمود برفق فرفع محمود رأسه المطرقة إليه فإذا بعينيه مخضلتين بالدمع ! . .

يا لله ! . . ما بالهما فى ذلك اليوم ؟ ! إن قلبيهما لا يكادان يستقران فى صدريهما ! . . كانت نفس الخواطر تنثال على محمود فتثير فى قلبه حنين الذكرى الشجية . .

وانقطع فجأة حبل خواطرهما على صوت الأميرالاى فهمى بك

والد محمود وهو يتقدم ضاحكا باسط اليدين من الحاج عبد الشافى الذى استقبله بحرارة وشوق . وقال فهمى بك ضاحكا :

— كدت أتخلف عن حضور الحفل فقد استجدت بعض أحداث كادت تعوقنى عن الحضور .

وتقدم محمود وشد على يد أبيه ثم رفعها إلى شفتيه بإجلال عميق وهو يبتسم ابتسامة السعادة والامتنان ، فعانقه والده متأثرا كما عانق مراد وربت على كتفه ثم نظر إليهما فى سرور وتأثر وملأ عينيه منهما ثم قال :

— ها أنتما ذان أصبحتما رجلين فى مقدمة العاملين لوطننا العزيز ، فأرجو أن تتكاتفا رجلين كما تكاتفتما صغيرين وتحققا لمصركما كل ما نرجوه لها من رفعة وكرامة واعلما أيها العزيزان أن الإخلاص يفعل الأعاجيب فأرجو أن ينتقل إخلاصكما إلى كل فرد من أفراد هذه الأمة العزيزة فبالإخلاص وحده سيصل هـــذا البلد إلى عزته ومكانته الجديرة به . .

ونظر كل من الشابين للآخر وكانت أساريرهما تؤكد إدراكهما التام وإيمانهما بما قال فهمى بك . .

وكان موعد الاحتفال قد أزف فودع الصديقان والديهما وسارا فى سرعة وخفة إلى ساحة الاحتفال بينما سار الوالدان وبرفقتهما أمين إلى السرادق المقام للمدعوين .

obeikandi.com

كان هذا هو اليوم الأخير الذى يمضيه الصديقان فى الكلية العزيزة . . صحيح أنهما كانا يتعجلان أيام الدراسة الجافة حتى يتخرجا ويعتمدا على نفسيهما ، إلاّ أن السنين السعيدة التى أمضياها بين جدران هذه الكلية العزيزة مرت أمام أعينهما كلحظات قصار . .

كان هذا اليوم التاريخى يوماً فاصلا فى حياة الشابين . . يوما حاسما يفصل بين حياتين ويفرق بين عهدين . . عهد الحماسة والأحلام ، وعهد الرزانة والكفاح . .

***

وتدور عجلة الزمن وتشاء الأقدار أن تحرم مراداً أمنية طالما تمناها ورغبها من أعماق نفسه . . فقد عيّن ضابطا ببلدة السلوم بعد أن كان يود أن يقيم فى القاهرة التى أحبها وعشقها منذ الصغر والتى كان يجذبه ويستهويه كل شىء فيها . . مآذنها . . تلالها . . أحياؤها القديمة التى تذكره بالعهود الزاهرة التى مرت على وطنه مصر . . كان إذا سار فى أنحاء القاهرة يحس روحه نشوى بخمر سحرية وكأنها تمرح بين أرواح الأسلاف القدماء الذين بنوا القاهرة وكتبوا أروع صفحات تاريخها . .

وكان مراد يود من أعماقه لو أن القدر ترفق به وبمحمود وجمع بينهما ولو فى أقصى الأرض . . ولكن ماذا فى وسعه أن يفعل وقد عيّن محمود فى إحدى المدن الساحلية بمنطقة قنال السويس وأُلقى به هو فى أقصى الحدود الغربية ؟ ! . .

الفصل الثامن

نحن الآن فى منتصف عام ١٩٤١ والعالم فى ثورته المجنونة الحمقاء التى أعلنها على المدنيّة ، تلك المدنية العريقة التى لم يشيدها قبل أن يبذل الكثير من الدم والعرق والدموع . . .

وكانت القنابل تنهال على كبريات المدن الأوروبية فتحولها إلى خرائب وأنقاض فى ثوان وكانت ضحكات القدر الساخرة تدوى من هذه الإنسانية المعتوهة التى تهدم فى لحظة ما بنته فى عشرات السنين .

فى تلك الأوقات العصيبة كان الملازم مراد عبد الشافى جالساً فى خيمته يتلقى التعليمات من قيادة المنطقة الغربية وينفذها بدقة وشجاعة حازت إعجاب رؤسائه . .

وذات صباح بينما كان مستلقيا على فراشه الخشن يعالج النوم بعد أن أمضى ليله متيقظا يتربص بطائرات العدو التى دأبت فى تلك الأيام على ضرب الموانى المصرية . ودخل جندى المراسلة يحمل مظروفا فتناوله منه بلهفة وما إن قرأ العنوان حتى انفرجت أساريره فقد علم أنه مرسل من محمود الذى انقطعت أخباره عنه منذ ما يقرب من الشهر . وفض الغلاف وأخذ فى القراءة وإذا بها :

عزيزى مراد :

إذا كانت الأقدار قد حالت دون اتصالنا فإن روحى لا تكف لحظة عن التحليق حولك فى مكانك النائى ولعلك تدهش إذا علمت أن رسالتك لم تصلنى سوى أمس وقد سرتنى بعد أن كاد يستبد بى القلق وأنا أعلم بمدى ما تستهدف له من أخطار .

أخى : لا تأس ولا تتألم فقد أبت الأقدار إلاّ أن تجمع بيننا فى ظروف واحدة ولعلك قرأت أنباء الغارة الجوية التى قامت بها الطائرات الإيطالية على مراكزنا . . لقد جرحت بعض جنودنا البواسل ولكن خسائرها كانت أفدح ، فقد أسقطنا طائرة وأسرنا من نجا من رجالها ومن بينهم ضابط برتبة كابتن . .

أرجو أن توافينى بأخبارك بغير انقطاع فأنت تعرف شوقى إليك وثق أنه عما قريب ستنجاب هذه السحب القاتمة وتعود الشمس إلى سابق إشراقها ويرفرف السلام على هذا العالم التعس من جديد .

أخى : فى النفس كثير ولكنى أكتفى بهذه الكلمات القصار وأنت أدرى الناس بمكانك من قلب صديقك المخلص دائما ؟ .

« محمود »

وأعاد مراد قراءة الخطاب مرتين وثلاث ثم وضعه على المنضد الصغير أمامه فى تراخ وأرسل نظراته إلى الرمال الصفراء الممتدة خارج

خيمته وأحس بالوحشة تتسرب إلى نفسه وتمد أصابعها الباردة إلى قلبه . . أين حياته الآن من الحياة التى كان يحلم بها ؟ !

أين هذه الصحراء الموحشة من القاهرة العزيزة التى كان يمنى النفس بقضاء العمر فيها ! . . حقا كانت سنوات جميلة تلك التى قضاها فى القاهرة . أليس أجمل فترة فى حياة الإنسان هى فترة الدراسة ؟

وحين وصل إلى هذا الحد من التفكير أحسّ بالدفء يسرى فى كيانه وتراءت له الكلية الحربية بمبناها الكبير الباهت وساحاتها الواسعة وتذكر الأيام المرحة التى قضاها مع محمود . . ثلاث سنوات مرت كلمح البصر وانتابه حنين شديد إلى أن يعود طالبا من جديد يعيش فى دفء تلك الأيام البهيجة ويجوب أنحاء العاصمة ويتنقل بين أحيائها كالطائر السعيد ! . .

وانتقل به الفكر إلى أمين شقيقه الأكبر . لا شك أنه فتى مجدود فهو يعيش فى العاصمة منذ ثمانى سنوات تخللتها فترات قصيرة كان يقضيها بالعزبة أو بالإسكندرية إذا كان الوقت صيفا . . وابتسم حين طالعته صورة أمين بوجهه الضاحك وسمته المرحة ، وفجأة قفز من مقعده وكأنما تذكر أمرا هاما ومشى إلى المشجب حيث تدلت جاكتته ومد يده فى أحد جيوبها وأخرج مفكرة صغيرة أخذ يقلب صفحاتها فى قلق وثبتت نظراته على هذه العبارة وقد خط تحتها خطا أحمر دليل أهميتها :

« هدية لليلى بمناسبة عيد ميلادها الثالث فى ١٢ مايو » ونظر مراد إلى التقويم الموضوع على النضد فإذا اليوم هو السادس من مايو ولم يبق على الموعد سوى ستة أيام فقط . . وأحسّ بالضيق إذ كيف يتيسر له شراء هدية لابنة شقيقه وهو فى هذا المكان النائى ! . . إن أجازته ستبدأ فى الخامس والعشرين من الشهر وتستمر سبعة أيام . . ماذا عليه لو كان قد قدمها قليلا حتى توافق يوم ميلاد ليلى العزيزة الصغيرة فيستطيع أن يسافر إليها ويقدم إليها الهدية ويرفعها بين يديه و يقبلها وهى تعبث بأزرار جاكتته الصفراء كما تعودت أن تفعل ؟ ! إذن ما العمل ولا سبيل إلى تدارك ما فات ؟ وأخذ يعصر ذهنه لعله يهتدى إلى حل موفق وفيما هو فى حيرته وضيقه إذ دخل عليه زميله الملازم كمال رأفت ، وحين لمح علامات الحيرة مرتسمة على وجه مراد قال ضاحكا وهو يربت على ظهره فى مودة ومرح :

— هون عليك يا صاح ! كأنك تحمل الدنيا كلها فوق رأسك !

ثم استطرد وهو يبتسم فى حياء مستحب :

— أرجو ألاّ تعتبرنى فضوليا إذا سألتك أن تخبرنى بما فى نفسك لعلى أجد لك حلاّ يخرجك من ورطتك !

فأجاب مراد فى دهشة :

— ومن أدراك أنى واقع فى ورطة ؟

— إن منظرك وأنت جالس هكذا مقطب الجبين وقد احطت رأسك براحتيك وبدت عليك الحيرة ، يوحى لكل من يراك أنك تبحث جاهدا عن حل يخرجك من ورطة أنت واقع فيها ! !

— سمها ورطة أو سمها أى شىء آخر كل ما أريد هو الخروج منها و بسرعة . .

فضحك كمال ضحكة صافية وقال فى مرح :

— إذن هات ما عندك و بسرعة أيضا فإنى مسافر إلى القاهرة بعد ساعات إذ أن إجازتى تبدأ اليوم ! فقال مراد وهو يهب واقفا فى فرح وخفة :

— أنت مسافر إلى القاهرة ؟ ! واليوم ! أى قدر سعيد بعث بك إلىّ الآن ؟ أتكون أنت ملاكى الحارس الذى يقول عنه الأورو بيون؟

— الحارس أو الغفير ! المهم أن تخبرنى بما تريد بسرعة فسوف أقوم ببعض الشؤون ثم أعد حاجياتى للسفر . .

فسرد له مراد قصته باختصار ورجاه أن يشترى الهدية و يحملها عنه إلى ليلى ، ثم حدد له مكان المنزل بحى الروضة فأخرج كمال مفكرته ودون العنوان وقال وهو ينهض ويضع المفكرة فى جيبه :

— حسنا جدا . . أتركك الآن وسأراك قبل سفرى . .

فقال مراد :

obeikandi.com

— ولـكنا لم نقل شيئا عن الهدية وماذا تـكون ؟ !

— اطمئن . . اترك أمر اختيـار الهدية لى . . أليست ليلاك فى الثالثة من عمرها ؟ أنا واثق أنك لن تندم على ذلك وسترى أثر الهدية فى صغيرتك ليلى حين تسافر إليها فى إجازتك إن شاء الله ! . . .

فشدّ مراد على يد زميله الرقيق بينما هرع كمال خارجا من الخيمة وفرك مراد كفيه مسروراً وأخذ فى ارتداء جاكتته وهو يصفر وخرج مسرعا . وسمع إذ ذاك صوت نفير يدوى فى أرجاء المعسكر .

مرت عشرة أيام وتلقى مراد رسالة رقيقة من أمين يشكره فيها على « الهدية الجميـلة الثمينة التى بعث بها إلى ليلى ويدعو الله أن يأتى اليوم الذى يردون إليه مثل هديته قريبـا » وضحك مراد عند هذه العبارة الأخـيرة فقد كان يعلم أن أمينا جاد له فى البحث عن إحدى فتيات الأسر الـكريمة لتـكون شريكة لحياته وخاصة حين علم أن قانون الـكلية يتساهل الآن فى أمر زواج الضباط حديثى التخرج . .

كان أمين من ذلك الطراز الذى يزن كل شىء بميزان العقل وكان يضع العواطف دائما فى المرتبة الثانية ، وهو يعرف موضع قدمه قبل أن يخطو خطوة واحدة ، ويستطيع المرء أن يقول إنه كان يسير فى حياته بطريقة هندسية . لذا فقد كانت حياته منتظمة هادئة بعيدة كل البعد عن أمواج العواطف ، وكان أمين يعتبر كل من يساير قلبه

واتجاهات عواطفه ضعيفا غير أهل للنجاح ! . . بل ولا يصلح فى نظره للحياة إطلاقا وكان يرى أن الإنسان قوى بقدر تمكنه من نفسه وسيطرته على مشاعره وأهوائه ، وهو يؤمن بأن الحب إنما يكون بعد الزواج لا قبله وحينئذ يكون حبا طاهرا تباركه السماء وترعاه القوانين الوضعية . فهو لا ينكر الحب وإنما ينكر حبا لا تكون غايته الزواج بل هو لا يستريح إلى هذا الحب أيضا ومثله الأعلى هو الحب الزوجي .

هكذا كان أمين وتلك نظراته فى الحياة لذلك فقد توخى في اختيار زوجه أن تكون من أسرة كريمة متوسطة الثقافة وحبذا لو كانت ثرية . . وانتهى به البحث إلى الزواج من ابنة مدير الشركة التي يعمل بها وقد وجد فيها الشروط التى يريدها من حيث الثقافة والأصل الطيب والثروة . . وكانت فوق ذلك بارعة الجمال . . وعاش أمين مع تلك الزوجة النموذجية عيشة كلها سعادة وهناءة . .

وكان مراد يغبط أخاه على حسن اختياره ويتمنى من أعماقه لو استطاع أن يوفق إلى مثلها وإن كان لا يعترف بالمقاييس والمبادىء والقيم التى يدين بها أمين ! فقد كان على نقيضه حاد العواطف رقيق الإحساس شاعرى النفس خيالى النزعة مغرما بالموسيقى والأدب والفنون جميعا . ولعل القارىء يذكر أنه كان يود الالتحاق بكلية الآداب التى تساير ميوله قبل أن ينتظم فى سلك الكلية الحربية ويصير ضابطا .

ونظر مراد إلى الأفق فرأى الشمس تغرب وكان يعشق منظر الغروب فجلس يتأمل تلك الملكة الجليلة الباهرة وهى تودع الكون متمنية للأحياء مساء سعيداً ! وكان ثمة لوحة تأخذ بالألباب . . الشمس فى لونها الأرجوانى وقد خضبت الأفق بحمرة أشبه بحمرة الحياء فى وجه حسناء ! . . والصحراء فى امتدادها ورهبتها وقد خالطت الأشعة الذهبية رمالها فأحالتها إلى تبر نضار . . والسماء من فوقهم فى زرقتها وصفائها البديع الذى تكاد الأعين الظامئة ترشفه رشفا ! . .

ومكث مراد فى مكانه فترة طويلة حتى أخذ الظلام ينتشر وأحس رهبة ووحشة رغم أصوات الصخب والضجيج التى كانت تتناهى إلى سمعه من بعيد . . كان مراد دائما يغادر المعسكر ويجلس وحيدا يرقب موكب الغروب ثم يعود ليشارك زملاءه لهوهم ومرحهم ساعة من زمن يتهيأون بعدها لملاقاة الطائرات المغيرة التى قد تحمل الموت إلى كل واحد منهم ولكنه فى هذه المرة لم يجد ميلا بالمرة إلى الضحك أو المرح ! كان يشعر شعورا مضنيا بالوحدة وسار إلى المعسكر بخطوات بطيئة ودخل خيمته وأضاء المصباح ثم ارتمى على فراشه منهوكا وهو يحاول عبثا أن يطرد هذا الشعور البغيض الذى يملأ قلبه كآبة ووحشة . . وعجب مراد لنفسه أن تنقبض نفسه كل هذا الانقباض بغير ما سبب أو دافع واضح ، ونهض واقفاً بسرعة وسار إلى خارج الخيمة ووقف

يستنشق الهواء بملء رئتيه حتى شعر بشيء من الانتعاش ثم عاد ثانية إلى الداخل وأدار الجرامافون وأخذ يستمع إلى لحنه المحبـــــوب « كومبارسيتا » وفعلت الأنغام فى نفسه فعل السحر وكأن ذلك الموسيقى الذى وضع هـذه القطعة المرحة لم يلعب على أوتار الآلات بل كان يلعب على أوتار قلبه هو ! ونقلته الموسيقى إلى عوالم أخرى . . عوالم سحرية مليئة بالأنغام والأضواء والألوان الباهرة . . ثم حمله اللحن إلى القاهرة . . إلى الجزيرة . . إلى شاطىء النيل . . إلى طريق الهرم ثم هدأت الأنغام رويدا فحمله اللحن إلى حىّ الروضة الهادىء الجميل . . إلى شارع المدارس حيث يقطن أمين . . وفجأة رأى مراد طيفا يتهادى من بعيد من أعماق الذاكرة ثم يكبر هذا الطيف رويدا فإذا به غادة فارعة القوام مياسة القد ! وإذا بها تبتسم فى وجهه ثم تعبس ! ويحاول مراد أن يحدّد النظر إلى وجهها كى يتبين قسماتها فلا يستطيع ، إذ تختفى ولا يبقى فى رأسه من طيفها الجميل سوى القوام الفارع وموجات الشعر الذهبى . وأفاق مراد وفرك عينيه وكانت الأسطوانة قد انتهت وانتهت معها تلك الرؤى الجميلة . . وحاول مراد أن يتذكر ذلك الخيال الجميل الذى اقتحم ذاكرته اقتحاما ولكنه عجز عن التذكر أو استعادة الوجه المشرق وأحسّ بالانقباض يعاوده فخرج من الخيمة وسار إلى حيث

يسمُر زملاؤه وهو ينتزع قدميه انتزاعا ، ولم يكد يصل حتى دوّت صفارة الإنذار معلنة بغارة جوية فانفرط عقد السمار فى ثوان وهز الصوت المزعج مراداً هزة عنيفة أخرجته من الجو الشعرى الذى كان هائما فيه وهبطت به إلى أرض الواقع فاصطدم بقسوة الحقيقة . .

ولم تمض دقائق حتى كان مراد قد استحال إنساناً آخر ووقف يلقى تعليماته وأوامره على الجنود بصوت جهورى فى صرامة وحزم . .

الفصل التاسع

أخيراً و بعد انتظار نصف ساعة على أحد أرصفة محطة مصر ظهر القطار من بعيد كنقطة سوداء أخذت تكبر بسرعة ، ثم أشرف القطار على المحطة فهدأت سرعته وعلا ضجيجه وملأ أرجاء المكان ، ووقف رجل وسيدة وطفلة صغيرة يترقبون وقوف القطار بعيون بدت فيها اللهفة . .

كان هؤلاء الثلاثة هم أسرة أمين الصغيرة وقد وقفوا ينتظرون مراد الذى أنبأهم أنه سيصل بالقطار الذى يغادر المنصورة بعد الظهر ، وكانت عيونهم الفاحصة ترقب المركبات وهى تتهادى أمامهم فى بطء قبل أن تقف عند أول الرصيف .

وأطل مراد من إحدى النوافذ وكان يتوقع حضور أمين ولكنه لم يتوقع قط أن يحضر أخوه معه أسرته الصغيرة . وحين رآهم استولت عليه دهشة يغلبها الفرح ولوح لهم بيده ضاحكا فهرعت الأسرة الصغيرة إلى استقباله وهم يضجون بالفرح ، ونزل مراد فسبقت الصغيرة ليلى والدها إليه فأخذها بين ذراعيه وأوسعها لثما وتقبيلا ، وما هى إلا لحظات حتى كان الأربعة يغادرون القاعة الفسيحة إلى باب الخروج يتبعهم أحد الحمالين بحقيبة كبيرة . .

ob eikandi.com

وهم مراد أن يشير إلى إحدى سيارات التاكسى ولكن أمين منعه وهو يقول باسما :

— لا داعى لذلك فسوف نصل بسيارة أحد الأصدقاء ! إنها تلك السيارة الخضراء الصغيرة الرابضة هناك ! ونظر مراد إلى حيث أشار فرأى سيارة صغيرة جديدة خضراء اللون بديعة الشكل وساروا إليها ومراد يسائل نفسه فى عجب عن صاحب السيارة وما كانت أشد دهشته حين رأى أمين يجلس إلى عجلة القيادة ويدير المحرك ! وابتسم أمين حين رأى علامات الدهشة مرتسمة على وجه أخيه وقال ردا على السؤال الحائر على شفتيه :

— لا بأس . . لقد أعارنا إياها صاحبها ! فسكت مراد عن كثب واتخذ مكانه إلى جانب أخيه وأجلس ليلى على ركبتيه بينما جلست أمها فى المقعد الخلفى . . والتفت كل من الزوجين للآخر وانفجرا ضاحكين ونظر إليهما مراد فى حيرة وهو يبتسم خجلا ولم يحر كلمة واحدة!

وانطلقت بهم السيارة تشق طريقها بجهد وسط هذا العباب الزاخر من الآدميين ، ولما انحرفت بهم فى شارع الملكة قال أمين :

— ما رأيك فى السيارة يا مراد ؟ أليست مريحة ؟ ! فأجاب مراد :

— إنها مريحة حقا إلى جانب جمال شكلها .

ثم سكت هنيهة ونظر إلى أخيه فى تساؤل وقال :

— ولـكنها جديدة ! . . ألا يخشى عليها صاحبها ؟ ترى من يكون ذلك الـكريم الذى قدم إليك مثل هذه السيارة الجديدة وهو مطمئن النفس ؟ !

فأجاب مراد وهو يضحك و ينظر إلى زوجته :

— إنه شركة سيارات فورد !! فاتسعت عينا مراد دهشة وقال :

— لست أفهم شيئاً ! . . وأخذ يردد النظرات الحائرة بين أخيه وحسنية التى ضحكت بدورها وقالت :

— نعم . . لقد اشـتراها أمين من فورد منذ أسبوعين ، أليست جميلة ؟

فقال مراد وقد بدا السرور فى وجهه و إن لم تزايله الدهشة :

— حقـا ! ؟ مبروك ياأمين ولـكنك لم تذكر شيئا عنها فى خطابك الأخير ؟

— أردنا أن نجعلها مفاجأة أولا . وثانيا أنا لم أشتر السيارة وإنما هى هدية من فهيم بك والد حسنية ! أهداها إلينا بمناسبة عيد ميلاد ليلى . فهى فى الواقع سيارة حسنية وليست سيارتى فقال مراد مبتسما :

— ليست سيارتك ولا سيارتها و إنما هى سيارة ليلى لأنها مهداة إليها هى . . ونظر إلى ليلى وهو يربت على خدها وقال :

— أليس كذلك يا ليلى ؟ فهزت ليلى رأسها الصغير وكانت فى شغل عن حديثهم بالتفرج على واجهات الحوانيت !

وأخيراً وقفت السيارة إلى باب المنزل ونزلوا جميعا وأحسّ مراد بشعور غريب وهو ينظر إلى الشارع الهادئ . .

ها هو ذا يعود إلى القاهرة مرة أخرى . . يعود إلى حى الروضة الجميل الذى طالما حنّ إليه من مكانه البعيد . . إنه سعيد إذ يعود إلى القاهرة ثانية وإن كانت إقامته فيها لن تتجاوز ثلاثة أيام ، لأنه أمضى من أجازته أربعة أيام بين والديه وسوف يعود بالطبع بعد انقضاء الأيام الثلاثة إلى مقر عمله . . وأمسك بيد ليلى وصعد فى أثر والديها إلى الشقة . .

وفى تلك اللحظة وقفت سيارة باكار فخمة إلى منزل مكون من طابقين على بعد خطوات من منزل أمين . . وهبط منها كاظم أفندى تتبعه جيهان هانم ثم سناء . . وانطلقت السيارة فى طريقها . .

كانت السيارة للوجيه سالم بك نصر صاحب شركة وادى النيل للنقل وأحد عملاء كاظم أفندى الممتازين وقد نشأت بين الاثنين صداقة وطيدة وإن كانت حديثة العهد حتى أنه دعاه وأسرته الصغيرة لمشاهدة أحد الأفلام الحديثة ولم يكن كاظم أفندى ميالاً لتلبية هذه الدعوة

لولا أنه ألح إلحاحا شديدا لم يجد بعده مناصا من القبول . وعاد سالم بك بهم بعد مشاهدة الفيلم بسيارته الفخمة التى يقودها بنفسه .

***

كان الوجيـه سالم نصر فى الخامسة والأربعين وإن كان من ينظر إليه يظن أنه دون الثلاثين ، أبيض اللون أشقر الشعر متوسط القامة ملىء فى غير سمنة ، تبدو عليـه مظاهر النعمة والجاه العريض . وهو متزوج من ابنة عمه وله منها أولاد ثلاثة يقيم معهم فى إحدى عماراته فى حى العباسية . وقد نشأ سالم بك نشأة دون المتوسطة وتمكن بكده واجتهاده أن يضاعف الميراث الضئيل الذى خلفه والده وأن يكوّن ثروة صغيرة تبلغ الأربعة أرقام وكان ذلك عام ١٩٣٧ فلما نشبت الحرب وازدادت أهمية النقل بالسيارات تضاعفت ثروته وأخذ إلى جانب عمله يشتغل بتوريد المواد الغذائية للجيوش المتحالفة ، ولم يكد يمضى عليه خمس سنوات حتى كان يمتلك عدة عمارات فى أنحاء العاصمة وأصبح من الشخصيات المرموقة .

وكان سالم بك فى أيامه الأولى لا يشرب الخمر ولا يميل للسهرات الحمراء وكان يقنع بالسهر مع أصحابه فى أحد الأندية أو المقهى ولم يكن ذلك ليتجاوز المرتين كل أسبوع وأحيانا كانت تضطره الظروف إلى حضور بعض السهرات الراقية فكان يحتسى كأسا أو كأسين من الخمر

على الأكثر . ولم يكن ذلك من سالم بك والحق يقال عن كراهيته للخمر والسهرات الحمراء وإنما مراعاة منه لحالته المالية فى ذلك الوقت . فقد كان يعلم أن هذه السهرات تتكلف الكثير وتجر وراءها الكثير .. وهو رجل ناشىء لا يريد أن يبدد فى أيام ما جمعه فى سنوات . . فلما ابتسمت له الدنيا وسال الذهب بين أصابعه ووجد الشخصيات الكبيرة تتقرب إليه والقصور تفتح أبوابها له أحسّ أنه صار أهلا لإقامة السهرات الحمراء وأهلا لأن ينغمس فى الجو الذى يسمونه بالأرستقراطى والذى يتوق إليه . . . وأطلق نفسه البوهيمية على سجيتها وانطلق يعبّ من ملذات الحياة غير عابىء بشىء .

وحين اجتمع كاظم أفندى بسالم بك أخذته بساطته وفخامة مظهره وطريقته الجذابة فى الحديث كما أعجب سالم بك بدقة كاظم أفندى فى عمله ونشاطه المفرط وأخلاقه الممتازة وكان كل يوم ينقضى يزيد علاقتهما توطدا ويزيد إعجاب كل منهما بالآخر وكثيرا ما كان كاظم أفندى يزور سالم بك فى مكتبه بشارع سليمان باشا ويمضى معه بعض الوقت ثم يعود إلى منزله ليتحدث إلى جيهان هانم عن هذه الشخصية الممتازة فى نظره .

وفى مساء يوم من الأيام كان كاظم أفندى مصطحبا ابنته إلى أحد المحلات الكبرى كى تشترى بعض لوازمها وكانت سناء مشغولة باختيار بعض الأصناف التى تريد شراءها ، والتفتت تسأل أباها عن رأيه فيما

وقع عليه اختيارها فإذا به مشغول بالحديث إلى شخص ممتلىء الجسم أشقر الشعر فاخر الثياب وكان يبدو من انهماك والدها فى الحديث معه أن العلاقة بينهما وطيدة وكان هذا الشخص ينظر إليها نظرات جعلت وجنتيها تتضرجان خجلا ، ولمست ذراع أبيها وقد أخذها الاستياء من نظرات ذلك الرجل الجريئة . . .

وقالت لأبيها وهى ممسكة بوشاح حريرى بديع الألوان :

— ما رأيك فى هذا الايشارب ؟ ! فالتفت إليها كاظم أفندى باسما وأبدى إعجابه بالايشارب ثم التفت إلى سالم بك وقال وهو يربت على ظهر سناء :

— إنها ابنتى سناء . . ثم قدم صديقه إليها قائلا :

— صديقى سالم بك نصر . . ألا تعرفينه يا سناء ؟ !

ومدت سناء يدها البضة الجميلة إلى اليد الممدودة إليها وهى تحاول عبثا أن ترسم ابتسامة ترحيب على شفتيها !

وضحك سالم بك وهو يقول مخاطبا كاظم أفندى :

— وهل ابنتك فى هذه السن ؟ لقد حسبتها وأنت تحدثنى عنها طفلة لم تتجاوز السادسة .

فقهقه كاظم أفندى ونظر إلى سناء وقال :

وهل هى إلاّ طفلة كبيرة . . فاحمر وجه سناء وبدا عليها أنها لم ترتح لمداعبة أبيها . .

واشترت سناء ما يلزمها ، ثم خرج ثلاثتهم من المحل وأصر سالم بك على توصيلهم بسيارته . . وهكذا نجد أن العلاقة بين الوجيه سالم نصر وكاظم أفندى تزداد توطدا يوما بعد يوم . .

ولم تكن سناء لتطمئن إلى النظرات الجريئة التى كان يصوبها إليها سالم بك وكانت تصمت حين يتحدث والدها عنه ويكيل له الثناء فقد كانت تحس فى قرارة نفسها أنه غير أهل لهذا الثناء ! . .

وكثيرا ما كان سالم بك يبث كاظم أفندى همومه ويشكو له سوء معاملة زوجه ويتضجر من عدم قابليتها للتطور الذى يقتضيه مركزه . . فهى لا تريد ارتياد الصالونات أو الاندماج فى الأوساط الراقية حتى أنه لا يستطيع إقامة حفل استقبال فى بيته كما يفعل أهل الجاه والثراء ، وكان يختم شكواه بهذه العبارة « ولا تحسب يا كاظم أفندى أنى أحب الحفلات الصاخبة أو الخمر .. لا بالمرة ! .. وإنما هو مركزى الذى يحتم على حضور هذه الحفلات ولا أستطيع تلبية معظمها لأنى مضطر بطبيعة الحال إلى مجاراة الداعين فأقيم حفلات فى بيتى وأنت ترى أنى عاجز عن ذلك مما يسبب لى الكثير من المتاعب حتى لقد عدّ بعض أصدقائى هذا المسلك قلة ذوق منى » !

وكان كاظم أفندى يلتمس لزوجة صديقه الأعذار وإن كانت زوجته جيهان هانم لم ترتح لاستقبالها الفاتر . . وكان يحاول دائما

أن يبرئها من التهم التى يلصقها بها زوجها و إن كان فى قرارة نفسه مقتنع بوجاهة آرائه ! . .

وذات يوم أخبره سالم بك بعزمه على الزواج من فتاة راقية يستطيع أن يحيا معها الحياة اللائقة بمن كان مثله ، وإذا ما أبدى كاظم أفندى استنكاره وأسفه لهذا المسلك وتساءل عن مصير زوجه وأولاده بعد الطلاق . بادر سالم بك قائلا :

— ومن قال إنى أنتوى الطلاق من زوجتى الأولى ! إن هذا الأمر لم يدر بخلدى قط .. سوف تقيم مع أبنائها فى منزلها ولن يطرأ على حياتها أى تغيير وكل ما فى الأمر أنى سأجد الراحة التى أبحث عنها سدى دون أن أجدها ، وأستمتع بشىء من السعادة التى عشت محروما منها . .

فيبتسم كاظم أفندى فى سذاجة وارتياح وينظر إلى سالم بك نظرة ملؤها العطف والإكبار . .

وفى الواقع إن سالم بك كان يفكر من زمن فى مصاهرة إحدى الأسر الكبيرة وذلك قبل أن يرى سناء ! فلما وقع نظره عليها أول مرة بهت من روعة جمالها ورشاقة قدها ولم تفارق صورتها مخيلته وصار يتحين الفرص لرؤيتها والتزود من طلعتها الساحرة . .

وإذا كانت بعض الخواطر الشريرة قد راودته حين شاهدها

فى المرات الأولى فإن هذه الخواطر زايلته حين ازداد علما بها ووقف على مدى طهارتها ونقاء قلبها . فعزم على أن يتخذها شريكة لحياته ولو ضحى فى سبيل ذلك بنصف ثروته . . يالها من أمنية غالية ! إن سناء شابة جميلة ومثقفة وملمة بقواعد الإتيكيت وتعرف ولاشك كل شىء عن المجتمعات الراقية وكان ينام الليل وصورتها فى خياله لا تريد أن تبرحه وكم من مرة هم أن يفاتح كاظم أفندى فى أمر زواجه من ابنته ولكنه كان فى كل مرة يحجم ويتردد ويرى أن يمهد السبيل أولا حتى لا يصدم بالرفض وخاصة أنه يعلم مدى تعلق صديقه وزوجه بابنتهما الوحيدة وحرصهما على كل ما يرضيها ويسرها .

وكانت سناء من ناحيتها قد بدأت تتبسط مع سالم بك فى الحديث وخف شعور الازدراء والمقت الذى كان يملأ نفسها تجاهه حين قابلته أول مرة وذلك بفضل ما كان يتحلى به سالم بك ذلك العصامى الناجح من مرونة وصبر ومرح طبيعى وطلاقة فى الحديث .

وذات مرة دعا سالم بك الأسرة التركية لقضاء يومين بالإسكندرية وكان يمتلك كابينا فخما هناك وقبلت الأسرة الدعوة شاكرة وأمضى الجميع وقتا ممتعا أحست فيه سناء بسعادة غامرة إذ كانت المرة الأولى التى تشاهد فيها الإسكندرية وكان سالم بك اللبق لا يدخر وسعا

فى إدخال السرور على قلبها بشتى الوسائل وصارت سناء تغرق فى الضحك من الدعابات التى كان يلقيها بعد أن كانت فى أول الأمر تقابلها بالفتور والامتعاض .

وعادوا إلى القاهرة أسعد ما يكونون بتلك الرحلة ولم يجد سالم بك بعد ذلك بأسا من مفاتحة كاظم أفندى فى أمر زواجه من ابنته وانتظر سنوح أول فرصة لذلك .

obeikandi.com

الفصل العاشر

كان كاظم أفندى يشرف على الأعمال الدائرة فى جاراجه حين دخل عليه سالم بك وحيّاه واستقبله كاظم أفندى مرحبا : وتقدمه إلى المكتب الصغير الواقع فى أحد أركان الجاراج وهو عبارة عن غرفة صغيرة ذات جوانب زجاجية تمكن الجالس من رؤية كل ما يدور فى الجاراج وبها مكتب صغير ومقعدان كبيران ومنضدة صغيرة . .

وجلس سالم بك وأخذ يتحدث إلى كاظم أفندى فى مختلف الشؤون وما لبث أن سأله فجأة :

— إنك لم تدل برأيك فى مسألة الزواج التى حدثتك عنها ؟ !

— والله يا سالم بك لست أدرى ماذا أقول . . إنى متألم لألمك وأرجو أن توفق لما فيه راحتك . .

فلم يرتح سالم بك للرد وقال :

— راحتى وسعادتى فى زواجى من فتاة من أسرة كريمة تردّ علىّ شبابى وتتمتع معى بثروتى . .

— أرجو الله أن يوفقك . . فسارع سالم بك بهجومه وقال :

— ولكن الله جعل هذا الأمر بيدك وحدك دون سواك !

فقال كاظم أفندى مندهشاً :

obeikandi.com

— أنا ! ! . . وكيف هذا ؟ !

— لست أريد من هذه الحياة سوى سناء !! . إنها الإنسانة التي أبحث عنها من زمن وأتمنى أن أتخذها زوجة أضعها داخل قلبي . . فهل تبخل بها عليّ ؟ . أرجو ألاّ تقول شيئاً قبل أن تفكر فيما صارت إليه حال صديقك من أسى وهم مقيم .

فقال كاظم أفندي منفعلا وقد بوغت بهذا العرض الغريب :

— والله يا سالم بك إن هذا الأمر في يد سناء وحدها وأنا شخصياً لا أمانع . . وإنما لا أعترض رغبتها كيفما كانت .

فسارع سالم بك بقوله وقد ظهر الارتياح في نبرته :

— وأنا موافق كل الموافقة على أن يكون لسناء مطلق الحرية في القبول أو الرفض . .

قال ذلك ونهض متهيئاً للانصراف وشد على يد صديقه بحرارة شاكراً له كريم شعوره واستقل سيارته وانطلق بها .

وحين عاد كاظم أفندي إلى بيته في المساء أخبر زوجه بكل ما دار بينه وبين سالم بك وأطرقت جيهان هانم قليلا ثم قالت :

— أصارحك القول .. إني متألمة لحالة سالم بك كل الألم وأرى أن سناء لن تمانع في هذا الزواج فهي تميل إلى سالم بك وتستلطفه ولا تفتأ تسأل عنه كلما غاب مدة ولم تره ، ومن رأيي أن نفاتحها في

الأمر حين تعود من زيارة صديقتها ميرفت حتى نحسم الأمر فهذه المسائل تحتاج إلى سرعة وحزم .

ولم تمض نصف ساعة حتى حضرت سناء وتجاوبت ضحكاتها المرحة فى انحاء الشقة الصغيرة وملأتها مرحاً ووالداها يرقبانها بسرور وحنو بالغين . .

وأعدّت سناء العشاء كعادتها وجلس الثلاثة يأكلون . .

كان الوالدان يأكلان فى صمت وكل منهما يرقب الآخر فى قلق واستمر هذا الحال بضع دقائق وكأنما كان كل منهما يهيب بالآخر أن يبدأ الحديث وعجبت سناء لصمت والديها أثناء الطعام وأحست بغريزتها أن فى الجو شيئاً ولكنها لم تشأ أن تسألهما فى شىء ، وبعد الطعام جلسوا للحديث فى غرفة سناء وخيم الصمت عليهم مرة أخرى ثم نظر الأب والأم كل إلى الآخر فى حرج ولكن جيهان هانم قطعت حبل الصمت بقولها .

— لدينا مسألة هامة يا سناء نريد الإفضاء بها إليك . . وقال أبوها متشجعاً :

— مسألة يتوقف عليها مستقبلك وسعادتك التى هى كل مانرجو .

فنظرت إليهما سناء فى دهشة وقد تسارعت دقات قلبها :

— مسألة تتوقف عليها سعادتى ؟! ماذا ترمى إليه يا والدى ؟

opeikandi.com

صارحنى بكل شىء فقد عودتنى أن تكون صريحاً معى كما أكون صريحة معك .

فقالت جيهان هانم مترفقة :

— أنت تعلمين ياسناء أنك قد بلغت السن الذى تتطلع فيها كل فتاة إلى أن يكون لها بيت وزوج ونحن نريد أن نساعدك على بلوغ هذا الهدف وضمان حياتك حياة سعيدة موفقة . .

فقالت سناء محمرة الوجه وقد اشتدت دقات قلبها سرعة وتلاحقت أنفاسها :

— تريدان لى أن أتزوج ؟ ! ومن أدراكما أنى أريد الزواج أو أفكر فيه ؟

فقالت جيهان هانم فى حنان محاولة تهدئتها :

— رويدك يا عزيزتى أليس مصير كل فتاة فى النهاية إلى الزواج ؟ ثم إن الزوج الذى اخترناه لك سيعرف كيف يوفر لك حياة رغدة هنيئة . فسارعت سناء يدفعها حب الاستطلاع قائلة فى صوت مضطرب :

— ومن يكون هذا الزوج المنتظر ؟ . . فأجابت جيهان هانم بهـدوء :

— إنه سالم بك نصر . . فما رأيك ؟

فأخذت سناء بقول والدتها وقالت فى فزع :

— سالم بك نصر يريد أن يتزوجنى أنا ؟!

فقالت أمها مهدئة :

— نعم وماذا فى ذلك ؟! فقالت سناء وصدرها يعلو ويهبط انفعالا :

— لا شىء سوى أن هذا الأمر لم يخطر ببالى مطلقاً . .

فقال كاظم أفندى : ربما تعلمين يا سناء أى حياة يحياها سالم بك فقد أوتى كل شىء ولكنه حرم السعادة التى ينشدها كل إنسان فى هذا الوجود . . والتقط كاظم أفندى أنفاسه فى جهد ثم أتم حديثه متشجعا :

— وهو يرى أن سعادته تتركز فيك أنت دون سواك من بنات حواء اللاتى عرضن له وكلهن من أعرق الأسر ولكنه آثرك أنت لأنك وقعت من نفسه موقعاً حسناً وقد أبت أخلاقه إلا أن يحتفظ بزوجه وأولاده فى بيتهم على أن يؤثث لك فيلا فخمة بشارع الهرم فما رأيك ؟!

وأجابت سناء شاردة اللب :

— لست أدرى بم أجيب ولكن ما دمتما تريان أن سالم بك يصلح زوجا لى فلا بأس ما دام هذا يرضيكما . .

فسارع كاظم أفندى يقول فى نبرة تفيض حناناً وحباً :

— لا يا عزيزتى ، هذا شأنك وحدك لأنك أنت التى ستعيشين معه فلك مطلق الحرية فى الرفض أو القبول وقد اشترط سالم بك ذلك

فأطرقت سناء فترة طويلة وآثر والداها أن ينصرفا ويتركاها تفكر وقالت لها والدتها وهى تقبلها :

— سنتركك يا سناء تفكرين ما شاء لك التفكير واعلمى أن ما يسعدك يسعدنا وما يشقيك يشقينا ولولا علمنا بأنك ستسعدين بهذه الزيجة لما طرقنا هذا الموضوع .

وخرج الوالدان وأغلقا الباب وبقيت سناء فى مقعدها تفكر . . وأخذت تقلب الأمر على جميع وجوهه وأجهدها التفكير فقامت واضطجعت فى سريرها وقد ذهب بها الفكر كل مذهب ومضت تسائل نفسها :

— تُرى أيريد والداها تزويجها من سالم بك طمعاً فى ثروته الواسعة؟! ولكنها طردت هذا الخاطر من رأسها لأنها تعرف والديها حق المعرفة وتربأ بهما أن ينزلا إلى هذا الدرك . .

وغلبها النعاس أخيرا فنامت ، ولما استيقظت فى الصباح وجدت الدموع قد بللت وسادتها وحاولت أن تفكر فى هذا الأمر الجلل الذى حرمها نعمة النوم الهنىء فخنقتها العبرات فبكت ! . . بكت بحرقة دون أن تدرى هى بالضبط علة بكائها . .

تراها تكره سالم بك ؟ ! لا إنها لا تكرهه بل إن فيه كل ما يعجب المرأة من وسامة وأناقة وقوة ومرح إلى جانب ثرائه الواسع وإذا كان

متزوجاً فحسبه أنه سيبنى بها فى فيلا مستقلة بعيدة عن زوجه وأولاده ..

وخرجت سناء إلى الشرفة تستقبل أنسام الصباح المبكر وكانت فى روب دى شامبر وردى انسجمت تفصيلته الرائعة على قوامها البديع وتهدلت خصلات شعرها الذهبى على كتفيها فى إهمال مثير .. ولم تفطن إلى شاب طويل كان يقف فى شرفة منزل مجاور وهو يتأملها كالمسحور وكأنه لا يصدق عينيه .. كان مراد وقد تسمر فى مكانه يتأمل الغادة ذات الشعر الذهبى والقوام الفارع . يا إلهى إنها هى ! ! هى بعينها التى جاءته تتهادى على نغمات الموسيقى وهى تبتسم فى وجهه وهى هى نفسها تلك الطالبة الجميلة التى رآها ومحمود منذ سنوات تسير مسرعة إلى مدرستها وهى أيضاً بعينها تلك الفتاة اللطيفة التى كانت تمسك بقبعتها بكلتا يديها وهى تسير مسرعة حتى لا تطير القبعة مع الريح مما جعله يبتسم لمنظرها الطريف !.. شد ما تغيرت .. نعم كانت جميلة فى ذلك الوقت ولكنه جمال الطفولة أما الآن فهى فى جمال الملائكة رباه ! .. هل يعقل أن يتجسم كل هذا الحسن فى إمرأة ؟ !

أيبعد أن تكون حورية هاربة من الجنة جاءت تسرق قلبه وروحه معاً . ووضع مراد يده على قلبه مخافة أن يقفز إليها وينطرح تحت قدميها وغادرت سناء شرفتها دون أن تفطن إلى الإصابات التى أحدثتها فى قلب مراد ، بينما أحس مراد بدوار فأغلق عينيه على صورتها الرائعة

وعادر هو أيضاً الشرفة وإذا بأمين فى مواجهته ونظر إليه أمين وقال :

— ماذا بك يامراد ؟ . . إن الدماء تكاد تتفجر من وجهك . . هل بك شيء ؟

— كلا إنه صداع بسيط ألم بى وسأتناول قرصا من الأسبرين .

وسار إلى غرفته بسرعة وأغلق بابها خلفه وكأنه يضن بدقيقة يضيعها فى غير التفكير فى فتاته الآسرة وانطرح على فراشه وأخذ يتقلب فوقه متململا خافق القلب مبهور الأنفاس .. يا إلهى ماذا أصابه ؟ ! إنه يحس بالتهاب فى حلقه وقام وتناول كوب ماء وشرب قليلا منه ثم وضعه على خوان قريب منه وأخذ يعصر رأسه بين يديه بقوة لعله يطرد منها ماطاف بها من خواطر وخيالات ولكن لا ! . . إنه القلب الذى أحس والقلب الذى أصيب ! وها هو يشعر به يترنح بين جنبيه من شدة الإصابة . . رباه ماذا فى وسعه أن يفعل فى ذلك القلب ؟ !

ودخلت ليلى وتعلقت بعنقه فأخذها بين ذراعيه وقبلها وحاول أن يشتغل بمداعبتها عما يدور فى فكره ويضطرم فى قلبه حتى حان موعد الإفطار فجلس إلى المائدة وصب لنفسه قدحاً من الشاى أخذ يرشف منها فى صمت ولم يكن يجد أى ميل للطعام . . وكم كانت دهشة أمين حين سمع مراد يقول :

— إنى فى حاجة إلى لفافة فهل أستطيع أن أدخن إحدى لفائفك ؟ !

فقهقه أمين على أثر سماع هذا الطلب الغريب وقال صائحاً :

— ماذا ؟ ! أتدخن ياسيد مراد ؟ ! فقال مراد وقد احمر وجهه قليلا :

— لا ولكنى أحياناً أميل إلى التدخين . ونظر إليه أمين متمعنا وقال :

— يا سيد مراد إن فى الأمر شيئاً . . إنى أشعر أنك متضايق . . هل آلمك شىء من ناحيتنا . . أخبرنى بربك ولا تخفى شيئاً . .

— ليس بى شىء بالمرة . . إنك واهم فيما تظن

— ولكنك متضايق . . هل تذكرت أمراً آلمك حتى لتريد أن تفرج عن نفسك بالتدخين ؟ ! فقال مراد متخلصاً :

— ربما ! ! فناوله أمين اللفافة فى صمت وأشعلها له وأخذ مراد يدخن ويتأمل السحب المتصاعدة فى جو الغرفة وهو يحاول عبثا أن يتخلص من التفكير فى هذه الفتاة التى يبدو أنها أسرت روحه حتى لا تستطيع فكاكا !

وفى نفس الوقت كانت سناء جالسة مع والديها إلى مائدة الإفطار صامتة أيضا . . ولما عاد والداها إلى حديث المساء وسألاها رأيها فيما عرضاه عليها قالت فى استسلام :

— لست أدرى ولكن أحسب أنى موافقة ! . .

فبدا الفرح جليا على وجه والديها وقامت جيهان هانم وقبلت ابنتها فى فرح بينما قال كاظم أفندى فى تأثر وعطف :

— مبروك يا ابنتى . . كنت أعلم أنك عاقلة ولن ترفضى يد سالم بك ، إن الدنيا لن تتسع له من الفرحة حين يقف على موافقتك ..

وأطرقت سناء برأسها حياء ثم قامت إلى غرفتها ولم تكن تدرى أتضحك أم تبكى ، تسر أم تحزن ، ولكنها كانت إلى البكاء أقرب إلا أنها كتمت ما بنفسها ووقفت فى الشرفة تتفرج بالنظر إلى الشارع كعادتها وشاهدت ضابطا طويل القامة يخرج من أحد المنازل المجاورة ويسير فى تؤدة متجها نحو منزلها ، وشاهدته يرفع يده بالتحية للبقال الملاصق لبابهم ولم تدر لم تسارعت دقات قلبها حين لمحت وجه مراد وهو يسير فى طريقه مارا من تحت شرفتها ! تراها شاهدت هذا الوجه الأسمر من قبل ؟ !

وخيل إليها أن الوجه مألوف لديها ؟ وعادت بها الذاكرة سنين إلى الوراء . . ومن أغوار عقلها الباطن قفزت صورة باسمة الوجه لطالب فى الكلية الحربية . . هو بنفسه لم يتغير فيه شىء نفس الوجه ونفس القوام ونفس المشية وربما نفس الابتسامة المشفقة الساخرة لا زالت مرتسمة على وجهه . .

وغاب مراد عن ناظريها وكانت عيناها تتبعانه حتى اختفى تماما كما فعلت منذ سنوات . . كانت ترى نفسها بعين الخيال وهى عائدة من مدرستها عصر يوم عاصف من أيام الخريف وقد أمسكت بقبعتها تثبتها على رأسها بكلتا يديها خشية أن تذهب بها الريح ! . . وابتسمت للذكرى والتهبت وجنتاها حتى صارتا فى لون التفاحة الأمريكانى الناضجة

وتسارعت دقات قلبها حين تذكرت ما ألمّ بها فى ذلك اليوم من كدر وانفعال . . ترى ما الذى جعلها تعطى الأمر كل تلك الأهمية ؟ ! حتى أنها باتت ليالى عديدة تحلم بتلك الحادثة وتراودها صورة ذلك الفتى الذى أحنقها مسلكه وغاظها وجهه الباسم . .

وتذكرت أيضا حلما رأته ليلة الحادث . . رأت نفسها تصفع هذا الشاب فلا تزداد ابتسامته إلا اتساعا ويتركها تحرق الأرم غيظا ورأته بعد ذلك راكعاً أمامها يستعطفها ويطلب منها الصفح وهو ينظر إليها بعينين . . ترى ماذا كان لون عينيه ؟ ! . . إنها لا تذكر لطول العهد ، وعجبت لنفسها كيف تذكر كل هذه الدقائق والتفاصيل ولسبب لا يعلمه إلاّ الله كانت فاتحة عهد جديد فى حياتها . .

ووضعت سناء يدها على قلبها الذى كان يضطرب بين جنبيها وكأنها تريد أن تهدىء من ثائرته .

olibrairie.com

الفصل الحادي عشر

لم يكن مراد يدرى أن قدميه ستسوقانه إلى ذلك المكان الساكن، فقد كان يسير على غير هدى لا يعرف له وجهة معينة ، وكان يحس بقلبه ثقيلا بين جنبيه . . وأخذ يبعثر نظراته الشاردة بين صفحة السماء الصافية وظلال الأشجار الممتدة على طول الطريق الساكن . . .

كان مراد فى أيامه الخوالى قد اعتاد أن يرد هذا المكان الساكن الهادىء — ذلك الجانب البديع من الجزيرة الصغرى — وكان يسير صامتا يستمع إلى همسات النسيم وزقزقة العصافير وحفيف أوراق الشجر.. وكان كلما ورد ذلك المكان يطلق روحه الشاعرة تحلق تحت سماء تلك الجزيرة الجميلة ، ولكنه فى هذا اليوم كان يحسّ غصة فى حلقه وسار يجر قدميه جرا وجلس فى المكان الذى تعود الجلوس فيه وأطلق لأفكاره العنان . . ومكث ساكنا كتمثال وقتا غير قصير وأرسل نظراته على صفحة المياه فأبصر قاربا شراعيا يسير متهاديا رفيقا على سطح الماء ولما اقترب منه قليلا لمح فتى وفتاة فى مقتبل العمر ونضرة الصبى وقد أسندت الفتاة رأسها إلى صدر الفتى السعيد فى دعة واطمئنان بينما أمسك هو بكتفيها فى رفق وأرسل نظراته السعيدة الحالمة إلى الأفق.. واستدار القارب قليلا ثم اندفع فى طريقه وأخذ يصغر رويدا حتى اختفى

عن ناظريه ، وانتابه شعور قوى بالحسد لهذا الفتي المجدود الذى ينعم بقرب حبيبته غير أن شعور الحسد هذا سرعان ما زايله وحل محله شعور بالزهو ! إن فتاته أجمل ألف مرة من هذه الغادة ! . . فتاته ؟ ! يا لها من كلمة حبيبة ! نعم فتاته . . لقد أحب الفتاة ذات الشعر الذهبي والقوام الفارع بمجامع قلبه ولكنه حتى الآن لا يعلم عنها شيئا بالمرة ! ؟ حتى جنسيتها لا يعرفها بالضبط ! ! ومن الغريب أنه كان يحس فى أعماقه إحساسا قويا بأن هناك تجاوبا روحيا بينه وبين فاتنته المجهولة ! وهذا الإحساس يكاد يبلغ عنده مرتبة اليقين والعقيدة الثابتة وإن كان لا يسنده أى دليل من واقع أو منطق ؟ !

وشمله شعور فياض بالنشوة وأخذ قلبه يصفق بين جنبيه لهذا الخاطر ولكن صوتا من أعماقه كان يرتفع رويدا — صوت العقل — كان صوتا متزن النبرة وإن كان خافتا يضيع فى ضجيج العاطفة إلاّ أن مراداً كان يحب دائما أن يصغى إليه . . وكان الصوت يقول : « علام هذه الفرحة » ؟ إنك لتتسرع فى حكمك وتتطرف فى عواطفك حتى إذا صدمتك الحقيقة بقسوتها ومرارتها زلزلت كيانك وتركتك صريعا تشكو وتئن من ظلم القدر !. وحدثته نفسه : أنى لك أن تعرف مكانك من قلبها ؟ هى التى لم تكد ترى وجهك ! ! . . يا لك من إنسان مضحك مغرور ! . .

واحمر وجهه وأحس قلبه يذوب أسى وسكنت خواطره عن كثب وأطرق قليلا ثم ما لبث أن جمع أطراف نفسه المشتتة وقام متثاقلا يجر قدميه و بلغ جسر إسماعيل وقد شعر بكلال فى قدميه لأول مرة . . فاستقل سيارة إلى البيت فوجده ساكنا لا أثر فيه لحركة أو صوت لليلى الصغيرة ، وسأل الخادم عن سيدتها فأجابته أنها غادرت المنزل منذ قليل وسألته إن كان يريد شيئا فأومأ أن لا ، وسارع ملهوفا إلى الشرفة واتجه قلبه مع عينيه إلى شرفتها.. شرفة الساحرة التى ملكته واستعبدت روحه ولم تترك شيئا من نفسه . . يا للاستبداد ! واستمر واقفا فى مكانه لا يريم ولا يتحرك وكأنه تمثال من رخام ! . . وكانت نظراته العابدة تستقر على أصص الزهر الموضوعة فى شرفتها فى تنسيق بديع . كان يحسد تلك الورود اليانعة المطلة من أصصها على ما تنعم به حين تطلع عليها الجميلة كل يوم . . حقا . . جدير بهذه الورود أن تزدهر وتتألق وترسل أنفاسها الذكية إلى الدنيا ما دامت اليد التى تحمل إليها الماء هى يدها ! . . وأخذ يخاطب قلبه : أواه يا قلب شد ما ترهقنى . مالك هكذا ضعت فى لحظة وأضعتنى معك ؟ ! لقد عشت العمر حرا طليقا سعيدا بحريتي . . ولكن . . .

هل معنى هذا أنى غير سعيد ؟ ! . .

وأحس بجسده كله يهتز لهذا السؤال . . وتململ قلبه وشعر بصورة

المجهولة الفاتنة تملأ نفسه وغمرته سعادة طاغية كان يشوبها شيء من العذاب والمرارة ، واعترف بينه وبين نفسه أنه يفضل أن يذوب أسى ويحترق بحب فتاته على أن يعيش خاوى القلب مجدب العاطفة بعيدا عن حبيبة روحه ! ! هاهو ثانية يندفع فى خواطره ويزعم أنها حبيبته ! ولكن . . لا بأس أليس يحبها بل وعلى أتم استعداد أن يبذل حياته راضيا من أجلها ؟ ! وعاد يسأل نفسه : هل أحسّ هذا الإحساس العجيب لشخص آخر قبلها ؟ لا . . بالتأكيد إنه يحسّ بحبها يملأ شعاب قلبه ويضيء جوانبه كقبس من نور إلهى ولكن ما لسعادته يداخلها الرهبة والخوف ؟ أيخاف حبيبته ؟ ! كلا . . إنه قادر على أن يتقدم منها بكل جرأة وشجاعة ويجثو أمامها ويقبل أطراف ثوبها ، يا لله ! ! أهذه كل شجاعته ؟ ! يا له من بطل مغوار ! وابتسم ولكن الخوف والتهيب داخله مرة أخرى وامتدت يده إلى قلبه كأنما يريد أن يطمئنه ويذهب عنه الخوف ، وفى هذه اللحظة بدت سناء فى الشرفة بين ورودها بوجه يزرى بنضرة تلك الورود وحانت من مراد نظرة فوجدها فبهت وكف قلبه عن الخفقان ! وأحسّ قوة خفية تجذب عينيه إلى طلعتها . . وأسكره منظرها وترنحت روحه فى نشوة وهناءة . .

وكانت سناء هى الأخرى قد فوجئت برؤيته فاضطربت وتسارعت أنفاسها وتعلقت نظراتها بيده القابضة على قلبه ثم ارتفعت إلى عينيه

المشدودتين إلى عينيها فاحمرت وجنتاها وأطرقت إلى الأرض وهى تكاد تسمع دقات قلبها ثم رفعت رأسها فإذا بنظراتها تتجه على غير إرادتها إلى ذلك الواقف المتعبد فى صمت . . وأحست سناء رعدة تسرى من رأسها إلى قدميها ولكنها كانت رعدة لذيذة غير رعدة المقرور أرسلت إلى قلبها دفئا ونشوة وتألقت عيناها بنور خاطف ما لبث أن خبا حين سمعت أمها تناديها من الداخل واستدارت لتدخل بينما تعلقت نظرات مراد الوالهة بموجات شعرها البنى المذهب المنحدر على كتفيها ، واستمر فى وقفته زهاء نصف ساعة لعلها تعود إلى شرفتها فينعم بذلك الإحساس الغريب اللذيذ مرة أخرى ولكنها لم تظهر واستمر قلبه يدق فى شدة وعنف حتى لقد خشى أن تسمعه الخادم القريبة !

* * *

دخلت سناء لترى أمها فسمعت أصواتا فى غرفة الاستقبال فهرعت إليها فإذا بها ترى سعيدا ابن عمتها خديجة هانم وكان طالبا فى السنة نهائية بكلية الهندسة أبيض الوجه فى حمرة أزرق العينين رقيق الشفتين متوسط القامة عريض المنكبين له ابتسامة جذابة عذبة تعرف طريقها إلى قلب محدثه . . وكان له فى سيره مشية متزنة كلها اعتداد وثقة بنفسه إذ كان متفوقا فى كليته مبرزا فى الناحية الرياضية . . .

وقام سعيد يمدّ يدا كبيرة إلى ابنة خاله ووجهه يتألق بشرا وهو يقول فى مرح :

— أهلا بوردتنا النضيرة ! . .

فأجابت سناء فى حياء :

— أهلا بك يابن عمتى . . كيف حال العمة العزيزة والعم الجليل؟

— بخير وتريد عمتك أن تراك وكذا والدى . .

— حقا ؟ ! وأنا أيضا . . سأذهب إليهما غدا . . .

فرفع سعيد رأسه دهشا وقال :

— غدا ؟ ! ولم لا يكون اليوم والآن فى سيارتى ؟ . .

— آسفة يا سعيد فإنى متوعكة قليلا اليوم . .

وأقبلت فى تلك اللحظة جيهان هانم تحمل بين يديها علبة أنيقة بها بعض قطع الشيكولاته بينما قال سعيد لسناء وهو يتفرس فى وجهها :

— أنت متوعكة ولك هذا الوجه الذى يشع نورا ويضاهى التفاحة الأمريكانى الناضجة ؟ ! وعلى كل حال ستزول وعكتك بمجرد أن تحتضنك عمتك . .

— أفٍ لك ياسعيد . . لا تكاد تكف عن المزاح لحظة ! .

وإذ ذاك قالت جيهان هانم باسمة :

— أيريد اصطحابك إلى منزلهم كعادته فى كل مرة ؟ !

— ولكنك ترين أنى متوعكة لا أستطيع الخروج . .

— نعم أرى ذلك من الاحمرار الشديد فى وجنتيك . . إنك لستِ على ما يرام . . ماذا بك ؟ فارتبكت سناء ولكنها أجابت :

— لا شىء سوى أنى مجهدة قليلا . . فتدخل سعيد قائلا :

— إذن لا بأس من التسرية عن نفسك قليلا أيضا !

فقالت سناء باسمة :

— ليس بالخروج بالطبع لأن فيه إجهادا وتعبا . .

فقال سعيد بسرعة :

— إنك لن تسيرى على قدميك فأنت تعلمين أن سيارتى بالباب .

فقالت سناء بإصرار :

— ومع ذلك فإنى أفضل المكوث فى البيت على أن تتكرم بالحضور لأخذى غدا بشرط أن تعدنى من الآن بألاّ تسرع بسيارتك ! . .

فأطرق سعيد وأجاب يائسا :

— لا بأس ما دامت هذه رغبتك . .

وجلس سعيد يتحدث إلى جيهان هانم ويختلس النظر إلى وجه سناء بين لحظة وأخرى ! . .

كان يراها فى هذا اليوم أكثر جمالا وأشدّ سحرا وكان يرى عينيها أكثر تألقا عما مضى . . وكان سعيد يعجب بابنة خاله الإعجاب كله

ويراها نموذجا للجمال الكامل وكان ذا موهبة فى الرسم فحاول أكثر من مرة أن يرسمها ويصوّر جمالها النادر فى لوحة ولكنه لسبب لا يدريه كان يفشل فشلا ذريعا ! . .

ولم يشعر سعيد بالحزن كما شعر هذا اليوم حين رفضت الخروج معه وكان يلقى بأذنيه إلى زوجة خاله وهى تتحدث دون أن يحير كلمة واحدة فقد تعلقت عيناه بسناء لا تريدان أن تتركاها ! . .

وبعد هنيهة أفاق إلى نفسه ونظر فى ساعته ونهض للانصراف وودعته سناء حتى الباب ومدت يدها للتحية فاستبقاها سعيد فى يده بضع ثوان على غير عادته مما دفع الدماء غزيرة فى وجه سناء ! . .

وقاد سعيد سيارته متمهلا فى هذه المرة بينما وقف مراد بباب منزل أخيه يشيع السيارة وراكبها بنظرات ملتهبة ! وامتلأت نفسه غما وكمدا حين وقع نظره على وجه سعيد القسيم ورغم أنه كان غير واثق من انصراف راكب السيارة من بيت فتاته إلاّ أن قلبه كان يحدثه بوجود علاقة بينهما . . واستولى عليه إحساس شديد بالكآبة . . أين هو بجانب هذا الشاب الجميل الثرى ؟ وأرسل نظرات يائسة إلى الشرفة العزيزة . . ومضى فى طريقه بطىء الخطى مكتئب النفس مقطب الجبين.

وهفت روحه فى تلك اللحظة إلى محمود صديقه العزيز . . إنه أشد ما يكون حاجة إلى وجوده بجانبه فى ذلك الوقت ، وكاد يهم بالعودة

إلى المنزل كى يكتب له خطابا ولكنه أجفل وتراجع حين تذكر أن شرفة فتاته ستكون على مرمى البصر من حجرته وأنه لن يستطيع أن يخط حرفا واحدا ! ! واضطرب قلبه بين جنبيه وسار فى طريقه كاسفا ثقيل القلب . .

وما لبث أن استقل الأتوبيس إلى شارع سليمان باشا ، ثم نزل ينفرج بالسير فى الشارع المزدحم . وكم كان سروره حين وجد نفسه وجها لوجه مع زميله الملازم كمال رأفت فتصافحا فى سرور وقال مراد متسائلا :

— أما زلت فى أجازتك يا كمال ؟

— نعم وستنتهى غدا ثم أعود إلى قواعدى ! . . فضحك مراد وقال مكملا :

— سالما بالطبع ! فضحك كمال بدوره وقال :

— هذا ما أرجوه . . .

وسار الزميلان يتحادثان ونظر كمال فى ساعته ثم قال :

— ما رأيك لو ذهبنا إلى السينما ؟

— والله لقد مللت مشاهدة الأفلام ولكن لا بأس من الذهاب معك .

— إنه فيلم فكاهى رغبنى فى مشاهدته صديقنا مختار وأكد لى أنه كاد يغادر الفيلم خشية أن يحدث له ما لا تحمد عقباه من شدة الضحك ! ! فابتسم مراد وقال :

— وماذا يدعونا إلى مشاهدة هذا الفيلم ما دام الأمر كذلك ؟!

فقهقه كمال وسار الإثنان فى طريقهما إلى السينما . .

وأمضيا سويعات مرحة ممتعة حقا وغادرا دار العرض يسيران فى نشاط وخفة وودع كل منهما الآخر ومضى مراد إلى بيت أخيه ، وسار طويلا حتى بلغ الروضة وعرج على شارع المدارس وكان هادئا ساكنا رغم أن الوقت كان مبكرا وما إن مر فى طريقه بمنزل سناء حتى تململ قلبه وتسارعت دقاته ولكنه مع ذلك كان هادىء النفس مشرق الوجه وصعد إلى المنزل ، وما إن سمعت ليلى صوته وكانت على أهبة النوم حتى قفزت من فراشها وهرعت إلى عمها وأوسعته لثما وتقبيلا ومناوشة واستمر يداعبها وقتا غير قصير حتى غلبها النوم بين ذراعيه فحملها إلى فراشها ثم قام إلى غرفته وهم بالنوم ونازعته نفسه أكثر من مرة إلى فتح باب الشرفة والنظر إلى شرفة فاتنته ولكنه منع نفسه قسرا من تنفيذ هذه الرغبة ولو كان قد فعل لوجد سناء جالسة فى شرفتها ترقب حضوره وظهوره فى الشرفة فقد كانت تحس هى الأخرى أنها لا تستطيع الامتناع عن رؤيته.وهو على قيد خطوات من منزلها ! !

الفصل الثانى عشر

جاء الأحد وهو يوم عطلة أمين وكان قد وعد أسرته الصغيرة بتمضية اليوم فى القناطر ولم يجد مراد بأساً من اصطحابهم واجتازت بهم السيارة الصغيرة حى المنيل إلى شارع القصر العينى وعلى حين فجأة خرجت من أحد الشوارع الجانبية سيارة من نوع « ستوديبيكر » وهى تسير بسرعة ولم يستخدم سائقها جهاز التنبيه ولولا لطف الله ويقظة أمين لاصطدمت السيارتان ! . .

وشهقت حسنية شهقة جعلت مراد يفيق مذعوراً من خيالاته وتلفت حوله فأدرك ما حدث وكان أخوه قد غادر سيارته واشتبك مع سائق السيارة الأخرى الذى لم يكن فى الواقع سوى سعيد ابن عمة سناء وكان قد ذهب لاصطحابها إلى منزله كما وعدته وكاد قلبه يثب فرحا حين أخذت زينتها وركبت إلى جانبه واستخفه الطرب فأسرع فى سيره فكان ما كان . . .

وغادر مراد السيارة ليقف على جلية الأمر وكاد يتدخل ليلقى درساً على ذلك الشاب المتهور المتعجرف الذى يصر على أن أمين هو المخطىء لولا أن سمع صوتا أنثويا رقيقاً من داخل السيارة يهيب بالشاب :

— كفى يا سعيد . . إنه أمين أفندى جارنا ويجب أن نعتذر له

حيث أنك أنت المخطىء ! . . فنظر أمين فإذا بها سناء صديقة زوجه وابنة جارهم التركى كاظم أفندى فحياها وشكرها فاعتذرت له بابتسامة عذبة لم يزدد سعيد حين رآها إلاّ عبوساً وتجهما .

وأطل مراد برأسه فبهت وكاد يغمى عليه ! ! وغاضت الابتسامة من وجه سناء وحلّ محلها ارتباك ظاهر واضطراب ولمست ذراع سعيد قائلة متلاحقة الأنفاس :

— هيا بنا ! . . وعاد أمين إلى سيارته وجلس يخبر زوجه بأمر السيارة الأخرى ومن فيها وكانت حسنية قد التقت بسعيد ذات مرة فى بيت سناء فأعجبها أدبه الجم ورقته وعجبت لتهوره فى القيادة وعجبت أكثر للأوصاف والنعوت التى يرميه بها زوجها . . وفى تلك الأثناء كان سعيد قد أدار محرك سيارته ونظرت سناء حين بدأت السيارة تتحرك إلى مراد الذى كان متصلباً مذهولاً وأخذتها نظراته العابدة الحزينة وكانت المرة الأولى التى تراه فيها عن قرب وراعها وجهه الأسمر الناطق بالرجولة . . ياإلهى نفس الوجه ونفس القسمات التى تخيلتها له . . لا بل إن الحقيقة فوق ماتصورت فلم تكن تظنه بهذا الطول . إنه يكاد يزيد على سعيد عشرين سنتيمترا على الأقل ! وابتعدت بها السيارة وكانت لا تزال تتأمل فى خيالها صورة مراد وأدارت رأسها فجأه لترى هل غادر مكانه أم لا وإذا بها تشهق وقد اتسعت عيناها هلعاً وكفّ قلبها عن

الخفقان تماماً ؟ فقد كان مراد لا يزال فى وقفته حين مرت سيارة أتوبيس فكادت تدهمه لولا أنه حاد فى آخر ثانية عن وقفته ! والتفت سعيد إلى سناء فى قلق وسألها عما راعها فأجابته بصوت متهدج وأنفاس متقطعة :

— كادت إحدى السيارات تدهم شاباً !! .. فقال سعيد فى برود :

— وهل دهمته ؟ ! فأجابت سناء وقد هدأت ثورة قلبها :

— لا . . لقد لطف الله . .

حقاً كان لطف الله عظيماً بقلبها ! . . وساءلت نفسها فى حياء « أهى حقاً خافت عليه ، لأنه فتاها أم لأنه شخص عادى ؟ ! وأجابت نفسها الساكنة الرزينة « إن مشهد شخص — أى شخص — تدهمه سيارة مشهد مؤلم حقاً » . . وأجاب القلب المضطرب « وهل تظنين أنى كنت أستطيع الحياة قريراً لو أنه مات أو أصابه مكروه ؟ ! وراعها هذا الاعتراف وأخجلها . . من هو هذا الشاب وماذا تعرف عنه ؟ بل ماذا يعرف هو عنها وما موقفه منها ؟ وأجاب العقل . . أنه ضابط حديث التخرج يمضى عطلته فى بيت أخيه الذى يجاورنا » . . . ورد القلب مصححاً :

« إنه شاب وسيم له نظرات نفاذه تأسرنى ، ولا شك أنى أميل إليه !! »

وأخذت سناء فى مجلسها إلى جانب سعيد تستعيد ذكرياتها .

رأت نفسها تسير فى يوم عاصف ممسكة بقبعتها بينما طالعها وجه باسم هو وجه الضابط وكان لا يزال طالبا إذ ذاك . .

وتفكرت فى الأثر الذى أحدثته فى نفسها بل فى حياتها تلك الابتسامة وكيف أيقظت مشاعر وخلجات دفينة كانت بداية شعورها بأنها أقبلت على عهد الأنوثة والنضج .

وتذكرت الجميلة يوم وقفت فى شرفتها تبحث ملهوفة خافقة القلب عن قوامه الطويل الذى غاب عنها فى الزحام . .

وهل هى تنسى يوم جلست فى شرفتها تنتظر ظهوره وجسمها يرتعد خجلا وكيف لم تنم حين رأت أنه تخلف عن الظهور فى الشرفة وذهبت بها الهواجس كل مذهب . .

ولم يطق العقل سكوتاً على هذا فصاح : رويدك أيها القلب الأرعن ولا تمض فى طيشك . إن سناء تكاد تكون مخطوبة ولا داعى للتعلق بغير خطيبها « فهتف بحنق » وياله من خطيب شارف الخمسين كيف بالله تظن أيها العقل الجامد أنى أرضى وأقر عيناً بهذا الخطيب المزعوم بينما جوانبى تمتلىء منذ سنوات بصورة الضابط الشاب ولست أرضى بأحد سواه ولا مكان عندى لأى أحد غيره ! ! . .

* * *

قالت حسنية بعد أن اتخذ مراد مكانه بجانبها :

— ما هذا يا مراد ؟ كاد الأمنوبوس يدهمك ! ؟ ما الذى جعلك تقف متصلبا هكذا ؟!

ونظر إليها مراد كالأبله نظرات لا معنى لها . وقال :

— لا شيء سوى أنى تضايقت من عبارات ذلك الفتى الأحمق المتعجرف . .

فضحك أمين وقال :

— وهل هو ضايقك إلى الحد الذى يدفعك إلى الانتحار ؟ !

فابتسم مراد وضحكت حسنية وسارت السيارة فى طريق القناطر وقد عاد إلى الأسرة هدوءها ومرحها .

وتحت قدمى شجرة عجوز اتخذت الأسرة مجلسها وكانت الحدائق البديعة الممتدة حافلة بأناس شتى كلهم جذل منشرح ، وفرحت ليلى إذ وجدت الكثير من أقرانها بعضهم من زميلاتها فى الروضة وسرها ذلك أيما سرور كما سر حسنية وخاصة حين رأت ابنتها تلعب فى جذل وانسجام تام بينهم . .

وكانت الأنسام تحمل شذى عاطرا يسكر النفوس وكان الناس كلهم فى فرح وتطلق ، فيما عدا صديقنا مراد الذى ازداد قلبه انقباضا وامتلأت نفسه وجدا وهما . وعبثا حاول أمين أن يخرجه من جموده بنكاته وقفشاته حتى حار فى أمره واستبد به العجب فاقترب منه ووضع يده على كتفه وقال بحنو ورقة :

— أى أخى وحبيبى . . ما بك ؟ إنك لست على ما يرام ! بالله أخبرنى بما يرهق نفسك . . لا بد أن هناك أمراً ذا بال يشغلك . . .

— أنت واهم يا أمين ليس بى شىء . .

— إذا كنت تعتقد فى أخيك الغباء فإن أحداً سواك لم يتهمنى بهذا قبلك فهلا أخبرتنى بأمرك أم أنك تريد إيلامى !

— إن الأمر لا يدعو إلى كل هـذا الاهتمام فإنى أشعر بصداع بسيط لا شك سيزول بعد قليل . .

— لا . . أنا أعرفك جيدا ليس الصداع هو الذى يفعل بك كل هذا ويجعلك تكتئب كل هذا الاكتئاب لا بد لى من الوقوف على سر انقباضك . .

فقال مراد فى ملل :

— يا أخى إنك تحاول عبثا . . إنى بخير بربك دعنى وشأنى .

— أرأيت كيف أنت متوتر الأعصاب قليل الصـبر ؟ . تراك سئمت المقام بيننا ؟ ! فابتسم مراد فى حزن ورقة وقال :

— معاذ الله يا أخى ماذا تقول ؟ ! ربما تكونون أنتم قد سئمتم منى وعلى كل حال لقد قاربت عطلتى الانتهاء . . فقال أمين :

— حقا ؟ ! لقـد نسينا هذا . . إذن فقد آن لنا أن نستريح من وجهك المكتئب وجبينك المقطب . . يا لنا من سعداء !

فابتسم مراد وقال :

— وأستطيع أن أسبب لكم هذه السعادة من الآن ؟

— حقا ؟ ! وماذا يمنعك ؟ ! وإذ ذاك سقطت الكرة فى حجر مراد فهرعت ليلى وارتمت فى أحضانه وأخذت الكرة وقبلته بسرعة ثم جرت بكرتها إلى أمها . فقال مراد فى تأثر :

— إن الذى يمنعنى هو هذه الصغيرة . كم أود لو أخذتها منكما . .

— أنا أعلم هذا . . وأعلم أنك تكرهنا وتكرهنى أنا على الخصوص . .

— ماذا تقول يا أمين . . أنا أكرهك ! ألا ما أطرف ما تقول !

— إذن إن لم تكن تكرهنى وإن كنت تحبنى كشقيق كما تزعم فلم لا تكشف لى عما يضايقك ويثقل قلبك ؟

فنظر إليه مراد نظرة لوم وقال :

— ها نحن نعود إلى الحديث الأول . . ألم أنبئك أن ليس بى شىء . وعادت ليلى تقذف إليه بكرتها فتناولها بجذل وقام وقذف بها إليها وهكذا تمكنت الصغيرة ليلى وحدها من إخراجه من سكونه واكتئابه . .

وابتسم أمين حين رأى أخاه يجرى هنا وهناك وقد خالطت ضحكاته العالية ضحكات ليلى ومعابثاتها .

وجلس الجميع يأكلون وأكل مراد بشهية عجيبة مما ملأ نفس

أمين سروراً ، وأصرت ليلى على أن تتخذ مجلسها على ركبتى عمها مراد وبعد الانتهاء من الغداء قال أمين مقترحا :

— ما رأيكم فى السير بعض الوقت فهذا أمر مستحب بعد الغداء ..

فقالت حسنية فى جذل :

— فكرة مدهشة هلم بنا يا مراد . . فقال مراد مداعبا :

— أولا هى فكرة ليست مدهشة مع احترامى لرأى زوجك الموقر ، ثانيا أنا أفضل المكوث فى حمى هذه الشجرة الرءوم .

فقال أمين فى جزع تمثيلى :

— أتظن أنى من البلاهة بحيث أتركك لأفكارك وأحزانك .. لا وألف لا . . هلم بنا . ولم يسع مراد إلاّ أن يقوم متثاقلا وسار بين أخيه وزوجه وهو يمسك بيد ليلى وكان يملأ صدره من الهواء النقى المنعش ثم يخرجه فى بطء فى تنهدة طويلة وكان يمنع نفسه جاهدا من التفكير فى فتاته وطال هذا الأمر وثقل عليه ولو أنه ترك نفسه يفكر فيها لكان أهون على قلبه وعقله وفكره جميعا وهمّ أكثر من مرة أن يسأل أخاه عنها ولكنه كان يحجم فهو يعرف فى أمين الذكاء وسرعة الخاطر . إنه سيعلم سر سؤاله ولا شك ! وألحّ عليه قلبه أن يجازف بالسؤال وليكن ما يكون ولكن عقله كان يهيب به أن يصمت ويمسك بزمام مشاعره وكما هى العادة انتصر القلب فى النهاية ! وانتهز مراد فرصة ابتعاد حسنية

مع ليلى قليلا وتردّد قبل أن يسأل أمين فى حياء محاولا تضليله قدر ما يستطيع :

— هل تعرف ذلك الشاب الذى كاد يصدم سيارتنا ؟

فأجاب أمين فى عجب :

— ألا زلت متأثرا بهذه الحادثة التافهة ؟ . إن الذى يقود سيارة يحدث له يوميا عشرات الحوادث المماثلة ! . .

فقال مراد :

— ولـكن شيئا فى هذا الشاب جعلنى أتضايق حتى لقد هممت أكثر من مرة بالشجار معه . . هل تعرفه من قبل ؟ !

— لا لست أعرف عنه شيئا سوى أن اسمه سعيد . . وقد عرفت ذلك حين نادته سناء قريبته . فخفق قلب مراد بعنف وسأل أخاه فى نبرة غالب اضطرابها :

— سناء ! ؟ من سناء هذه ؟ . .

— الفتاة الجميلة التى كانت تجلس إلى جواره والتى طلبت إليه الاعتذار إلينا فأبى واستكبر . ووالله لولاها ولولا عذب ابتسامتها ورقة أخلاقها لحطمت رأس ذلك المغرور السمج . . وازداد خفقان قلب مراد وسأل :

— ولـكن كيف عرفتها

فأجاب أمين ببساطة :

obeikandl.com

— إنها صديقة حسنية وابنة كاظم أفندى التركى الذى يقطن على مقربة منا ويفتتح جاراجا لتصليح السيارات . . مستقيم كحد السيف ، يؤدى الفرائض ولا يعرف مكانا لقضاء فراغه سوى المنزل . .

وكان أمين يتكلم ببساطة ولم يدر بباله أنه إنما يتحدث عن الفتاة التى أسرت قلب أخيه والتى لا شك سيكون لها معه شأن والتى سببت انقباضه طول اليوم . .

وابتهج مراد بهذه الأخبار وخاصة حين عرف اسمها وعرف أنها مصرية مسلمة . .

وسار فى طريقه وقلبه السعيد الملهوف يردد مع كل دقة من دقاته : سناء . . سناء . . سناء !

obeikandi.com

الفصل الثالث عشر

فرغ مراد من قراءة الصحيفة الصباحية وردّ بإيماءة على تحية أمين الذى كان متوجها إلى عمله وسأل الخادم عن ليلى فأخبرته أنها مازالت مستغرقة فى النوم . . وعاد مراد يتسلى بتقليب صفحات الجريدة فلم تقع عيناه على أمر غير عادى فيما عدا أنباء الحرب التى أصبحت مملة لديه . .

وفى الواقع أنه لم يقرأ شيئا ! وكانت نظراته الجامدة تستقر على الكلمات دون أن تعى منها شيئا . . وتمطى فى فراشه ثم قام واتجه إلى الشرفة كالمسحور . . وتذكر حديث الأمس مع أمين وتمتمت شفتاه فى نشوة : سناء . . سناء . . أواه منك أيتها الساحرة العزيزة . . ترى ماذا تفعل بنا الأيام ؟ !

وتذكر أن أجازته ستنتهى فى اليوم التالى وأنه سيعود إلى مقر عمله فى السلوم وتستهدف حياته لخطر الطائرات المغيرة من جديد ومن يدرى ربما أصابته شظية قنبلة تضع حداً لحياته التى بدأ يحس حلاوتها و يدرك قيمتها ! وداخله الحزن لأول مرة ولم يكن قبل ذلك يهاب الموت أو يحرص على الحياة وكان يقذف بنفسه فى اللهب بقلب ثابت مادام فى ذلك واجبه . . ولكنه الآن يحس أن قلبه يتشبث بالحياة و يتعلق بأهدابها . لماذا ؟ ! إنه يحلم بلحظة يقضيها مع سناء . . لحظة واحدة يناجيها و ينظر

فى عينيها و بعدها مرحباً بالموت ! ترى هل تتيح له الأقدار هذه اللحظة السعيدة ؟ . .

ونظر مبتهلاً إلى السماء ثم خفض عينيه المخضلتين بالدمع إلى شرفتها فإذا بها تقف فى مواجهته فى ثوب أبيض .. جميلة كالملاك رقيقة كالنسمة العاطرة . وتعلقت عيناه بعينيها وكأنما هى لا تبعد عنه سوى أمتار وكان قلبه يتلوى بين جنبيه فمد إليه يده كعادته كلما هم أن يثب إلى قدميها . . ولم يصدق فى ذهوله عينيه حين رأى يدها النورانية البضة تمتد إلى صدرها وتستقر على موضع القلب منه ! ! . . إذن هناك تجاوب روحى بينه و بينها كما كان يحدثه قلبه دائماً ! . .

وجُن جنونه وود لو استطاع أن يطير ليجثو تحت قدميها يبللهما بدموعه و يدفئهما بقبلاته ! . .

كانت نظراته المفتونة العابدة ترسل إليها شواظاً من لهب لعلها أحست لفحها على بشرتها الحريرية الناصعة فبدا فى عينيها ذلك البريق الخاطف المتألق الذى لمع فيهما فى المرة السابقة . . وكانت هى الأخرى فى وقفتها تشعر بسعادة غريبة لم تشعر بها من قبل وتذكرت حادثة السيارة وقفز إلى خاطرها الحلم الذى بدا فيه جاثيا على ركبتيه يستعطفها و إذا بها تمد إليه يدها وتنهضه ! . .

وأحست رغبــة ملحة فى تلك اللحظة فى أن تلمس رأسه بكفيها وتمرر أصابعها خلال شعره الفاحم ! !

وأخجلها هذا الخاطر حتى احمر وجهها وازداد ضغط يدها على قلبها كأنما هي تريد أن تزجره وتخمد صيحاته وابتهالاته !

واستمر الاثنان هكذا برهة ليست قصيرة . . مراد يتعبد فى فاتنته وسناء فى وقفتها تلك تغالب مشاعرها الثائرة ولا تحيد ببصرها عن وجه ذلك المتعبّد الصامت الوسيم ! وتمكنت فى النهاية من مغالبة نفسها فأدارت ظهرها ودلفت إلى حجرتها وأحس مراد وحشة غريبة ولم يطاوعه قلبه على ترك الشرفة وود لو استمر واقفاً إلى الأبد !

وأثقلت الأفكار على قلب سناء الغض . . ذلك القلب البكر الذى لم يتعرض لمثل هذا الإعصار الشديد من قبل . وأحست لسبب لا تدريه رغبة فى البكاء ! ولكن دمعها الذى كان دائما أطوع من بنانها كان عصيا فى ذلك الوقت فسكتت عن كثب ووجدت نفسها على غير إرادتها تحدق فى المرآة وتمعن التحديق . . تماماً كما فعلت يوم رأته أول مرة وحسبته يسخر منها !

لقد شكت فى جمالها ذلك اليوم رغم أن هذا الجمال كان حديث كل من يشاهدها حتى زميلاتها فى المدرسة كن يحسدنها على حسنها النادر . . وميرفت تلك الخبيثة كانت ما تفتأ تقول لها مداعبة :

— وددت لو كنت رجلاً يا سناء ، إذن لحاربت الدنيا وغزوت الأمصار من أجلك ! . . ألم تدم حروب طروادة بين أبطال الإغريق عشرات السنين من أجل امرأة جميلة مثلك ؟ !

وكانت سناء إذا بلغت مسامعها هذه الكلمات عبست فى حياء ودلال وزجرت ميرفت على مداعبتها الثقيلة ، فكانت ميرفت تقهقه منها وتحتضنها فى ود ومرح . .

وامتدت أصابع سناء إلى عقد يزين جيدها الأتلع وبدا لها فى تلك الآونة سخيفاً غير منسجم مع نحرها . . فخلعته وسارعت إلى علبة حليها الفضية المبطنة بالمخمل الأسود وانتقت قلادة باهرة أهديت إليها حديثاً من سالم بك وهمت بارتدائها ولكنها أحجمت فى آخر لحظة ! كيف تتزين بهذه الحلية الثمينة لشخص آخر ؟ !

واعترفت بينها و بين نفسها أنها إنما تريد أن تتزين له هو . . دون سواه . . فلتكن إذن زينتها من مالها الخاص ! وانتقت سلسلة ذهبية رفيعة تتوسطها حلية أنيقة من الذهب على شكل حدوة حصان محلاة بفصوص صغيرة من الماس ، ونظرت إلى نفسها فى المرآة فبدت الحلية المستقرة على صدرها العاجى أكثر جمالا مما كانت من قبل ! . . وسارت فى خطوات ملكة متوجة إلى الشرفة وكان مراد يهم بمغادرة مكانه بعد يأسه من عودتها . .

و بدت سناء فى وقفتها المزهوة باهرة رائعة وأرسلت إليه ابتسامة من موقفها البعيد ، وحسب مراد الدنيا كلها تبتسم إذ تبسمت سناء . . وأخذت نظراته الواهلة الملهوفة ترسل لهيبا أشد لظى . .

وكأنما هو فى وقفته قد بدر منه ما يدل على مدى فرحته بعودتها لأن الابتسامة زادت اتساعا على وجه سناء وتسارعت دقات قلبها السعيد.

نعم كانت سناء سعيدة فقد أيقنت أخيرا أنها تحب ! . . نعم تحب !! وماذا فى ذلك ؟ ! هل الحب عاطفة شريرة ؟ ! إن معظم زميلاتها يحببن ميرفت نفسها كانت تحب ذلك الذى تقدم لخطبتها فى الأسبوع الماضى ولم يكن والداها راغبين فيه أول الأمر لولا أنها ظلت تدفعه إلى الإلحاح والتشبث حتى رضيا أخيراً حين علما أن ميرفت ترغبه . .

وماذا عليها لو فعلت مثل ميرفت ؟ ! ماذا عليها لو حثت فتاها على التقدم لخطبتها ؟ ولكنها شعرت بأسى يغمرها فجأة وهبطت كآبة ثقيلة على قلبها وحدثتها نفسها : ومن يدرينى أنه يشعر نحوى بمثل شعورى ؟ من يدرينى أنه غير متعلق أو مرتبط بفتاة أخرى ربما تفوقنى جمالاً ؟ !

وكان هذا الخاطر المخيف كحجر ألقى فى صفحة خواطرها الجميلة فتشوشت واضطربت وأحست بقلبها المعذب يغيض إلى قدميها وعاودتها الرغبة فى البكاء ولم يعصها الدمع هذه المرة فانهمرت دموعها على وجنتيها الملتهبتين ودخلت وارتمت على فراشها وتركت لنفسها العنان . .

وعجب مراد لذلك التبدل الذى طرأ على معبودته وإن كان لم يشاهد حقيقة ما حدث ، وأحس انقباضاً فى قلبه لم يدر له سبباً وعاد كاسفاً إلى غرفته وارتدى ملابسه على عجل ولأول مرة أحسّ ارتياحاً لأن ليلى

obeikandl.com

لم تستيقظ من نومها — هو الذى كان لا يطيق صبرا حتى تستيقظ فكان يذهب إلى فراشها يداعب وجنتيها وشعرها ويغطى وجهها الصغير بقبلاته حتى تستيقظ وتتعلق بعنقه .. بالله ! ؟ ما هذا التبدل الذى طرأ عليه ؟ إنه ليس مراد الذى يعرفه . . لقد غدا شخصا آخر ! . . شخص متوتر الأعصاب ثائر النفس ولم يكد يتناول شيئا من الطعام حتى لقد تألمت حسنية وحسبت أن الألوان لم تعجبه رغم حرصها على اختيار الأصناف التي تعلم أنه يحبها . .

ولما استفسرت عن عدم شهيته اعتذر لها بأن معدته غير منتظمة وأرجع ذلك إلى كثرة أكله فى اليوم السابق أثناء رحلة القناطر ، فسكتت حسنية ونظرت إليه فى عطف بينما أدار لها كتفيه العريضين وتركها مسرعاً . . .

وهو نفسه لم يكن يدرى سر إسراعه ! فقط كان يشعر برغبة قوية فى الخروج والانطلاق وسار فى طريقه واقترب من منزل سناء بخطوات ثابتة وكأنما اعتزم فى نفسه أمراً ! ؟ . .

ورأى نفسه ويا للعجب يصعد درجات منزلها ويمر بأول طابق ثم يتعداه إلى الطابق الثانى . . إلى منزل سناء ! ! يا للهول كيف أوتى كل هذه الجرأة ؟ وأهاب به القلب « وهل كنت إلا شجاعا مقداماً ؟ ! »

فتقدم مراد بخطوات مضطربة متعثرة ووجد نفسه أمام باب شقتها

شقة آسرته وحبيبة روحه . . واضطرب واعتراه ارتباك حتى لقد هم بالنكوص والعودة من حيث أتى ولكن يده — تبا لها ! — امتدت إلى الجرس وضغطته ! يا إله السماوات كيف حدث هذا ؟!! واقتربت خطوات خفيفة سريعة من الباب وكف قلبه عن الخفقان تماما وامتقع وجهه وارتجفت شفتاه وهم بالتراجع ولكنه فى اللحظة الأخيرة وجد نفسه وجها لوجه مع سناء ! ! . . معبودته الجميلة التى عذبه حبها وقطع عليه مسالك تفكيره . .

وقرأ فى عينيها — لله ما أجملهما — آيات الدهشة والخوف . . وتسارعت أنفاس سناء واضطرب جفناها وكأنما هى لا تصدق عينيها !؟ ومد مراد إليها يده فى يأس وضراعة ولم يستطع أمامها نطقا ! . .

وما إن زالت وطأة المفاجأة حتى قالت سناء فى حياء واضطراب :

— نعم ! وتجمعت حبات العرق البارد على جبين مراد وحاول الابتسام وهو يقول :

— شكراً لقد احتبس لسانى فأنقذتنى بكلمتك الرقيقة . .

فقالت سناء فى دهشة وأدب :

— ولكنى حتى الآن لا أعرف سبب تشريفك ؟!

— معذرة يا آنستى الكريمة . . نسيت أن أقدم نفسى ! . .

مراد عبد الشافى ضابط بسلاح المدفعية وأعمل بالسلوم وأمضى عطلتى

obeikandl.com

في بيت أخى وأنت تعرفينه وكذا تعرفين زوجـة أخى حسنية . .

ثم ابتسم فى ارتباك وقال :

— وأظن أيضا أن أمين شقيقى يعرف والدك جيدا . .

وكانت سناء تنظر إليه وقد أكبرت فى نفسها جرأته وإن داخلها بعض الخوف مما عساه يترتب على هذه الجرأة . . وهتف قلبها من الأعماق:

مراد ! يا له من اسم جميل ! بينما قالت متمالكة نفسها فى أدب :

— هل تريد شيئا يا سيدى ؟

فارتبك مراد وفطن إلى موقفه الشاذ ولكنه قال متشجعا :

— أريد مقابلة والدك . . كاظم أفندى ! ! فعجبت سناء ولمع فى عينيها بريق خاطف وقالت :

— والدى غير موجود الآن وإذا كنت غير راغب فى مقابلته بالجراج فتفضل بالحضور فى السابعة والنصف مساء . .

— السابعة والنصف ! . . شكراً . . سأحاول مقابلته . . وإن كنت أخشى ألا أجده !

— إنه يكون موجوداً بالتأكيد ويمكنك أن تقابله باكر صباحا فهو يوم عطلته . .

فقال مراد فى أسف :

— باكر ؟ ! للأسف سأكون فى مقر عملى بالسلوم حيث نترصد

لطائرات العدو التى دأبت على الإغارة على مواقعنا كل ليلة تقريبا ! . .

ولم تستطع سناء أن تخفى جزعها الذى بدا واضحا فى نظراتها . .

ماذا ؟ ! أيعود إلى الخطر بعد أن شغل قلبها وفكرها وأسر روحها ؟

يا إلهي رفقا بهذا القلب . .

وكاد مراد يطير فرحا فقد أدرك وهو يتأملها أنها تخاف عليه الخطر !

وقالت سناء بصوت حاولت أن تجعله طبيعيا ولكنه خرج متهدجا :

— إذن فلتذهب إليه فى الجاراج إذا كان الأمر هاما كما تقول . .

فسارع مراد يقول فى اندفاع ونشوة :

— إنها مسألة حياة ! ! . . فقالت سناء وقد أخذ صدرها الناهد يعلو ويهبط فى سرعة :

— حياة ! . . ماذا تقصد يا سيدى ؟

— نعم حياة . . قلب ! !

فقالت سناء نشوانة فى نبرة مضطربة :

— معذرة يا مراد أفندى لست أفهم شيئا !

فقال مراد مستميتا :

— آسف لاضطراب كلماتى ولكنى سأحدثه فى أمر سعادتى ! ترى هل يرضى ؟ . .

فتسارعت دقات قلب سناء واحمر وجهها وسألت بصوت خافت متهدج :

obeikandl.com

— يرضى بماذا ؟ ! فأجاب مراد كالحالم وهو يتأمل عينيها :

— يرضى بأن يجعلنى أسعد أهل الأرض جميعا ! . .

— وكيف ؟ ! فأجاب على الفور بصوته الذاهل العابد :

— بأن يرضى بى زوجا لأجمل وأعز إنسانة !

وقالت سناء نشوانه فى اضطراب :

— لست أفهم مرماك ! . . فاندفع مراد وكانت أعظم قوة على الأرض لا تستطيع أن تقف فى سبيله :

— إنك تفهمين يا سناء ولا داعى للتفسير . . إن للأرواح تدابير ولغة أخرى لا نستطيع فهمها لأنها لغة سماوية صامتة . . إنك سيدة قلبى وحياتى . . فيك تتركز آمالى وفى عينيك الآسرتين نعيم الدنيا وسحر الحياة . . وبين يديك النورانيتين سعادتى بل حياتى فافعلى بها ماتشائين وثقى أنها لن تساوى فى نظرى شيئاً إذا حرمت منك ! . .

وكان مراد يردد هذه الكلمات بصوت متهدج يغلبه التأثر . . وهال سناء ما تسمع وترنح قلبها الغض نشوان من خمر الحب التى كانت كلمات مراد تصبها فى قلبها صباً ، وهمت بأن تغمض عينيها وتسبح فى معانى كلماته السحرية ولكنها لم ترد أن تحرم نفسها من طلعته العزيزة الناطقة بالرجولة والحب . .

وتدفقت الكلمات من فم مراد . . وهمت سناء أن تمد يدها لتسكته ولكنها أجفلت وقالت متوسلة :

— بالله كفى يا . . مراد . . إن قلبى لا يحتمل !

فقال مراد فى ضراعة وألم :

— أتضايقك كلماتى ؟ . . معذرة فقد اندفعت ولكنه أمر فوق إرادتى . . فقالت سناء فى نبرة ما كان أحلى وقعها فى أذنيه :

— أقصد أن قلبى لا يحتمل كل هذه السعادة . . لقد فعلت بقلبى ما لم يفعل أحد سواك وأسهرت جفنى ليالى طوال . . ولم أكن أعرف أنه الحب الذى يغزو قلبى إلاّ الآن وأنت أمامى تفتح لى قلبك . . إن كل كلمة من كلماتك تهز قلبى هزاً وتسكر روحى . . فكاد مراد يهوى على قدميها وقال والدموع تترقرق فى عينيه :

— بالله زيدينى وردى . . أسمعينى صوتك الموسيقى الحبيب يامنى النفس . . إنى أسعد أهل الأرض بك وسأعود غداً إلى الميدان وأصلى طائرات العدو نيراناً حامية وأسحقها جميعاً ثم أعود لأجثو تحت قدميك أبللها بدموعى وأدفئها بقبلاتى . . فأجابت بنبرة فيها الحب والخوف :

— مراد بالله لا تذكرنى بأنك عائد إلى الخطر بعد أن صرت لى كل شىء . . .

— لا بد من عودتى إلى الميدان يا سنائى وثقى أن حبك سيكون تميمة تقينى الخطر وسيحفظنى الله من أجلك يا سناء . . من أجل أن أعيش العمر لإسعادك يا أجمل حلم طاف بخيالى . . يا إلهى إنى لا أصدق

ما أرى وما أسمع ! سناء المعبودة الفاتنة تحبنى ؟ يا للسعادة ! فقالت سناء بصوت مختلج يسيل رقة وحباً :

— تحبك يا مراد وتتمنى أن تعيش العمر معك زوجة وحبيبة . .

ولم يستطع مراد أن يتمالك عواطفه فامتدت يداه وقبضتا على يد سناء الناصعة الصغيرة ورفعها إلى شفتيه بينما انهمرت دموعه فرحا فبللت يدها وارتجفت سناء حين أحست بشفتيه الملتهبتين يمسان يدها وبدموعه تبرّد أثر تلك اللمسات المحرقة . وسحبت يدها فى رفق وقالت وقد اغرورقت عيناها :

— مراد . . إنى سعيدة بك . . سعيدة إلى درجة أنى أخشى على قلبى من هـذه السعادة الطاغية . . أخشى الأيام يا مراد . . فقال مراد فى ثقة وأمل :

— الأيام كلها بشر وأمل باسم . . سأفوز بك إن شاء الله ولو اضطررت إلى محاربة العالم من أجلك ومن أجل حبنا السماوى وسأنتصر . . ولن تستطيع قوة على الأرض أن تفرق بين قلبين اتحدا وتآلفا وتعاهدا على الحب .

وابتسمت سناء فى حزن لكلماته وتذكرت قول ميرفت الذى طالما رددته على مسامعها . . ألم تقل إنها لو كانت رجلاً لحاربت العالم من أجلها ؟ ! وخرجت على الرغم منها تنهدة طويلة فارتجف مراد وأفاق من نشوته وقال لها فى توسل وكأنه تذكر شيئاً :

— هل تسمحين يا سناء بتحقيق رغبة عزيزة ؟ ! فابتسمت له عيناها الصافيتان وأجابت :

— على الرحب والسعة ما دام ذلك يوسعى يا مراد . .

وإذ ذاك جثا مراد وقبل أطراف ثوبها فى خشوع وهيام ولم تشعر سناء إلاّ وقد أحاطت رأسه بيديها ونظرت إلى أصابعها البيضاء الطويلة وهى تتخلل شعره الفاحم وتذكرت الحلم ! . . ياللعجب أتتحقق الأحلام على هذا النحو ؟ ! وارتجفت يداها ونهض مراد فقالت له باسمة فى حياء وقد غضت ببصرها إلى الأرض :

— وأنا الأخرى كنت أتمنى أن أحيط رأسك العزيز بيدى وأعبث بخصلات شعرك الفاحم ! . . فاستبدت السعادة بمراد وقبض بقوة على يديها وثبت نظراته فى عينيها البديعتين وغاب عن الدنيا ونسى كل شىء إلاّ أنه فى عالم مسحور ينعم بقرب سناء وأحست هى أنها ملك له ولم تخلق إلا له وحده وتضاءل الوجود فى عينيها بجانب حبها العظيم وأمعنت التحديق فى قسماته المتناسقة ثم سألته فجأة :

— اتنحدر من أصل تركى يا مراد ؟ ! فدهش مراد ولكنه أجاب باسماً :

— كلا . . وإنما أنا مصرى قح صيغ جسمى من طمى النيل وعجن بمائه المقدس ولم أعرف أن جدّاً قديماً لى ينحدر من وطن غير مصر ! . .

فأجدادى من بنوا الأهرام وآبائى من حفروا القناة ! . .

فابتسمت سناء وقالت :

— إذن فأنت فرعون صغير !

— لا لقد مضى زمن الفراعين ! . . ولكن ما سبب هذه الاستقصاءات أكنت تحسبيننى من أصل تركى ؟ ألا ترين سحنتى السمراء . . فتأملته ملياً وقالت :

— نعم . . لست أدرى كيف غاب عنى أن ألاحظ هذا الوجه الأسمر الذى أنضجته شمس مصر .. ألا ترى معى أن البيض لم ينضجوا بعد ؟ . .

فضحك مراد بينما نظرت إليه سناء فى بعض الدهشة وأمالت رأسها إلى الوراء قليلا وأخذت تحدد النظر فى وجهه وملامحه المصرية الأصيلة وكأنما هى تراه لأول مرة . . وقالت مرة أخرى متسائلة :

— إذن فأنت لا تنتمى للأصل التركى ! !

— وهل يعنيك هذا ؟ !

— لا . . ألبتة وإنما كنت أحسب أن هذا ما جذبنى إليك . . أى أن حنين الدم هو الذى جعلنى أميل إليك وأحسب إنى كنت واهمة فى ظنى ! !

— واهمة فى ميلك إلىّ ؟ ! بالله ماذا أسمع ؟ . . سناء .. أتجدين ؟

لقد رأيتك أول مرة فأحسست إحساساً طاغياً بالميل إليك ثم بالحنين إلى طلعتك الجميلة ورأيتك مرة أخرى فتهاوت روحي تحت قدميك وأيقنت على الفور أنك الإنسانة التي أبحث عنها . . إننا خلقنا من مادة واحدة وجوهر واحد ياسناء . . كنا في السماء روحين متحابين طليقين ثم ألقت بنا المقادير إلى الدنيا وقضت بأن يبتعد كل منا عن الآخر ثم يلتقي به أخيراً فيكون اللقاء فرحة العمر وسعادة الأبد . . . لا يا سناء لست واهمة ولا أنا واهم وكان لا بد لنا فيما انتهينا إليه . .

كانت سناء تستمع إليه ذاهلة مسحورة مسبلة الأجفان وقد فاضت السعادة بقلبها وكانت لا تفتأ تنظر إلى عيني مراد السوداوين . . كان في نظراتها شيء يدفعه إلى الاستغراق في الحديث الطويل .

ولما انتهى كانت عيناها الجميلتان قد اغرورقتا بالدموع ونظر إليها مراد في وله وألم وفرح خفي غريب . . وتقدم منها واحتوى يدها بين يديه فرفعت إليه أهدابها الوطفاء فتساقطت من بينها دمعتان كبيرتان كحبتي لؤلؤ حر ! بينما انفرجت شفتاها السماويتان عن ابتسامة علوية وقالت في صوت متهدج :

— مراد . . عفواً يامالك روحي ونفسي .. لم أقصد إيذاء شعورك أو مس حبنا المقدس بقول أو إشارة وإنما الذي أقصد أني أخطأت فهم الدافع الذي جعلني أتعلق بك من أول نظرة وكنت في أول الأمر وأنا

التى لم أعرف الحب قط قبل أن أراك ، كنت أحسبه حنين الدم والأصل المشترك ولكنه كان الحب .. الحب الذى ألمحه الآن فى عينيك الغاليتين . .

أتشك فى سنائك يا مراد ؟ ! . .

ولم يحر مراد كلمة واحدة وإنما قبضت يداه على يدها البضة الناعمة فى قوة وأحس رغبة فى أن يحتويها بين ذراعيه ويدخلها إلى قلبه ولكنه تماسك وقال لها فى هيام وعبادة :

— إلى الملتقى يا سناء يا من أحببت الحياة من أجلك . .

— إلى الملتقى يا سيد قلبى ومنى روحى . . اذهب فى رعاية الله ..

وهبط مراد الدرج وكأنه يسير على الهواء والتفت إليها يتملى من طلعتها بنظرة أخيرة فوجد شفتيها القرمزيتين تفتران عن أجمل ابتسامة بينما تألقت فى عينيها الدموع ! . .

الفصل الرابع عشر

فوجيء أمين وهو فى مكتبه بالشركة بأخيه مراد وهو يندفع إلى حجرته متألق العينين طافح الوجه بالسعادة فسرّ وعجب ! . . فهذه هى المرة الأولى التى يزوره فيها مراد فى مقر عمله واستقبله مرحبا وقدم له مقعدا وقال وعيناه تتفرسان فى هيئة أخيه التى بدت غريبة في نظره !

— خيرا يا مراد ! !

فقال مراد باسما فى خجل :

— خير يا أخى . . جئت أمضي بعض الوقت معك قبل سفرى الذى قد لا أعود منه !

فازداد عجب أمين وابتسم فى قلق وحنو وقال :

— على أى حال إنى سعيد برؤيتك فقد كنت أفكر قبل مجيئك بقليل فى سفرك القريب وإن شاء الله تعود إلينا سالما .

فقال مراد فى ابتسامة امتزجت فيها السعادة باليأس :

— هذا ما أرجو . . وصمت قليلا قبل أن يرفع بصره إلى عينى أخيه قائلا :

— أمين . . هل تحبنى ؟ ! أقصد هل ترجو سعادتى ؟ !

فدهش أمين وقال متعجبا :

— ماذا تقول يا مراد ؟ وهل لك شقيق سواى ؟ إن سعادتك هى سعادتى وما يؤلمك لا شك يؤلمنى . فلمعت عينا مراد وقال فى حياء :

— إذن فأنا أريد محادثتك فى أمر هام . . أمر يتعلق بسعادتى!.

فتململ أمين فى مقعده وقد ذهبت به الأفكار كل مذهب وقال متطلعا إلى أخيه فى اهتمام وقلق :

— هات ما عندك يا مراد . . كلي آذان صاغية !

— هنا ؟! . . مستحيل هلم بنا إلى الخارج إذا أمكنك الاستئذان . .

— نعم يمكننى ولكن خبرنى أولا ما خطبك ؟!

— لا . . يجب أن تخلُص لى أولا حتى أخبرك .

فعجب أمين وأمسك بقلمه وسطر ورقة صغيرة دفع بها إلى الساعى وخرج يتبعه أخوه وقال :

— هلم فسّر لى ألغازك وأحاجيك ! . .

وخرج الشقيقان وقد وضع مراد ذراعه فى ذراع أمين وغادرا مقر الشركة إلى الشارع وسأل أمين فى حيرة :

— إلى أين تسير بى أيها الإنسان الغامض ؟!

فقال مراد على الفور :

— إلى أى مكان نستطيع أن نتحدث فيه بهدوء وحرية . .

وتوجها إلى أحد مشارب الشاى الأنيقة بشارع سليمان باشا الذي كان

قريباً منهما وجلسا فى ركن منزو ونظر أمين إلى أخيه يستحثه على الإفضاء ، فتردد مراد بعض الوقت ثم قال فى اضطراب حاول أن يغالبه :

— أمين . . لقد عثرت على ضالتى وشريكة حياتى . . وأريد أن تخطبها لى اليوم من أبيها . .

فكاد أمين يثب من وقع المفاجأة إذ كان يتوقع أن يسمع أى شىء إلا هذا ! ! وصاح :

— ماذا تقول ؟ ! ثم اندفع يقهقه حتى احمر وجه مراد وقال أمين :

— مراد الناسك يريد أن يتزوج أخيرا . يا للطرافة ! !

فقال مراد وقد احمر وجهه خجلا وألما :

— وماذا فى ذلك ؟ هل أتيت أمرا نكرا ؟ فتدارك أمين :

— لا يا أخى عفوا . . إن الذى أضحكنى هو أنى طالما ألححت عليك أنا وحسنية أن تتزوج فكنت ترفض فى إصرار فى كل مرة حتى حسبناك عازفا عن الزواج مثل فكرى أباظة ! . . ثم إنك يا أخى كنت دائما تبتعد عن النساء وتفر من طريقهن ! فمن يا ترى تلك الساحرة التى حولتك من ناسك إلى دون جوان مدنّف فى غمضة عين؟!

فقال مراد بصوت هامس خاشع وكأنه يفوه بلفظ مقدس :

— إنها سناء كاظم ! ! فبهت أمين كمن أُخذ على غرة وقال :

— من ؟ ! تقول سناء كاظم ؟ ! فأجاب مراد مطرقا فى حياء :

نعم إنها هى . . ما رأيك ؟ . . ألم أوفق فى الاختيار ؟

فأجاب أمين وهو لا يزال مأخوذاً :

— اختيار موفق ولا شك ولكن . . من أدراك أن أحدا غيرك لم يسبقك إليها ! أتظن أن فتاة بارعة الجمال مثل سناء تصل إلى هذه السن دون أن تخطب ؟ !

فأجاب مراد فى حياء شديد :

— إنها غير مخطوبة . . وقد أخبرتنى بذلك وشجعتنى على التقدم بطلب يدها ! !

فبهت أمين وفغر فاه دهشة ثم ما لبث أن ضحك وأخذ يضرب كفا بكف وصاح :

— ما شاء الله يا كابتن مراد ! تغرق فى الحب إلى أذنيك ثم تتمكن من الاتصال بمن تحب ونحن فى غفلة نحسبك أحد الزهاد ! ! لقد كنت بالأمس لا تعرف حتى اسمها ! ؟ فقال مراد :

— نعم يا أمين .. أنا نفسى لا أدرى حتى الآن كيف حدث هذا بتلك السرعة . .

كنت أعجب بها على البعد من زمن وفى لحظة واحدة تبدل كل شىء ولم أكن أدرى أن تجاوباً روحياً متصل بيننا وأنها هى الأخرى كانت تعجب بى على البعد دون أن تدرى شيئا عن حقيقة شعورها

نحوى حتى التقينا صباح اليوم التالى دون أن أعرف كيف حدث هذا اللقاء . . كانت يد القدر تدفعنى دفعا . . وبالاختصار إنى أحب سناء كاظم بمجامع نفسى وأريد أن أتزوجها فما رأيك ؟

فسكت أمين واكتسب وجهه سيماء الجد وقال متفكراً :

— على أى حال لقد قطعنا نصف المرحلة وهى رضاء الفتاة . . بقى أن نتقدم إلى والدها لنخطبها . . فسارع مراد فى لهفة يقول :

— ولهذا السبب جئتك الآن كى تتوجه معى إلى والدها لتخطبها لى !

فقال أمين باسما فى إشفاق :

— يا له من حب صاعق ! رويدك أيها العاشق الولهان وسنسوى كل شىء .

فقال مراد مبتهلا :

— وهل نسيت أنى مسافر صباح غد ولا بد من الانتهاء من كل شىء اليوم ؟ !

— حقا ؟ ! هلم بنا إذن . . .

وقال مراد وهو يسير إلى جانب أخيه فى نشاط وخفة :

— إن جاراج والدها يقع فى شارع فاروق ولكنى لا أعرف مكانه بالضبط ويمكننا الاهتداء إليه بالسؤال . فابتسم أمين وقال :

— لا تشغل بالك فأنا أعرف مكان الجاراج لأنى من زبائنه . .

فبرقت عينا مراد سروراً وكأنما وجد فى هذه الصلة البسيطة مايفتح أمامه باب الأمل على مصراعيه ! . .

وكأنما تذكر أمين شيئاً وهو سائر فقال لأخيه :

— ترى ماذا يكون موقف والدنا ؟ ألا نأخذ رأيه قبل أن نقدم على شىء ؟ . .

فوجم مراد وكان هذا الأمر لم يخطر له على بال قط ثم قال :

— نعم . . لا شك أنه سيتألم إذا علم أنى أقدمت على خطوة كهذه دون مشورته أو علمه . . . فقال أمين :

— إذن ألا ترى أن نتريث حتى نخبره ؟ فقال مراد فى يأس :

— ولكنك ترى الوقت ضيقاً لا يتسع لهذا . . ثم من يدرى ؟ قد لا أعود ثانية ! فنظر إليه أمين بعتاب وحنان وقال :

— بالله يا مراد لا تذكر هذا القول مرة أخرى . .

— إذن ماذا ترى ؟ على أى حال أنت بالطبع تذكر قصة زواجك فقد اخترت زوجتك و بعد ذلك جاءت موافقة والدها . . هلم بنا . .

ولم يمض كبير وقت حتى كان الأخوان قد بلغا الجاراج وفى اللحظة التى هما فيها بالدخول كان كاظم أفندى يودع شخصاً فخم المظهر ما لبث أن استقل سيارة فاخرة وانطلق بها . .

واستقبلهم كاظم أفندى مرحباً فى أدب كعادته ودعاهما إلى الدخول

وقد حسب لأول وهلة أنهما حضرا بخصوص سيارة أمين التى أصلحها منذ بضعة أيام ! . . ولم يكن يعرف مراداً فقدمه أمين بقوله :

— مراد شقيقى . . ضابط بسلاح المدفعية . .

فنظر كاظم أفندى إلى مراد بسرور وقال :

— مرحباً . . حصلت لنا البركات أفندم ! . . وأعقب مراد فى ارتباك وأدب :

— إني أنا الذى تشرفت بكم يا سيدى الكريم . . وقال أمين :

— أريد أن أحادثك فى أمر هام وإن كنت أرى أننا أخطأنا اختيار الوقت والمكان ! . . فقال كاظم أفندى ببساطة :

— تحت أمركما . . تفضل ليست ثمة أى كلفة بيننا . .

وتقدمهم إلى المكتب الصغير وجلس أمين بينما جلس مراد أمامه فى نفس المقعد الذى جلس عليه سالم بك منذ قليل حين حضر يفاتح كاظم أفندى فى شأن خطبة سناء !

وكاد كاظم أفندى يحدس سبب الزيارة . .

وتريث أمين قليلا ثم اتخذ وجهه سمة الجد وقال بصوت متزن :

— لقد حضرنا لأمر هام ونحسب أننا لن نعود بخفى حنين إن شاء الله !

— إنى على استعداد يا أمين أفندى لإجابة ما تطلبان مادام هذا فى إمكانى . . فبدا على أمين الارتياح وقال :

— حسنا . . فلعل الله يوفقنا فيما حضرنا بشأنه . . ثم اعتدل فى مجلسه وكان مراد فى مكانه هادئاً فى الظاهر ولكن ثورة كانت تجيش فى صدره ، وكان محتبس الأنفاس وقد تعلقت عيناه بشفتى كاظم أفندى وتسارعت دقات قلبه حين سمع أمين يقول :

— إن أخي مراد قد سمع بما تتحلى به كريمتكم من حميد السجايا وكريم الأخلاق فرغب إلىّ أن أخطبها له منكم فماذا ترون ؟ ! . .

وأطرق كاظم أفندى ملياً بينما غاض قلب مراد إلى قدميه . .

كان كاظم أفندى قد اتفق مع سالم بك قبيل حضورهما على تحديد يوم الخطوبة فهل يستطيع أن يعدل الآن ؟ ! وخاصة بعد موافقة سناء على الزواج من سالم بك ؟ ! ورفع رأسه وقد ظهر على محياه الأسف مما جعل جذوة الأمل المتقدة فى قلب مراد تخبو ثم تنطفىء قبل أن يفتح فمه ويقول :

— والله يا أمين أفندى كان يشرفنى ذلك ولاشك ، لولا أن ابنتى مخطوبة ! . .

وأحس مراد كأن خنجراً يغوص فى قلبه حتى آخره وهتف بصوت متحشرج كالطائر الذبيح :

— مخطوبة ! . . منذ متى ؟ فنظر إليه كاظم أفندى بحدة وقال فى نبرة لا تخلو من عطف :

— منذ شهر تقريباً ! ! ويؤسفنى يا بنى أن أبلغك هذا . . عسى

الله أن يوفقك إلى خير منها . . وارتجف مراد ونظر إليه غير مصدق ثم قال بصوت مفعم بالمرارة واليأس وكأنه يهذى :

— ليس فى الوجود بأسره فتاة خير منها .. ولا داعى للحياة بالمرة.. سأعود غدا إلى السلوم وسأحاول أن أسقط الطائرات برصاص مسدسى لعل واحدة تجود بقنبلة ترسل بى إلى العالم الآخر وتريحنى من هذا العالم الظالم الجائر ! ! هيا بنا يا أمين . . وداعاً ياسيدى وشكراً . وأحس أمين بقلبه يتمزق حزناً على أخيه وحيا كاظم أفندى فى صمت وسار إلى جانب مراد وخلفا كاظم أفندى مشدوهاً في مكتبه الصغير !

كان مراد يحدث نفسه بصوت مرتفع وهو يسير : محال . . محال ! إنه يكذب ليست مخطوبة وإلا لأخبرتنى . . إنها لى . . إنها لى . . سحقاً لهم ! . . وكأنما فطن إلى سلوكه الشاذ فسكت وسار وهو يحس بقلبه ينزّ دماً ونفسه تسيل أسى وألماً وأظلمت الدنيا فى وجهه وشعر بأن الحياة لا طعم لها ولا معنى !

وفضل أمين أن يستقلا تاكسياً يعود بمراد إلى البيت ثم يحمله إلى مكتبه وكان يحس بالألم يعصر قلبه وهو يرى مراد يسير مترنحاً كأنما تلقى ضربة شديدة على أم رأسه . .

وهدأت نفس مراد قليلا حين اتخذ مكانه فى التاكسى بجانب أخيه وطالعه وجه سناء المضىء الساحر وهى تبتسم له وعيناها الجميلتان

obeikandi.com

تتألقان بالدموع . . فلم يستطع حبس مشاعره الثائرة ففاضت عواطفه إلى عينيه وتساقطت دموعاً غزيرة على وجنتيه وكان أمين فى حزنه على أخيه يلقى نظرات شاردة من نافذة السيارة فلم ير دموعه . .

وتمالك مراد مشاعره وأخذ يلوم نفسه على هذا الضعف ، وحاول أن يفكر فى موقفه على ضوء العقل وهو يسائل نفسه :

— إذا كانت مخطوبة فلم لم تخبرنى ؟ تراها خطبت دون علمها ؟ يجوز . . فأسرتها تركية محافظة لا تعترف للفتاة برأى . .

ولكن . . هذا غير معقول فسناء وحيدة أبويها وهما يحبانها الحب كله ولا يمكن أن يتصرفا معها على هذا النحو الجائر . .

إذن تراها خطبت لشخص لا ترغبه ؟ واستبعد أيضاً هذا الخاطر !! إذن فماذا يكون الأمر ؟ ؟ وحار فى أمره ولم يستطع الاهتداء إلى تفسير معقول . . إن سناء ليست بالفتاة العابثة اللعوب حتى تمثل معه هذا الدور العنيف وتغرر بقلبه الساذج ! . .

سناء . . تلك الوردة النقية كندى الفجر . . معاذ الله أن تكون كاذبة فيما أظهرت نحوه . . لله ما كان أعظم سعادته بقربها وهو يستمع إلى صوتها الموسيقى يهمس باسمه . . حسبه من الحياة هذه اللحظات القدسية القصيرة . . حسبه تلك البسمة السماوية التى ودعته بها . . وليكن بعد ذلك ما يكون . . إنه لا يعبأ بأى شىء فقد نال فوق

obeikandl.com

مما كان يتمنى وإذا قضى الله بالموت فى الميدان فلا شك أنه سيموت سعيدا بأداء واجبه سعيداً بأن أمضى اللحظات التى كان يحلم بها مع سناء العزيزة المعبودة .. واطمأنت نفسه إلى هذه الخواطر .. وفجأة تململ قلبه فى صدره كأنما هو يفيق من حلم مزعج ! وقال معاتباً : ماذا يامراد أتتخلى عن سناء ؟ تلك التى أحبتك ولم تعرف فتى سواك .. سناء التى منحتك قلبها البكر ووعدتك أن تقف حياتها لإسعادك ! .. ماذا دهاك يا مراد ؟ !

أهى رخيصة عندك إلى هذا الحد ؟ !

أين وعودك وأقسامك بين يديها ؟ ألم تقل إنك ستحارب وتغزو من أجلها ؟ ! أهكذا تتبدد الوعود وتضيع الأقسام هباء كأن لم تكن ؟!

لا يا مراد .. إنى أنكرك فلست أعرف مراداً غادراً حانثاً بوعوده وإنما أعرفه دائما وفياً مخلصا مثاليا !

واحمر وجهه وأطرق طويلا ..

وكانت السيارة قد بلغت منزل أمين فوقفت ونزل مراد وودعه أخوه وطلب إليه مبتهلا أن يترفق بنفسه وألا يترك المنزل حتى يعود .. ثم مضى فى طريقه إلى عمله ..

الفصل الخامس عشر

أوقف كاظم أفندى سيارته الصغيرة بباب منزله ثم ترجل وسارت السيارة عائدة إلى الجاراج . .

وصعد كاظم أفندى بخطوات ثقيلة إلى شقته وأحسّ كأن يداً قوية تعصر قلبه بشدة . . وبلغ باب الشقة وفتحه ودخل فاستقبلته زوجه باسمة وخلعت عنه جاكتته فاستلقى على مقعد مريح قريب ، ولم تكن هذه عادته طوال السنوات التى قضاها مع جيهان هانم !

كان بمجرد أن يدخل إذا لم تستقبله سناء يسأل عنها بلهفة . . ولكنه فى هذه المرة لم يسأل . وسألت زوجه بقلق :

— أمتعب أنت ؟ أم أن أمرا ذا بال يشغلك ؟

فأطرق كاظم أفندى ولم يجب فمدت جيهان هانم يدها وربتت على جبينه برفق . ودخلت سناء وكانت مشغولة القلب والفكر بحبها عن ترقب ميعاد أوبة أبيها ، وهرعت إليه وقد هالها شحوب وجهه ولم يخطر ببالها قط أن مراداً قد يذهب إليه فى الجاراج ليفاتحه فى أمر زواجه منها . . واقتربت من أبيهـا وطبعت على جبينه المقطب قبلة رقيقة فاحتضنها وقبلها فى تأثر وحنان . . وندّ عن صدره تنهدة عميقة بينما كانت عيناه تحملقان فى وجه سناء ذى اللون الأرجوانى والنظرات

المتألقة وذهب به الفكر مذاهب شتى . . وساءل نفسه تراها تعلم شيئا من أمر ذلك الضابط الذى جاء يخطبها اليوم ؟! واستبعد هذا الخاطر ولكن مخاوفه عادت حين تذكر أن الضابط يقيم على قيد خطوات من المنزل ولا يبعد أن يكون قابلها أو . . حدث بينهما شيء ! ولكنه طرد هذا الخاطر بشدة من ذهنه فثقته فى وحيدته لا حدّ لها . . ثم أن سناء قد ارتضت سالم بك خطيبا لها ولم لا تكون راغبة وفى أبهته والمعيشة الفخمة التى سوف يوفرها لها والتى هى حلم كل فتاة فى مثل جمالها ؟!

وارتاحت نفسه لهذا الخاطر الأخير وعاد إلى طبيعته الساكنة اللطيفة واقتربت الساعة السابعة والنصف وكانت سناء لا تنفك تحدد النظر إلى ساعتها مرة وإلى ساعة الحائط مرات ! . .

كانت تترقب قدوم مراد ! . . وكان قلبها يؤكد لها أنه سيجيء وإن كان هاتفا فى أعماقها يقول : « من يدرى ربما لم يستطع صبرا فذهب إلى الجاراج فرده والدك على أعقابه مخذولا بحجة أنك شبه مخطوبة لسالم بك صديقه الحميم ! ؟ » وارتعدت لهذا الخاطر ولكن قلبها الواجف المشوق كان يطمئنها ويؤكد لها ضرورة حضوره . .

ووقف العقرب الكبير على الدقيقة الأربعين بعد السابعة فتسارعت دقات قلب سناء ودخلت جيهان هانم تقدم إلى زوجها قدحا من الشاى وجلست إلى جواره . . ونظر كاظم أفندى إلى وجه زوجه فأحست بأنه

يريد أن يسر إليها بأمر فى نفسه فنظرت إليه باهتمام بينما قال وهو ينظر إلى سناء :

— لقد حضر اليوم سالم بك وحددنا موعداً ليوم الخطوبة . . الخميس المقبل إن شاء الله ! . . ألا يوافقك يا سناء ؟ !

فأطرقت سناء وضج قلبها بالاحتجاج وعبس وجهها قليلا بينما ضحك كاظم أفندى فى جذل وقال :

— لا تريدين التحدث فى مثل هذه الأمور . . شأنك دائماً ! لن تكبرى أبدا يا سناء . . إنه أمر مستقبلك ونحب أن تشاركينا فى بحثه ! ولم تحر سناء جواباً وتعلقت نظراتها القلقة بعقربى الساعة بعد أن أيقنت من كلام والدها أنه لم يقابل مراد . .

وابتسمت الأم وقالت معقبة على كلام زوجها :

— إن الخميس هو أنسب الأيام ولا داعى للتأجيل بعد ذلك ! . .

وإذ ذاك طرق الباب . . ياإلهى ! ! إنه هو أخيراً . .

يالدقة مواعيده ! ودق قلبها بشدة حتى حسبت دقاته ترتفع على طرقات الباب ! وكادت تجرى لتفتح لولا أنها خشيت إذا هى واجهت مراد أن يكتشف ما بينهما . . وقامت جيهان هانم لتفتح الباب وارتفع صوتها وهى ترحب بشكرية هانم شقيقة زوجها الصغرى ! وامتقع وجه سناء حتى حاكى وجوه الأموات . . . وتسارعت أنفاسها ونظرت إلى

ساعة معصمها بعصبية فوجدت العقرب الكبير يعدو مسرعا نحو الثامنة !

وصافحت سناء عمتها وهى تتكلف الابتسام تكلفا واستبد بها القلق فنظرت إلى ساعة الحائط مرة أخرى وهى التى لم تكد تمضى ثانيتان على النظر فى ساعة يدها ! ودخلت إلى غرفتها ووقفت فى الشرفة تفرج عن نفسها الحائرة المشتتة ببعض نسمات الليل الباردة المنعشة ولمحت شخصاً طويل القامة لم تشك أنه مراد يغادر شرفة أمين ! وعرفته حين توسط الحجرة و بدت جبهته العريضة فى الضوء . . فعجبت وأحنقها مسلكه . . أيكون موعده قد أزف من زمن وهو على قيد خطوات بل أمتار من المنزل ؟ ! واستمرت فى وقفتها وهى تود لو عاد ثانية إلى الشرفة لعله يلمحها و يتذكر ! إذا كان قد نسى ! ؟ ترى هل نسى حقيقة ؟ ! إنها تكون مهزلة . . بل مأساة ! !

وطردت من رأسها هذه الفكرة وعاد القلب ينتحل لحبيبه المعاذير وعادت عيناها إلى التطلع إلى ساعتها . . . ولكن حدث أن غادر مراد الغرفة واختفى عن ناظريها فانتقلت نظراتها بحركة غريزية إلى باب المنزل و إذا بمراد ينزل إلى الشارع و يسير متجها إلى منزلهم ! . .

واستخفها الطرب وكادت تقفز من مكانها . . واقترب مراد بخطواته البطيئة من المنزل ثم تعداه وسار فى طريقه ولم يحاول حتى مجرد التفضل على شرفتها بنظرة ! . .

وبهتت سناء فى وقفتها وكادت من فرط ذهولها تسقط وفركت عينيها غير مصدقة . . مراد ! ؟ ماذا دهاه ؟ ! ألم يعدها أن يحضر لمقابلة والدها قبل سفره ؟ ألم ينبئها أنها مسألة حياة لقلبه ؟ !

وغلب الحزن دهشتها وأحست بقلبها يبكى وينتحب فأطرقت وسارت إلى فراشها وهوت عليه وكأنها إنسانة استلت منها الحياة فى لحظة واحدة ! وغامت نظراتها ولم تستطع لما شاهدت تفسيراً . . وتمالكت نفسها وتقدمت بخطى حاولت أن تجعلها ثابتة من غرفة الاستقبال حيث كانت عمتها . . وكانت تحب شكرية هانم أكثر من عمتها الكبرى وشملت العمة الحسناء وجه ابنة أخيها بنظرة فاحصة ثم سألت :

— مالك بهذا الشحوب ياحبيبتى ! . هل أنت مريضة ؟ !

فأجابت سناء فى إعياء :

— كلا ياعمتى . . فقط إنى فى حاجة إلى الراحة . . فقالت العمة مشفقة :

— ولكن اليوم الخميس . . وهو يوم عطلة ألم تنالى قسطك من الراحة ؟ ! فقالت جيهان هانم فى حنان وهى تنظر إلى سناء :

— لابد أنك أسرفت فى القراءة كعادتك . . إنك لم تغادرى المنزل اليوم . .

وقالت شكرية هانم وهى ترمق ابنة أخيها بنظرة عطف وحنان :

— يحسن أن تبادرى إلى فراشك لإراحة جسدك وأعصابك !..

فنظرت إليها سناء نظرة شكر وامتنان فقد كان هـذا عين ماتريد وقامت تسير إلى غرفتها بعد أن حيَّت والدتها . .

ودخلت وأغلقت الباب . . ووقع بصرها صدفة على صورتها فى المرآة وهالها الشحوب البادى فى وجهها وانكسار نظراتها ، ولم تكن تظن أن تخلف مراد عن الحضور سيفعل بها كل هذا ! وطالعتها فى المرآة الحلية التى زينت بها جيدها . . من أجله ! . . من أجل مراد . . ذلك الغادر ولامت نفسها : معاذ الله أن تكون غادراً ياحبيبى . . إن من له عيناك الصافيتان وجبينك المنبسط العالى لا يمكن أن يكون غادراً . . لابد أن فى الأمر شيئاً لا أدريه ! . . أمراً هاماً عاقه عن الحضور ! آه لو أنها استطاعت مقابلته والاستفسار منه عن سبب تخلّفه ! ؟ ولكنها أيقنت أن هذا أمر مستحيل وسمعت طرقات خفيفة . على باب الغرفة . فارتجفت وقامت تفتح فإذا بوالدتها تحمل إليها عشاء خفيفاً فشكرتها سناء ووضعت الطعام على النضد الصغير ولم تستطع أن تتناول منه شيئاً وأخذت تسير فى الغرفة جيئة وذهاباً . .

وودت لو أنها استطاعت تعليل تخلف مراد عن الحضور فلم تهتد إلى تعليل معقول يقبله قلبها الجزع . . ولم يحتمل القلب الغض كل هذه

obeikandl.com

الهموم فارتمت على فراشها مجهدة وتنهدت كأنما لتنفس عن قلبها بعض ما يهمه ويضنيه وأرادت أن تشغل فكرها بشىء فقامت إلى مكتبتها وانتقت كتاباً يحوى أشعاراً وجدانية لموسيه وما لبثت أن استغرقت فى القراءة وإذا بها تلتهم الكلمات التهاماً وكأنها تقرأ فى ديوان ابن زيدون! وإذا بنفسها الظامئة تشرب المعانى شرباً كأنما هى تريد الارتواء !

وكانت الدموع تجرى على خديها الناصعين طوال قراءتها ومالبثت أن ألقت الكتاب جانبا واسترسلت فى البكاء !

وكان الله رحيما بها فبسط الكرى سلطانه عليها فنامت نوما مضطرباً وكانت تهذى طواله باسم مراد .

obeikandl.com

الفصل السادس عشر

صاح سعيد بعصبية وهو لا يتمالك نفسه من الغيظ :

— كيف ؟ ! أنا لا أصدق ما تقولين !

فقالت والدته منكرة :

— إذن فأنا أكذب عليك ! . . أليس هذا ما تعنيه ؟ !

فقال سعيد مستدركا :

— عفواً يا أماه فلم أقصد هذا . . وإنما الأمر يبدو فى عينى شاذا غريبا ! سناء تتزوج سالم نصر ؟ ! يا للعجب . . كأننا نعيش فى عصر الأعاجيب . .

فقالت أمه :

— ولكنه ثرى سوف يوفر لها ما لا يستطيع أى شاب أن يوفره لها . . فقال سعيد متهكما :

— لا شك أنها ستكون أسعد الناس بالخمسين عاما التى يحملها على كتفيه !

فقالت خديجة هانم مصممة :

— إنه لم يتعد الخامسة والأربعين . . ثم لا تنس أن النعمة تضفى على صاحبها رونقا وشبابا ! فقال سعيد مهتاجا :

obeikandl.com

— بالله يا والدتى لا تحاولى انتحال المعاذير للغلطة الشنيعة التى وقع فيها خالى وزوجه . . فقالت خديجة هانم فى لوم :

— لا تقل هذا عن خالك يا سعيد . . إنه أكد لى أن سناء وافقت على خطبتها من سالم بك . فقال سعيد فى عصبية :

— نعم هى وافقت . . ولكن أمام ضغط والدها وتوسلات أمها ! ؟ وأنا أعرف سناء . . أضعف ما تكون أمام والديها ! . فبادرته أمه قائلة :

— إن العكس هو الصحيح ! إن كاظم وجيهان هما أضعف ما يكونان أمام سناء . . ولا يستطيعان لو أنها رفضت أن يرغماها على القبول . . وأنا أعرف صلابة رأس ابنة أخى ! . .

فقال سعيد فى سخط وهو غير مقتنع :

— كفى يا والدتى بالله . . لنترك هذا الحديث فإن أعصابى تثور للخوض فيه . . فقالت خديجة هانم باسمة فى خبث :

— وما يحنقك أنت ؟ ! كلنا يغبط سناء على هذه الخطبة الموفقة . . .

فاحمر وجه سعيد وقال فى سخرية وغيظ كظيم :

— نعم يحق لنا أن نغبط شبابها الغض وهو يزف إلى كهل فى الخمسين : وكادت الدموع تطفر من عينيه لدى هذا القول . .

فسكتت خديجة هانم وغادرت الغرفة وتركت سعيد يروح ويجيء فيها ! . .

كان سعيد رفيق طفولة سناء ، وكان قبل أشهر يحبها كأخت له . . غير أنه أحسّ أخيرا أن نظراته إليها لم تعد نظرة شاب إلى أخته ! وصار يحس بشوق بالغ إلى رؤيتها كلما غابت عنه بضعة أيام . . حتى صار يذهب إلى بيت خاله كل يوم بغية التمتع بمشاهدة سناء والتملى من طلعتها الساحرة . .

وزفر زفرة قوية ولوح بيده متوعدا ! وكان الذى يحنقه ويؤلمه أنه لم يتخرج بعد من كليته وإلاّ لتقدم للزواج منها ولفاز بها رغم كل شيء ! حتى لو اقتضى الأمر أن يخطفها ويفر بها إلى أى مكان فى الأرض الواسعة ! واستمع إلى هاتف قلبه يقول :

— ماذا عليك لو كنت خطبتها وانتظرت بضعة اشهر حتى تتخرج وتشغل منصبا فى إحدى المصالح أو الشركات ؟

وكان سعيد يحب خاله الوحيد كاظم افندى ويحترمه ولولا التهيب الذى يداخله كلما جلس إليه لذهب من فوره إليه وبسط احتجاجه على زواج سناء من ذلك الثرى المتصابى المدعو سالم نصر . ولطلب إليه يدها منه ! وقال عقله فى اتزان وتؤدة !

— ومن يدريك أنها غير راغبة فى الزواج من سالم بك ؟ ! إن المال ياصديقى يبهر عينى كل فتاة فى هذه الأيام ! . . وماذا يكون الشباب بجانب المال . . الذي يشترى كل شيء فى هذه الأيام حتى الشباب !

وسكت على مضض وود لو استطاع الوقوف على رأى سناء التى يعلم أنهـا فتاة لا كالفتيات رفيعة النفس مثالية الأفكار ، وصمم على انتهاز أول فرصة لسؤالها فى أمر هذا الزواج الشاذ . . ربما يكون هناك أمل . . واطمأن حين بلغ تفكيره هذا الحد وغادر المنزل واستقل سيارته مسرعا إلى كابيته . .

* * *

كانت ليلى واقفة فى سيارة أبيها تعبث بجهاز التنبيه بينما أخذت حسنية تساعد مراد فى جمع حاجياته وترتيبها فى الحقيبة استعداداً للسفر . . ووضعت بين الحاجيات علبـة كبيرة من الحلوى التى صنعتها بيدها خصيصاً له ونظر إليها مراد فى امتنان بينما دخل أمين يهيب بهما إلى الإسراع وهو ينظر إلى ساعته . .

وانتهت حسنية من إقفال الحقيبة فحملها أمين وسبق مراد إلى النزول بينما وقف مراد يودع زوج أخيه ولم يتمالك عبراته حين قبلته حسنية وهى تدعو له بسلامة العودة . . أما ليلى فلم تشأ أن تتخلى عن عنق عمها حتى أكدت لها والدتها أنها سيعود حالا ! . .

وشيع مراد الشرفة التى شهدت مولد حبه الشقى بنظرات حزينة وجلس إلى جانب أخيه وجذب إليه باب السيارة ولاح بيده لحسنية وليلى وانطلقت السيارة .

واقتربت من بيت كاظم افندى فهدأ أمين السرعة مجاملة لأخيه حتى لقد كاد يقف بها إلى باب المنزل ! ! فقال مراد وقد لمعت عيناه ببريق خاطف وكأنما طرأت على ذهنه فكرة عزم على تنفيذها . .

— حسناً فعلت يا أمين ! والله لأتزودن منها بنظرة قبل سفرى تلك التى لم ولن أحب سواها . . فقد لا أعود مرة أخرى ! . .

وفتح الباب وقفز من السيارة قبل أن تقف وأمين فى دهشة بالغة وصعد مراد الدرج وثباً وكأنما هو يصعد درجات منزله ! وضغط الجرس ولم يستطع — وإن حاول — أن يمسك قلبه عن الخفقان . .

وسمع وقع خطوات رشيقة يعرفها وفتحت سناء الباب فأذهلها أن وجدت مراداً أمامها بلحمه ودمه . .

وراعه منها الشحوب البادى فى محياها العزيز وهتفت سناء فى صوت مرتعش . .

— مراد ! ! أخيراً ! ؟ فقال مراد بصوت يقطر أسى وهياماً :

— نعم مراد ياسناء .. أيظن والدك أن يستطيع أن يحرمنى منك ؟ لقد جئت أودعك الوداع الأخير بعد أن رفض والدك يدى وقرر أن يمنحك لذلك الموعود خطيبك ! . . لم لم تخبرينى يا سناء ؟ ! فهلعت سناء وكاد قلبها ينخلع لما يسمع ولامت نفسها فى قسوة على سوء ظنها بمراد وقالت :

. . — خطيبي ! من هو ؟ ! سالم بك نصر ! . . إن هذا والله لن يكون ! !

— سالم بك نصر هو خطيبك ؟ ! من سالم بك هذا ؟ ! أنا لا أعرفه ولكن على أى حال هو « بك » . . وقد أدركت الآن سبب تفضيله ! فنظرت إليه سناء معاتبة وقد احمر وجهها وتسارعت أنفاسها انفعالا وقالت :

— لا تقل هذا يا مراد . . لست سلعة أباع وأشترى . . لقد تقدم سالم بك نصر لخطبتى من والدى من زمن . . وحتى الآن لم يتم شىء فى الموضوع وإنما أنت الذى اخترت ولن يحول بيننا سوى الموت . . أسامع أنت ؟! فلم يتمالك مراد نفسه وصاح وقد فاضت من عينيه الدموع :

— وقاك الله السوء يا ملاكى . . إن قوة على الأرض لن تستطيع التفريق بيننا مهما بلغت هذه القوة ! فقالت سناء معاتبة فى سخرية رقيقة :

— إذن لماذا يئست بهذه السرعة ؟ هل أسأت الظن بسنائك ؟ أم ماذا أيها البطل الهمام ؟

فأطرق مراد خجلا ونقم على نفسه سرعة ابتئاسها وقنوطها من رحمة الله الذى هو أقرب إليه من حبل الوريد . وسمع صوت خطوات تقترب فارتجفت سناء قليلا ولكنها تماسكت وطالع مراد وجه جيهان هانم المضىء فنظرت إليه فى دهشة ! ؟ . .

وكان مرتديا بذلته الرسمية ممسكا بقبعته . . وسارع مراد قائلا فى شجاعة وقد احمر وجهه خجلا وحرجا :

— لقد جئت أودع سناء قبل رحيلى إلى السلوم فربما لاأعود . . فإذا قضي الله بموتى فأرجو ياسيدتى الكريمة أن تذكرى سناء بأن تضع بضع زهرات على قبرى وسأوصى بدفنى فى القاهرة حتى أكون على مقربة منها ! ؟

وهال جيهان هانم ماتسمع وكادت تكذب أذنيها ، ورددت النظر بين سناء وذلك الضابط ذى القامة الطويلة والوجه الأسمر القسيم والذى يتحدث هذا الحديث الشاذ ! . .

وقالت أخيرا فى نبرة لم تخل من تركية متعجرفة :

— من أنت ياسيدى ؟ وما صلتك بابنتى ؟ فاشتد احمرار وجه مراد وقال :

— اطمئنى ياسيدتى . . ليس بيننا شىء يستدعى كل هذا الفزع . . لقد تقدمت لخطبة سناء صباح أمس فردنى السيد الكريم والدها مقهوراً وهو لايعلم أنه أصابنى فى الصميم وجعل حياتى وموتى سواء ! .

فقالت سناء وكأنما هى لاتحس وجود والدتها :

— لاتقل هذا يامراد . . إنك ستعود سالماً إن شاء الله وستجدنى فى انتظارك ولن أرضى بأى أحد سواك ولو وزن لى ملء الأرض ذهبا والسماوات ! !

واحمر وجه جيهان هانم خجلا وغضبا وصاحت فى هلع باللغة التركية:

— سناء ماذا دهاك ؟ هل جننت . . إنى لا أصدق ما أرى . . ياللعار . . فأجابت سناء بالعربية فى ثبات :

— ولكنه حقيقة يا أماه ! . . إن مراد يريدنى زوجا له وأنا لن أرضى بغيره زوجاً .

فقالت جيهان هانم وقد خالط صوتها بعض اللين :

— ولكنك شبه مخطوبة ياسناء والخميس القادم هو يوم إعلان الخطوبة !

فأجابت سناء فى إصرار :

— معذرة يا أماه . . لقد عاهدت نفسى أن أكون لمراد حتى الموت . أنا عند عهدي وأنتِ لم تعوديني الكذب أو إخلاف العهود !

فأسقط فى يد جيهان هانم وودّت فى تلك اللحظة لو كان زوجها حاضرا ، إذن لوضع حدا لهذه المهزلة الغريبة !

وعادت جيهان هانم تكذب نفسها قائلة :

— سناء . . هل أنت جادة ؟ ! أتكلمين والدتك بهذه اللهجة . . شكرا ياسناء . . . فلانت نظرات سناء وقالت فى رقة وتأثر :

— أنت والدتى قبل كل شيء وتهمك سعادتى ولن يرضيك أن يُقضى على ابنتك الوحيدة بالشقاء طول العمر . . .

فبلغت هذه العبارات نفس جيهان هانم الطيبة وجعلت الدمع يتألق فى عينيها الزرقاوين . . ونظرت إلى مراد الذى كان مطرقا طوال الوقت فى شىء من العطف الممزوج بالحنق وقالت :

— تفضل يامراد افندى بالدخول . . لعلنا نستطيع الوصول إلى حل ! ؟

وإذ ذاك دوّى صوت السيارة فابتسم مراد وقال :

— إنه أمين شقيقى هل تسمحين ياسيدتى بإشراكه فى الموضوع ؟

فقالت جيهان هانم :

— لا بأس فليتفضل ! بينما أوضحت سناء لوالدتها قائلة :

— إنه أمين افندى المهندس جارنا زوج حسنية كريمة فهيم بك . بابا يعرفه جيداً . . وقد كانت زميلتى فى المدرسة قبل زواجها . .

فقالت الأم موافقة :

— حسنية ! كيف لا أعرفها . . إن والدتها أعز صديقاتى . . ألم تزرنا منذ أيام ؟ . . . وهدأت نفس جيهان هانم عما قبل وصادفت هذه المعلومات هوى فى نفسها وأشبعت كبرياءها التركى !

وصعد أمين وهو فى دهشة ، ودخل إلى المنزل وحيا جيهان هانم وسناء واستقبلته الأم مرحبة وجلس الجميع فى الصالون الأنيق بينما جرت سناء فى خفة العصفور إلى الداخل لتحضر شيئاً مما يقدم للضيوف عادة . .

obeikandl.com

وقالت جيهان هانم موجهة الـكلام إلى أمين الذى أعجبها منظره المحترم الأنيق :

— كيف حال حسنية . . لعلها بخير . . فرد أمين فى أدب وسرور على مجاملتها الرقيقة . . وقد سر فى نفسه لهذه البداية !

و بعد هنيهة قالت جيهان هانم :

— هل تعرف شيئاً عن العلاقة بين مراد أفندى وابنتى سناء ؟ !

فقال أمين فى أدب :

— الحق يا سـيدتى أنى لم أ كن أعرف أى شىء حتى أمس إذ أخبرنى برغبته فى الاقتران بكريمتكم فسرنى هذا بالطبع وسارعت أخطبها له من أبيها فأخبرنى مع الأسف أنها مخطوبة وقد كاد مراد يقتله الحزن حين سمع هذا !

فقالت جيهان هانم باسمة فى ظرف :

— أهو يرغب فى الحصول عليها إلى هذه الدرجة ؟ !

فقال مراد مندفعاً :

— إن سناء هى كل ما أرجو من هذه الدنيا . .

وأقبلت سناء بوجه يتألق بشراً كأنها القمر فى تمامه ورددت نظراتها بين الوجوه الثلاثة تريد أن تستكنه أمر الحديث الذى دار بينهم ! وقدمت لضيوفها أكواب عصير الفواكه . . وعاقت جيهان هانم باسمة فى لطف وحنو بقولها :

— هذا شربات خطوبة سناء ومراد ! ! ؟ . .

ولم يستطع مراد أن يتمالك نفسه فوثب من مجلسه وفقد وقاره المصطنع وقام أمين هو الآخر يحتضنه ويقبله ولم يستطع سوى الانسياق مع طبيعته المرحة فأطلق زغرودة طويلة . .

أما سناء فقد ارتمت على صدر أمها باكية تقبلها وتشكرها . . .

وقالت جيهان هانم فى تأثر وهى تنظر إلى ابنتها :

— لقد كنت أحس فى أعماق نفسى أنك غير مستريحة لفكرة الزواج من سالم بك ولكنك لم تفصحى قط عن رغبتك فى مراد وإلا لبحثنا الأمر مع والدك . . فقالت سناء فى حياء كالحالمة :

— لم أكن أدرى يا أماه أنه يريدنى كما أريده . . بل ولم أكن أظن أنه سينظر إلىّ ذات يوم أو تعلق صورتى بخياله . . . فقال مراد :

— لك الله يا سناء . . لكأنى بى أعرفك منذ عشرات السنين . . ربما قبل أن نولد . . ألم أقل لك إن للأرواح عالمها وعلاقاتها التى لا نعرف عنها شيئاً ؟ .

فقالت جيهان هانم باسمة :

— ليس هذا وقته أيها الصغيران . . سيكون لديكما من الوقت متسع إذا ما أظلكما سقف واحد تتحدثان بأى لغة تريدان . .

وابتسمت سناء ابتسامة سعيدة ورنت إلى مراد بحنو ووله . . .

وكان قلب مراد لا يطيق السكوت بين جنبيه فقد أثملته الفرصة العاقرة ، وسمع الجميع صوت مفتاح يدور فى رتاج الباب ثم خطوات تدلف إلى الداخل و إذا بكاظم أفندى على عتبة الحجرة وهو ينظر فى دهشة و بله وكأنما يريد تفسيراً معقولا لما يشاهد . . .

وقامت زوجه إليه بينما وقفت سناء خافضة الرأس حياء وارتباكاً وكان أشد الجميع حرجا هو مراد الذى نازعته نفسه إلى الهروب من وجه كاظم أفندى لولا أنه كان يستنجد بشجاعته . . .

وقالت جيهان هانم بنبرة حاولت أن تجعلها طبيعية :

— أقدم إليك مراد أفندى الضابط . . . خطيب سناء ! . .

— ما . . ماذا ؟ ! خطيب سناء ؟ ! !

فأجابت جيهان هانم فى هدوء :

— نعم خطيب سناء . . لقد خطبها الآن و باركت حبهما . . إن سعادة ابنتى فوق كل شىء . . . فقال كاظم أفندى مستنكراً . . ومن أدراك أن سعادة سناء فى زواجها من هذا الضابط ؟ . .

فقالت جيهان هانم مبتسمة :

— انظر إلى وجهها ترى جواب سؤالك ! فنظر كاظم أفندى إلى ابنته المطرقة ولم تخف عليه سيماء السعادة والبشر الطافحة على وجهها و إن شابها بعض الاضطراب . .

وأسقط فى يده وأحسّ أنه وقع فى ورطة لا يدرى النجاة منها ونظر إلى زوجه مستنجدا ثم قال معاتبا :

— لقد حضر إلىّ أمين أفندى بالأمس وخطب سناء لأخيه فرددته بالطبع لأنك تعلمين أننا أعطينا كلمة لسالم بك . . بالله ماذا عسانا نقول له . كان يحسن الانتظار قبل البت فى مثل هذه الأمور .

فخجلت جيهان هانم من كلماته وكانت المرة الأولى فى حياتها التى يخاطبها فيها على هذا النحو ، وأحست أنها تسرعت فنظرت إليه مستغفرة وقد كادت الدموع تطفر من عينيها الجميلتين وقالت مستعطفة :

— بالله تبارك حبهما يا كاظم . . انظر إليهما . . ألا يوافق كل منهما الآخر ؟ ألا يهمك أن تسعد سناء ونفرح قريبا بأطفالها ؟ ! فتأثر كاظم أفندى ونظر إلى سناء . فإذا بها تنظر إليه محمرة الوجه فى لهفة واستعطاف كأنها تستجدى موافقته ورضاه ! .

وأطرق قليلاً ثم لوح بيديه الكبيرتين فى استسلام وقال :

— حسناً ما دمت أتأكد أنها ستكون سعيدة مستريحة فلا مانع عندى . . إنى أعرف فهيم بك والد زوج أمين أفندى وما كان ليصاهر أسرة لا يوثق من عراقتها وطيب أصلها فقال أمين فى وقار وأدب :

— إن والدى هو الحاج عبد الشافى السيد من أعيان السنبلاوين ويمكنك الاستقصاء عنه . فاحمر وجه كاظم أفندى وكان شديد الحياء وقال فى رقة وأدب جم :

obeikandi.com

— عفواً يا بنى . . لم أقصد هذا بالطبع فأنا متأكد منذ عرفتك أنك من أصل طيب . . ويكفى أدبك وتعليمك العالى . .

وقامت جيهان هانم فى خفة وأحضرت لزوجها قدحاً من عصير الفراولة وقالت بمرح :

— شربات خطوبة سناء ! فاعترض كاظم أفندى ضاحكا :

— ولكن لا بد من حفل نبتهج فيه بهذه المناسبة السعيدة .

فقال مراد فى أسف :

— إن هذه اللحظات هى أسعد لحظات حياتى وكنت أود أن أحتفل بها ولكنى مضطر إلى السفر الآن إلى السلوم وقد فاتنى القطار الأول وأخشى أن أتأخر عن موعدى وخاصة فى مثل هذه الظروف . .

وامتلأت عينا كاظم أفندى عطفاً وقال فى رقة :

— يجب أن تحافظ على نفسك واعلم أن الأمر يتعلق بحياتين لا حياة واحدة . . وإننا يا بنى جد فخورين بأن نمنح وحيدتنا لضابط يزود عن أرض مصر العزيزة . . فابتسمت سناء فى حياء وفخر وأطرقت ثم عادت تنظر إلى فتاها فى سعادة وهيام :

obeikandl.com

الفصل السابع عشر

تولت الحكم وزارة جديدة فنقل فهمي بك والد محمود مديرا للدقهلية ، وانتقل مع أسرته إلى المنصورة وبقى منزل الأسرة بالإسكندرية يمضون به فصل الصيف .

وتلقى فهمى بك عشرات التهانى على الترقية وفى مقدمتها برقية طويلة من الحاج عبد الشافى يهنىء نفسه بهذه الترقية فقد أصبح فهمى بك مديراً لمديريتهم . .

وكان محمود فى الإسماعيلية يقرأ النبأ الجديد فى جريدة المصرى ، وكان بعض زملائه قد قرأ الخبر فالتفوا به يهنئونه فرحين وتمسكوا بأن تكون نزهة الليلة على حسابه الخاص ابتهاجا بهذه المناسبة السارة . .

وقال محمود ضاحكا فى مرح :

— أنا لا أمانع أبداً فى أن يكون كل ما فى جيبى ملك لكم بشرط أن تضعوا لنا برنامجا حافلا للسهرة ! وصاح أحد الزملاء محذرا إخوانه :

— إذا كان الأمر كذلك فأحسب أننا سنقضى السهرة فى قهوة بلدى أبى جاموس !

فضحك محمود وقال مصححا :

إنك دائما تسيء الظن بي يا نظمى . . إن ما فى جيبي يزيد والله على العشرة القروش ! . . وضحك الجميع وهتف ضابط كان يجلس فى ركن بعيد :

— يا لكم من أنانيين ! أتذهبون لقضاء سهرة وتتركونا هنا نصلى نيران الطليان ؟ . . لا . . إن هذا لن يكون ! . وقال آخر :

— لا يستطيع أحد أن يزعم أن محموداً بخيل . . فهو سيجعل لكم يوماً لسهرتكم فقال محمود مبتسما فى خبث :

— أنا لا أمانع أبداً ! . .

وجاء المساء ولم يكن أمامهم سوى أربع ساعات يقضونها فى المدينة التى لم يكن بها ملاهى أو مراقص مثل القاهرة أو الإسكندرية ولكن كان بها ملهى خاص بالجالية الفرنسية يقوم فى ميدان الشماعات الخمس وهو أجمل ميادين المدينة التى تفوق فى نظامها وتناسقها أكبر مدن القطر . . وكان الدخول فى هذا النادى قاصرا على الفرنسيين المشتركين أو المدعوين من المصريين وقليلا ما يكون . . وكانت جمعية الفرنسيين الأحرار قد اتخذت هذا النادى قصراً لها . . وكثيراً ما كان الجنرال دى جول يحضر متخفياً إلى المدينة ويمضى بها بضعة أيام أو أسابيع ولعله كان يرى فى تسمية الفرنسيين لها بباريس الصغرى بعض الوجاهة ! وكان بعض الضباط من المعجبين بالجنرال يكذبون الخبر ويستبعدون حضور

obeikandi.com

شخص مثل دى جول إلى هذه المدينة الصغيرة . . فأكد محمود الخبر قائلا :

— إن أحداً لم يخبرنى ولكنى رأيته بعينى رأسى فى قصر ضيافة الشركة المسمى « ريزيرانس » وقد عرفته من قامته الفارعة وأنفه الطويل ومظاهر الاحترام والتبجيل التى كانت تحيطه وهو يغادر ذلك القصر . . وقد سمعت أنه كثيرا ما يمضى بعض الوقت فى النادى الفرنسى الذى اتخذته جماعته مقرا لها . .

وومضت فى ذهن منير أحد المتحمسين لدى جول فكرة فقال :

— ما رأيكم لو أمضينا سهرتنا الليلة فى هذا النادى لعلنا نحظى بمشاهدة الجنرال دى جول أحد الشخصيات التى سيكتب عنها التاريخ ولا شك . . فصادفت هذه الفكرة استحسانا من الجميع بلا استثناء لتعلقهم بدى جول ولكن لعلمهم أن بالنادى الكثيرات من بنات السين الرائعات الحسن يمضين الوقت فى الرقص والشراب ! . .

ولكن نظمى وهو ضابط أشقر جميل التقاطيع سمهرى القامة يبدو أن له فى عالم الغرام والحب صولات وجولات . . هز رأسه فى ارتياب وقال :

— إن حظنا يكون من السماء لو استطعنا اجتياز الحصار المضروب حول النادى لمنع المصريين من الدخول كأنما يظن هؤلاء الدخلاء أنها بلادهم وليست بلادنا . . إن الليلة حفلة خاصة بالنادى بها كثير

من المفاجآت والنمر الاستعراضية الشيقة . .

وقال محمد سليم وهو ملازم أول يبدو عليه سيماء الخشونة والقوة :

— كيف تقول هذا مع أن كرمنا هو الذى أتاح لهم إنشاء هذا النادى الذى يريدون منعنا من دخوله ؟ وقام محمود وصاح :

— لا بد لنا من الدخول وسندخل بإذن الله . .

وهتف محمد سليم الذى كان زعيما للطلبة بمدرسة العباسية الثانوية :

— مصر للمصريين ! سحقاً للدخلاء ! فردد البعض الهتاف فى قوة ، وضحك الباقون .

ولم يكد يرخى الليل سدوله حتى كانت سيارة صغيرة من سيارات الجيش المصرى تقف بباب النادى الفرنسى ، ونزل منها محمد سليم ومحمود فهمى ونظمى ومنير وكانوا جميعاً يرتدون الملابس العادية وقد بدا مظهرهم أنيقاً بقاماتهم الطويلة ووجوههم السمراء الفتية ، واضطربوا بعض الشىء حين رأوا الكثير من السيارات الفخمة واقفة بباب النادى وتنزل منها سيدة جميلة فى تؤدة ثم تسير فى اختيال وقد لمعت حليها الماسية فبهرت أعينهم ! وتقدم محمد سليم ومحمود وتبعه الباقون . .

ولم يلقيا بالاً إلى البواب الذى كان أفندياً نظيفاً حسن المظهر ؟ وخشى البواب أن يترك مكانه بالباب ويتحرك فى أثرهم فيختل النظام وقد يدخل غيرهم ممن لا يحملون تذاكر . .

وقابلوا فى دخولهم رجلا أنيقاً يبدو أنه مصرى وكان هو الموظف المنوط به إجلاس المدعوين كل إلى مائدته ، وتقدم منهم ثم ردّد بينهم نظرات الشك إذ يعلم أنه لم يُدع من المصريين سوى مساعد الحكمدار وإثنان من الأعيان وإثنان من موظفى شركة القنال . . أما الأولان فهو يعلم بل يوقن أنهما لن يلبيا الدعوة حيث لا عهد لهما بهذه الحفلات أما الآخران فكلاهما متزوج من فرنسية وهما يحاولان تقليد الفرنسيين فى كل شىء حتى أنهما لا يتكلمان العربية إلاّ لماماً . وتقدم الموظف المصرى منهم وقال :

— تذاكر يا حضرات . . من فضلكم !

فرمقه محمد سليم بنظرة ملتهبة وكان متأهبا للقائه . . متأهبا للنضال والشجار . . وقال فى حدة :

— أى تذاكر ياحضرة ؟ . .

فقال الموظف غاضبا فى تعاظم :

— تذاكر الدخول . . أن الدخول هنا بتذاكر . . تذاكر دعوة ! . .

فقال محمود ببساطة :

— إننا ضباط فى جيش جلالة الملك جئنا نمضى السهرة فى هذا النادى وليس لدينا تذاكر بالطبع . . اللهم إلاّ بطاقاتنا الشخصية ! ؟

فلم يبد على الموظف أنه تغير أو اهتم بهذه المعلومات بل زادت لهجته حدّة وغطرسة وقال :

obeikandi.com

— آسف إذ أخبركم أنكم ممنوعون من الدخول ! . .

وكان محمد يفترسه بنظراته الغاضبة فصاح به :

— ممنوعون ؟ ! ماذا ؟ إن أية قوة هنا لن تستطيع منعنا من الدخول . إن أقل واجب يقدمه إلينا ناديكم هو التسرية عنا . . عن ضباط البلد الذى يأويهم ويحميهم ويبذل لهم مالا تستطيع بلادهم أن تبذل . .

فقال الموظف ببرود وتعال :

ولكن هذا نادى خصوصى . . أقامه أصحابه كى يقضوا فيه سهراتهم بعيدا عن أعين المتطفلين . .

وكان نظمى مشغولا بالنظر إلى كتفين بديعين ناصعين كشف عنهما ثوب سهرة بديع لإحدى الحسناوات . فطرقت مسامعه كلمات الموظف الأخيرة فارتجف غضبا وصاح :

— اصمت أيها الإنسان والزم حدك وإلاّ حطمت رأسك الخاوى المحشو بالتفاهات . وأزاحه محمد عن طريقهم فى عنف ومضوا جميعا إلى إحدى الموائد القريبة من حلبة الرقص ! . .

ولحق بهم الموظف المصرى بعد قليل وقد أحضر معه شخصا آخر يبدو أنه فرنسى فقد خاطبهم بعربية ركيكة متكسرة ولهجة كلها عجرفة ، وكان الجميع قد أخلوا مائدة واستلقوا فى مقاعدهم . ونظر محمد سليم إلى هذا الرجل وقال فى حدة :

— اذهب يا خواجة . . ناد لنا الجنرال دى جول فهو وحده الذى يستطيع أن يخرجنا من هنا ! فضحك محمود وباقى الزملاء بينما احمر وجه الفرنسى وفاه ببعض عبارات سباب فرنسية التقطتها أذن نظمى الواعية اليقظى فصاح مهتاجا فى غضب :

— إنك أنت المتطفل الوقح لا نحن ! إننا فى مصر ولسنا فى فرنسا ولا أريد أن أسمع صوتك واتذهب إلى الشيطان ! ! وفاه عبارته الأخيرة بالفرنسية فاهتاج الرجل وزادت حدته وهرول لينادى المدير حتى يرى فى هؤلاء الشباب أمراً . .

وأخذ محمد سليم يتبادل مع الموظف المصرى نظرات يتطاير منها الشرر وكان يبدو أن هذا الأخير أكثر تحمسا لإخراجهم من الفرنسى ! ؟ وقال نظمى باحتقار :

— ابتعد يا هذا فإنى أحسّ أنك لست من بنى جنسنا ! الحق بصاحبك أو استدع البوليس !

فقال الموظف فى مقت وتشفى :

— سيأتيكم حالا المسيو دى لا كروا مدير النادى وهو يعرف كيف يتصرف مع أمثالكم ! !

فصاح به محمد نافد الصبر :

— قلت لك إن أحدا لا يستطيع إخراجنا سوى الجنرال دى جول

شخصيا . . أفهمت ؟ ! اغرب عن وجهى وإلاّ آذيت وجهك الصقيل وأضعت أناقتك ! فمضى الشاب وهو ينظر إليهم نظرة حنق وحقد كأنما هم قد اعتدوا على أخص حقوقه ! ! . .

وقال محمود معلقا فى مرارة :

— أعجب ما فى هـذا البلد هو طبقة موظفى شركة القنال فهم يحبون الأجانب ويتعلقون بأذيالهم وينظرون إلى إخوانهم من المصريين بازدراء واحتقار . وقد شكا لى عبدالموجود وهو ساعى فى مكاتب الشركة ومن بلدنا من أنه يعانى من عجرفة الموظفين المصريين أكثر مما يلاقى من الفرنسيين المعروفين بالعجرفة والكبرياء . . ولعل السر فى هذا هو المرتبات الضخمة الخيالية التى تمنحها الشركة لموظفيها ضناً بها أن تدخل إلى خزانة الحكومة المصرية والذى يحدث فى هذه الحالة أن الموظف يبذل مرتبه على المظاهر التافهة والملذات الوقتية ومحاولة التشبه بالأجانب فى كل شىء والسعيد منهم الذى يجد من ترضى به زوجا من الأوروبيات مهما كانت حقيرة وضيعة ، ولا يفكر يوما فى تثقيف نفسه أو بذل وقته وماله من أجل أبناء وطنه . . إن الشىء الوحيد الذى يقدمه لأبناء وطنه من المصريين هو الاحتقار والازدراء . .

وقال محمد سليم :

— لقد أخطأنا لأننا لم نلق على هـذا الشخص درسا لا ينساه طوال حياته !

فقال منـير :

— لا داعي لهذا . . لقد حضرنا لإمضاء السهرة لا للشجار !

فنظر محمد إليـه وهم بالرد لولا أن نظمى جذبه من ذراعه ولفت نظره إلى ثلاث حسناوات يختلن فى ثياب السهرة وينفثن السحر أينما سرن . . وتعلقت عينا محمود بإحداهن وتنهد وهو يتأمل شعرها الحالك وقوامها الرشيق الذى كشف ثوب السهرة عن مفاتنه ، وتذكر مديحة ابنة عمه وفتاة أحلامه ، والتى استقر عزم الأسرة على إتمام خطوبتهما قريبا . .

وبعد قليل أقبل مدير النادى وهو رجل سمين أبيض الوجه والشعر يبدو عليه المرح وكان يسير إلى جانب يسرى بك مساعد الحكمدار بالمدينة وشعر الجميع بالحرج حين تخيلوا موقفهم أمام هذا الرجل الكبير ! . . وصمم محمد سليم على العناد ولو أدّى الأمر إلى الاشتباك مع يسرى بك ! وكان يرى أن المسألة تتعلق بكرامة المصريين قبل كل شىء . . المصريين الذين يتسامحون مع الأجانب فى كل شىء حتى حريتهم بينما هؤلاء الأجانب لا يريدون التساهل فى أمر تافه كهذا . . وفهم محمود ما يجول فى ذهن صاحبه فهمس فى أذنه :

— يحسن يا محمد أن تتمالك أعصابك فليس من اللياقة ولا من الكرامة أن تشتبك مع رجل كبير مثل يسرى بك ! . .

فأطرق محمد برأسه بينما وقف الجميع حين اقترب منهم يسرى بك ومدير النادى . . وحياهم الإثنان وبدا من أول وهلة أن يسرى بك سيقف فى صفهم ! ! وإن كان يتصنع الغضب وقال :

— ما هذا يا حضرات الضباط ؟ أهكذا من ينزل ضيفا على قوم يكون أول ما يفعل أن يسبهم ؟ ! !

وكان الموظف المصرى قد اقترب ليرى ما يدور وقد بدا فى عينيه التشفى . بينما أجاب محمود فى أدب ورقة :

— لا يا عمى ! إننا لا نسب أحدا فنحن أول من يحرص على كرامة مصرنا ! . .

فالتفت يسرى بك ليرى المتكلم فإذا به يصيح حين وقوع نظره على محمود :

— محمود ! ؟ أنت هنا ؟ كيف حالك يا بنى . . منذ متى لم تزرنا ؟ ! . . أهنئك بترقية والدك وقد سرتنا جميعا . .

— شكراً يا عمى ولعلى أستطيع ردّ هذه التهنئة قريبا إن شاء الله .

وابتسم يسرى بك وربت على كتف محمود بينما طرب الباقون لهذه البداية الحسنة ! . .

وقال يسرى بك فى ود و بساطة :

— اجلسوا يا أبنائى اجلسوا . . إن المسيودى لا كروا لا يمانع أبداً

فى حضوركم السهرة . . والتفت إلى المدير وخاطبه بالفرنسية قائلا :

— أليس كذلك يا صديقى ؟ ! فقال المدير بسرعة دون أن يفقه حرفا واحدا مما يعنيه يسرى بك :

— لا شك يا سيدى . . لا شك ؟ ! ثم التفت يسرى بك إلى الموظف الذى كان يقف على مقربة منه ممتقع الوجه كظيم الغيظ وقال له :

— احضرلى كرسيا يا حسن حتى أجلس مع أبنائى ! ومضى الموظف يلبى الطلب فى فتور . .

وقال يسرى بك بعد أن جلس وحوله الضباط .

— أى قدر سعيد ساقكم إلىّ الليلة . لقد حضرت على مضض إذ أنى أضيق ذرعا بهؤلاء الفرنسيين فهم قوم مغرمون بالمظاهر كثيرو المجاملات وأنا لا أمقت شيئا مقتى المظاهر والمجاملات التافهة ! . .

فقال محمد سليم معلقا فى أدب :

— صدقت يا سعادة البك . . إنهم قوم مقيتون حقا ! !

فقهقه يسرى بك وقال :

— ولكن ليس معنى هذا أن تقذفوهم بالشتائم والسباب ! !

فقال محمد فى حماس :

— إن أول صفات المصرى الأدب والصبر ونحن يا سيدى قد التزمنا هاتين الصفتين منذ دخلنا هذا المكان . . .

وعزفت الفرقة الموسيقية بعض القطع الشهيرة لستراوس و باخ . ثم عزفت قطعة كومبارسيتا فود محمود لو كان مراد حاضراً معهم فهو يحب هذه القطعة ثم عزفت الفرقة لحنا راقصا فقام نظمى مستئذنا وتقدم فى رشاقة من غادة هيفاء كان يبادلها النظرات من مجلسه وطلب إليها السماح له بمراقصتها فأجابته إلى طلبه باسمة فأحاطها بذراعه وانغمر فى حلبة الراقصين تتبعه أعين زملائه الحاسدة الجزلة . .

وفى الوقت الذى كان محمود يستمع إلى الموسيقى و يفكر فى صديقه مراد فى مكانه البعيد ، كان مراد قد اختلى بنفسه فى خيمته وأخذ يستعيد دقائق ما حدث ساعة ودع سناء ، ولم يتمكن إلاّ من اختلاس نظرات إلى عينيها الحبيبتين وعاد يجتر ذكرياته و يستعيد ما حدث حين ذهب لمقابلتها أول مرة مدفوعا بقوة لا تدفع ليتلو بين يديها صلواته وتضرعاته . . وكيف غادرها وعلى شفتيها ابتسامة وفى عينيها الدموع . ولا يزال يحس دفء يدها بين يديه وأحسّ من الفرحة بأنه أسعد مخلوق على الأرض ولم يعد يبال المخاطر فإن قلبه الثمل فى شغل عن كل شيء عدا سناء . . سناء العزيزة . . زوجته المقبلة . وتذكر محمودا فجأة . . أنه هو الآخر قد خطب حبيبته أو كاد . . ودعا له قلبه بالسعادة .

وهكذا نجد الصديقين اللذين فرقت المسافة بين جسميهما لم تستطع أن تحول دون التقاء روحيهما المتآلفين .

opeikandi.com

الفصل الثامن عشر

عدّل سعيد ربطة عنقه أمام المرآة وابتسم راضيا عن مظهره . . وكان يداخله شعور بالتهيب لأول مرة وهو ذاهب للقاء سناء ! . . . سناء رفيقة صباه وابنة خاله . .

ودخلت والدته على الأثر ونظرت إليه فى حنان وتوسل وقالت :

— أما زلت مصراً على الخروج ؟

ولأول مرة كذب سعيد على والدته وهو يقول :

— إنه موعد هام لا سبيل إلى التخلف عنه ! . .

فقالت والدته :

— ستحضر الآن أمينة هانم زوجة عدلى بك وابنتها نارمين التى حدثتك عنها ، هلا مكثت قليلا لاستقبالهم ؟

فقال سعيد فى تبرم :

— إن موعدى أهم عندى من استقبال ضيفتيك ! . .

فقالت أمه تتوسل :

— ولكنك لم تر نارمين حتى تتحدث عنها بهذه اللهجة ؟ !

— وماذا يعنينى منها ومن رؤيتها ؟

o b e i k a n d i . c o m

— أنت تعلم أنى تحدثت مع والدتها . . وقد رحبت بفكرة خطو بتكما ! . .

وإذ ذاك لم يتمالك سعيد أعصابه وصاح فى استياء :

— ومن أدراكم أنى أريد الزواج ؟ ثم أعقب كاذبا :

— إنى خالى الذهن الآن من هذه المسألة . .

فقالت خديجة هانم فى رفق :

— بالطبع لن يكون زواج الآن . . ليس سوى خطوبة ! ولك الحرية بعد ذلك فى تحديد يوم القران ! !

وغاظ سعيد قولها ولم يجد ما يقول سوى هاتين الكلمتين أخرجهما بغيظ من بين أسنانه :

— لن أتزوج ! ونظر فى ساعته ثم خرج مهرولا ولكنه ما لبث أن عاد مسرعا إلى والدته وقبلها قائلا فى رقة :

— أرجو ألاّ أكون قد آلمتك . . فقبلته والدته بدورها وقالت فى تأثر :

— إنما هى سعادتك التى أرجو . . ألا تعلم أن عدلى بك يمتلك خمسمائة فدان من أجود الأراضى ! ؟

فقهقه سعيد وقال مداعبا وهو يدلف إلى الخارج :

— إذا حدث أن فكرت فى الزواج فأول ما أشترط أن تكون زوجتى المقبلة على فقر مدقع ! !

وهبط الدرج مسرعا وركب سيارته ومضى بها إلى بيت خاله بالروضة . . وكانت سناء فى ذلك الحين مشغولة . . مشغولة القلب والفكر . . إن مراد لم يترك لها دقيقة لتفكر فى أمر نفسها وفى شئونها العادية فقد استبد بكل فكرها ووقتها وانقلبت حياتها رأساً على عقب وأضحت إنسانة أخرى كثيرة المرح مقبلة على الحياة . . ولكن كان يمر بها لحظات اكتئاب طويلة تتمنى خلالها لو تستطيع أن تفرج عن نفسها بالبكاء ! ! . . ويكون هذا إذا مافكرت فيما يستهدف له مراد من خطر كل لحظة وودت لو كانت إلى جواره تقاسمه حياته الشاقة وتدفع عنه الخطر بروحها . . .

ولم تستطع سناء أن تنسى نظراته العابدة وهو يودعها ويملأ عينيه السوداوين من وجهها بينما كانت عيناها هى الأخرى تتمليان من الحبيب وكانت آخر كلماته لها : « سأعود ياسناء مادام قلبك يذكرنى . . »

وجلست إلى مكتبها تحاول أن تكتب له كما وعدته . . ومضى عليها فى جلستها فترة طويلة دون أن تخط حرفا ! .. بماذا تبدأ رسالتها ؟ ! بماذا تناديه ؟ « خطيبي العزيز » ! لا . . ربما يكون « زوجى العزيز » أفضل وأجمل وقعاً فى نفسه ! ولكنها ليست زوجه بعد ! ولكن لا بأس باعتبار ما سيكون ! ! ولكنها ما فتئت أن استبعدت هذه العبارة . . إذن بماذا تناديه ؟ !

« عزيزى مراد » إن هذا أوقع ولاشك وخفق قلبها فلتكتب « حبيبي مراد » ! وطرب القلب لهذه التسمية وصفق لها ولكن الحياء منعها فهى تكتب إلى رجل لأول مرة وإن كان خطيبها ! . .

وفجأة تذكرت كراسة مذكراتها . . لقد أهملتها طويلا ونظرت إلى خزانة كتبها الأنيقة وطالعها غلاف الكراسة الأزرق ينظر إليها فى عتاب ! وقامت وتناولت الكراسة بيد مرتجفة مشوقة وأخذت تقلب صفحاتها . . وكانت تبتسم وهى تقرأ ما كتبت عن ذكرياتها منذ خمس سنوات . . حين كانت فتاة غريرة لا تعرف الحياة وهل الحياة إلاّ الحب وهل الوجود إلاّ رجل وامرأة ! ! . .

وفتحت سناء صفحة بيضاء جديدة فى كراسة مذكراتها تريد أن تبدأ بها عهدها الجديد السعيد وكتبت فى أعلا الصفحة من الوسط « الأربعاء ١٢ نوفمبر سنة ١٩٤٢ » وتأهبت للكتابة فقد كان لديها الكثير الذى تريد أن تسر به إلى نفسها لا إلى مراد ! ولكنها ويا للعجب لم تستطع أن تخط كلمة واحدة ! . . واستمرت هكذا مدة غير قصيرة حتى يئست وأعادت الكراسة الأنيقة إلى مكانها مرة أخرى ! . .

ودوى صوت سيارة سعيد من الشارع فأفاقت سناء من أفكارها وأحلامها وقامت فى تثاقل تستقبل ابن عمتها ، وما كان بها رغبة سوى الانفراد فى غرفتها لا يزعجها أحد . . عجباً ! . . وهل تعوّد سعيد أن

يزعجها قبل ذلك ؟ إنه عذب الحديث مفرط الرقة معها على الخصوص . . وزجرت قلبها . . وإذ ذاك سمعت صوت سعيد يتحدث إلى أمها التى اصطحبته إلى الصالون وسمعته يسأل عنها فغادرت غرفتها وأقبلت تحيي ابن عمتها .

وصافحها سعيد خافق القلب محمر الوجه وأحسّ رجفة حين استقرت يد سناء الصغيرة فى يده الكبيرة المغطاة بالشعر الكثيف . . وعجب من نفسه ! . . كم صافح سناء قبل هذه المرة فلم تعتره هذه الرجفة . . وودّ لو استطاع أن يستبقى يدها فى يده مدة طويلة حتى ينعم بهذه الرعدة اللذيذة التى تكتنفه من رأسه إلى قدميه ! وأخذت سناء بأناقته هذه المرة أكثر من المرات السالفة رغم أنه معروف عنه الأناقه . . وكان أبرز ما لفت نظرها ربطة العنق البديعة المنسجمة مع حلته الرمادية . . ووجدت نفسها تفكر على غير وعى منها فى مراد ! وتسائل نفسها عن لون رباط عنقه حين قابلته أول مرة بعد تخرجه فهى لم تره بالملابس العادية سوى هذه المرة وربما مرة أخرى غيرها . . وتذكرت حين جاءها يعرض قلبه وحبه وكان مرتديا : حلة بنية بدا فيها قوامه أكثر طولا وكتفاه أكثر عرضا ! وإنها لتذكر أنه كان يرتدى كرافات وإن لم تتذكر لونه فقد شغلها إذ ذاك وجهه وحديثه . . واستطاعت فى النهاية أن تقنع نفسها بأن ربطة عنق مراد أكثر أناقة وانسجاماً من ربطة

سعيد ، وابتسمت لهذا الخاطر الذى ينطوى على التحيز المطلق لخطيبها !
وكان سعيد ينظر إليها ويرى أمارات السعادة والغبطة مرتسمة على محياها المشرق فيأخذه العجب ويذهب به الفكر كل مذهب . .

تُراها سعيدة بخطوبتها لسالم بك نصر .. ذلك الثرى المتصابى؟!..
لا يمكن أن يكون هذا ! ؟ . .

وعاود النظر إلى وجهها الباسم مرة ومرات وفى كل مرة كان يعاوده العجب ! !

وأخيراً : تشجع وقال مخاطباً جيهان هانم متحاشيا الاصطدام بنظرات سناء :

— أصحيح أن سناء خُطبت ؟ ! فتململت جيهان هانم واضطرب جفناها . . يا لله ! أبهذه السرعة يتسرب النبأ ؟ ولم يكد يعرفه سوى زوجها وأمين ؟ ! هل يعقل أن يصل الخبر عن طريق أمين ؟ ! واستبعدت هذا الخاطر فهى تعلم أن سعيداً لا يعرف أمين . . إذن من أخبره ؟

وأجابت بعد فترة صمت غير قصيرة حين طالعتها نظرات سعيد المتطلعة الحيية :

— نعم خطبت بالأمس ! ومن أعلمك النبأ ؟ فاضطرب سعيد وتذكر أن ماسمعه من أمه أن سناء ستخطب رسمياً بعد أيام ؟ ! إذن فقد تعجل سالم بك الموعد وسارع إلى إتمام الخطوبة حتى لا يفلت العصفور الجميل . . كأنما هو يعلم أن الكثيرين يتربصون بصيده الدسم

obeikandi.com

وأولهم سعيد ! ! ياله من رجل بارع ! إذن هذا هو سر السعادة الطافحة على وجهها بأجلى صورها ؟ ! يا إلهى هل يعقل هـذا ؟ ! لقد صدقت أمه . . إن كل فتاة همها أن تعيش فى كنف زوج ثرى ولو كان فى الثمانين ! ! . .

وعاد سعيد يحدد النظر إلى وجه سناء غير مصدق عينيه ولا أذنيه وهتف به هاتف من أعماقه . . لا بد أن فى الأمر سراً . . إن سناء فتاة لا كالفتيات مثالية تحتقر المادة . . ولا تعترف بالثروة ميزة تميز أحداً من الناس بل هى فى نظرها وصمة تصمهم بالأنانية والعجرفة وتحجر العاطفة . . فلا يمكن إذن أن ترضى بسالم نصر لماله . . لعلها أحبته ؟ ! واحمر وجهه غيظاً وحسداً وإن لم يستبعد عقله هذا الخاطر فإن الحب أعمى كما يقولون ، ثم أنه سمع أن سالم بك وسيم فخم المظهر . . وأخيراً قال وهو يحاول أن يرسم على شفتيه ابتسامة مجاملة باهتة . . سأل وإن كان يعرف الجواب سلفاً !

— ومن الخطيب السعيد يا ترى ؟

ورمقته سناء فى جذل وحياء ونظرت إلى محياه لترى وقع اسم حبيبها فى نفسه ! بينما أجابت جيهان هانم :

— إنه الملازم مراد عبد الشافى الضابط بسلاح المدفعية ويعمل الآن بالسلوم ووالده من أثرياء الريف . . ثم تنهدت وقالت فى ابتهال :

— لعل الله أن يحفظه ويعيده إلى خطيبته وأهله سالماً . .

وضمت سناء يداً إلى أخرى ورفعت عينيها إلى أعلا مؤمنة على ابتهالات أمها فى حرارة . .

وأحس سعيد كأن ضربة قوية هوت على رأسه وحسب أن السماء ترسل صواعق لتحرق الكون ! ! وكاد يكذب أذنيه لولا أن استضاء ذهنه بغتة وأدرك سر سعادة سناء . . وبطل عجبه وزال . . إذن فهى هى سناء لم تتغير ولم تنزل عن مثلها العليا وعقائدها الرفيعة . .

وأحس سعيد بتعاسته ورأى آماله التى عاش فى نعيمها أياما تذبل وتتساقط وودّ فى تلك اللحظة لو عاد طفلا يلهو مع سناء وينعم بقربها الساعات الطوال ويمرح معها هنا وهناك لايحول بينهما حائل . كان قلبه يتمنى لو يعود طفلا يستسلم لها وهى تقوده فى اللعب وتفرض عليه سلطانها كم كانت عاطفة طاهرة جميلة إذ ذاك . . غير تلك العاطفة الجبارة المحرقة التى تأكل قلبه وتضنى روحه . . . وغاضت الدماء من وجهه الوسيم وأحس غصة فى حلقه وتمتمت شفتاه اللتان صارتا بلون الشمع :

— مبروك . . ولم يشعر بأية رغبة فى المكث أكثر من ذلك ولو مجاملة ! فهب مستئذناً . .

ولأول مرة لايدعو سناء إلى الخروج معه حتى لقد أخذها العجب فلم

يحدث قبل هذه المرة أن خرج سعيد دون أن يحاول اصطحابها معه ! .

وصاحت به زوجة خاله منكرة :

— أتنصرف قبل تناول شربات خطوبة سناء ؟ فقال بحزم :

— لست خيرا من باقى أفراد الأسرة الذين لم يتشرفوا بعد بسماع النبأ السعيد . أسعدتم مساء ! . . وانفلت خارجا وخلف جيهان هانم وابنتها فى وجوم . . وما ابثت سناء أن قطعت هذا الوجوم ملوحة بيدها فى غير اكتراث وقالت :

— كنت أعلم أن أفراد الأسرة سيألمون لسماع نبأ الخطوبة لأننا لم ندع أحداً منهم . وقالت جيهان هانم متألمة :

— وأنّى لهم أن يعرفوا الظرف الذى تمت فيه الخطوبة والكيفية العجيبة الخاطفة التى انتهت بها ؟ فقالت سناء :

— سيان عندى سخطهم أو رضاهم وحسبى أنى سعيدة بخطيبى وحسبى رضاكم عنه .

وأعقبت جيهان هانم متفكرة :

— ولكن . . ألم تلحظى أن سعيدا آلمه النبأ أكثر مما ينبغى ؟ كأنما هو قد خيّب أملا كان يرجوه !

فسألت سناء فى عجب :

— لست أفهم ما تعنين يا أماه ! وماذا يهم سعيد من أمر خطوبتى ؟ !

فقالت جيهان هانم وهى تبتسم ابتسامة العارف الملم بهذه الأمور الدقيقة :

— إنه ابن عمتك وقد نشأتما معا . . هل يبعد أنه كان يأمل أن يتزوجك يوما ؟ !

فاحمر وجه سناء فى خجل داخله الاستياء وقالت :

— سعيد يتزوجنى أنا ؟ ! لست أظن هذا ، فلم تبدر من سعيد أية بادرة تنم عما تظنين . . إنى أعتبره أخا لى . . حقا إنه لم يطل الجلوس اليوم كعادته ولكن ربما يكون متألما لعدم دعوة الأسرة لحفل الخطوبة المزعوم ! أو ربما كان يريد اللحاق بموعد هام ! ؟ فطأطأت جيهان هانم رأسها فى سكون واكتسب وجهها مظهر الجد والتفكير العميق . . فتركتها سناء لأفكارها وقامت إلى غرفتها . أما سعيد فقد انطلق بسيارته فى طرقات العاصمة لا يلوى على شىء ولا يدرى أين يتوجه وكأنما القاهرة قد ضاقت به حتى لا يجد مكاناً يذهب إليه ! ؟

وسأل نفسه . . من هو مراد عبد الشافى هذا ؟ إنه لم يسمع بهذا الاسم قط فكيف تم له ما أراد فى هذه الفترة الوجيزة ؟ ! وكيف أمكنه التغلب على منافسه سالم بك نصر ؟ ! ثم هذه الخطوبة كيف تتم بهذا التكتم المريب . . لا بد أن فى الأمر سرا ! وأخذ ذهنه الهندسى يضع الفروض ويحاول إثباتها بالأدلة العقلية والمنطقية المقبولة وهو لا يعلم أن للحب والعاطفة منطقا آخر ! . .

ولمعت عيناه واحمر وجهه وقال لنفسه : لا بد أن بين هذا الخطيب وبين سناء ما جعله يكتسح كل شيء أمامه ويفوز برضى والديها فى النهاية ! . .

فكيف بالله إذن حدث الأمر ؟ وسكت يائسا واستقرت نظراته الجامدة على الطريق أمامه . .

وأدار سيارته إلى طريق الهرم وهدأ السرعة لعل نفسه تهدأ ولعل روحه الثائرة تهجع وتستقر ! . .

obeikandi.com

الفصل التاسع عشر

سارت سناء إلى جانب صديقتها ميرفت فى إحدى مشايات حديقة النادى الأهلى وكان زهدى بك والدها عضوا بارزاً فيه وكذا كانت ميرفت وكثيراً ما كانت تحضر بمفردها لتزاول رياضتها المحبوبة « التنيس » وكانت ميرفت تحاول عبثاً أن تجر سناء إلى اللعب معها ولكن الأخيرة كانت تخجل من أعين المتطلعين وتسخط على نظراتهم الصاعدة الهابطة مع نهدى كل امرأة أو آنسة تلعب التنيس ! . .

وكانت سناء تعجب لأولئك السيدات والآنسات كيف لا يخجلن من أنفسهن إزاء هذه النظرات الجريئة التى تذكرها بنظرات الشباب الذين كانوا فى الحفلة التى أقامتها عمتها خديجة هانم منذ سنوات . .

وكثيراً ما حادثت سناء صديقتها فى هذه المسألة وعجبت كيف لا تخجل من لبس الشورت والقفز هنا وهناك مع الكرة أمام جمهور أغلبه من الرجال ! فكانت ميرفت تدهش لحديثها وتضحك منها !

وجلست الصديقتان حول إحدى الموائد وعلى مقربة منهما جلست شلّة من أعضاء النادى يتوسطهم ذلك الصحفى الكبير الذى لا يكاد أحد يجهل مكانته فى مصر . ودفعت سناء برأسها الجميل

إلى الخلف وأغمضت عينيها وأخذت تستنشق العبير الجميل الذى كانت تحملة النسمات الرقيقة إليها وتركت لخواطرها العنان . . وبالطبع كان محور هذه الخواطر مراد . . إنها استطاعت بالأمس أن تخط إليه بضع كلمات لا تسمن ولا تغنى ، وهى نفسها لم تكن راضية عما كتبت ! ولكن لم يسعها إلاّ أن ترسل إليه بهذه القطرات من بحر حبها حتى لا يتألم الحبيب من تقصيرها الذى يعلم الله أن لا يد لها فيه ! !

وكان الكاتب الكبير يقص على شلته حادثة مثيرة أو ملحة طريفة لأن الجميع انفجروا على أثر انتهائه ضاحكين مهللين ، وجلس هو بينهم يضحك هو الآخر . .

كان هذا الصحفى الكبير بمثابة الدينمو للنادى فقد كان يمضى سهراته وأوقات فراغه القليلة فيه وهو يكتب عنه دائماً ويحث المسئولين على الاهتمام به ورعاية رياضييه الذين رفعوا رأس مصر عاليا فى دنيا الرياضة . .

وبدر من أحدهم وهو شاب أشقر وسيم مفتول الجسم ، نظرة فرأى سناء فى حركتها الرشيقة تدفع موجات شعرها الكستنائى الغزير إلى الخلف وتغمض عينيها فى سعادة ونشوة . . فأطال التحديق والتأمل وكأنه فى حلم جميل ! ولم يكن هذا الشاب الأشقر سوى الملازم نظمى كامل زميل محمود والذى كان يمضى بضعة أيام فى القاهرة . . وكانت

صلة قرابة وثيقة تربط بينه والصحفى الكبير الذى رأى أن يصطحبه معه إلى النادى للتسلية .

والتفت الصحفى إلى قريبه فقال باسماً فى تهكم لطيف :

— أراهن أنك تحلم ! ؟ فقال نظمى باسماً :

— أراهن أنا أن هذه الفتاة الجميلة عاشقة ! فضحك من سمع عبارته من الشلة التى كانت تتكون من بعض شباب الأسر المعروفة وضابط بوليس برتبة صاغ واثنين من موظفى وزارة الخارجية . .

وقال الصحفى الكبير مسترسلا فى تهكمه على قريبه :

— ومنذ متى تشتغل بالتنجيم يا سيد نظمى ؟ ! فقال نظمى على الفور :

— الآن . . الآن فقط ! ! والأمر على أى حال لا يحتاج إلى تنجيم كما ترى ويكفى أن تنظر وأنت الأديب البارع إلى منظر هذه الحسناء فى جلستها الحالمة وقد أضفت السعادة على محياها لونا ورديا لا يبدو إلاّ فى الوجوه السعيدة . أظن نظرة واحدة تكفى لأن ترى رأيي ! . .

ونظر الكاتب الكبير فأخذ بروعة حسنها وجمال شعرها ، وانتقلت نظراته إلى ميرفت فأعجبه منظرها هى الأخرى وكأنما عرفها فقال :

— أليست الفتاة الأخرى كريمة زهدى بك عبد السلام مستشار محكمة النقض ؟

فأجاب أحد الجلوس وكان يعرف أسرتها :

— إنها هى . . ميرفت بأناقتها الفريدة وهى تجىء هنا كثيراً لتلعب التنيس وأردف نظمى كالمسحور :

— ولعل زميلتها هى الأخرى تلعب التنيس ؟ !

فقال عادل مبتسماً .

— اطمئن يا صديقى فقد شاهدتهما معاً مرات ولم أر ساحرتك تلعب أو حتى تحاول اللعب ! . .

وقال الصحفى الكبير معلقاً :

— إن ميرفت هذه يبدو عليها قوة الشخصية ! فقال عادل :

— لقد خطبت منذ أسابيع لزميلنا هانىء عبد الحليم وهو مرشح ملحقاً سياسياً بمفوضية الدنمرك ويسعى زهدى بك والد خطيبته بماله من شخصية ونفوذ إلى تعديل التعيين حتى يكون فى بلد قريب كلبنان مثلا . .

وقال الكاتب الكبير معلقاً وهو لا يزال يتأمل ميرفت وإن كان جمال سناء الباهر قد جذب عينيه أكثر من مرة :

— أكاد أجزم أن الفتاة غير راضية عن هذه الخطة إذ يبدو لى أنها محبة للأسفار ميالة للمغامرة ! وأغلب الظن أنها تتوق إلى المعيشة فى أوروبا .

فقال عادل :

— وهل تُعد الدنمرك ضمن أوروبا ؟ ! إنها فى أقصى الأرض يغطيها الثلج معظم أيام السنة وليس بها أى شىء من روائع باريس أو فيينا أو حتى بخارست ! فقال الصحفى الكبير ملتفتاً إليه فى حدة :

— من قال ذلك ؟ لقد زرت كوبنهاجن فى الصيف الماضى ولا أعتقد أن فى العالم بلداً أكثر جمالاً ونظافة منها . . إن صاحبك مخطىء إذ ينقاد لرغبات والد خطيبته الذى يريد بالطبع أن تكون ابنته بقربه ! . .

وكان نظمى فى شغل عن الحديث بالنظر إلى سناء وهو يمنى النفس لو فتحت عينيها المغمضتين ونظرت إليه ! . . إنها لا شك ستعجب به شأنها شأن الكثيرات غيرها ممن أوقعهن نظمى فى شباكه من أول نظرة ! !

ولكنه تنهد يائساً فقد أحسّ أنها عاشقة ولا شك تفكر فى جلستها الحالمة فى حبيبها الموعود .

obeikandl.com

وكان لاعبان يتقاذفان الكرة فى ساحة التنيس الغربية ، وانتهى الشوط فخرج أحدهما وكان عريض المنكبين أميل إلى القصر ، ومد يده يرفع خصلات شعره الأشقر عن عينيه وقد تندى وجهه الوسيم بالعرق وسار متجهاً نحو الشلة وصاح نظمى حين رأى وجهه :

— سعيد ! ؟ يا للمصادفات السارة ! . .

وكان سعيد جاراً لنظمى وزميلاً له فى المرحلة الثانوية . . واندفع سعيد إلى أحضان صديقه ورفيق صباه وجلسا يتذاكران أيامهما الخوالى. وقال نظمى مستفسراً :

— ألم تنل البكالوريوس بعد ؟ . لاشك أنك انتهيت من دراستك فأنا أعلم أنك مجد . . كنت دائماً على رأس فرقتك فى الثانوى ؟ ! . .

فأطرق سعيد فى حزن وقال :

— كلا مع الأسف فهذه هى السنة النهائية . كم أندم على التحاقى بهذه الكلية . . وددت لو استمعت إلى نصح والدى والتحقت بكلية التجارة !

فدهش نظمى وقال :

— ولكنك شغوف منذ الصغر بالهندسة ، ولا شك أنك ستكون مهندساً ناجحاً . . إن الحكومة فى نزاع مستمر مع الشركات من أجل المهندسين ! فقال سعيد فى مرارة :

— وماذا يهم أن أكون مهندساً ناجحاً مادمت لا أنال ما أتمنى من الحياة !

فهال نظمى الألم والمرارة فى كلمات صديقه فقال فى ألم :

— ماذا تقول يا سعيد ؟ إنى لم أسمعك قط تتحدث بهذه النبرة الحزينة . . هل حدث شيء ؟ فأطرق سعيد إلى الأرض وحاول جاهداً حبس دموعه وتذكر سناء . . منية نفسه ، ولم يكن يعلم أنها تجلس على قيد خطوات منه . وأحس نظمى بالألم يعصر قلبه حين رأى صديقه ورفيق صباه يتألم ويحبس أمراً لاشك يضنى قلبه الفتى . . ونسى فى هذه اللحظة ساحرته ووضع يده على كتف سعيد فى مودة وقال بصوت يفيض إخلاصاً وشفقة :

— سعيد . . صديقى . . بربك أخبرنى . . ألست نظمى صديقك؟! هل تعود أحدنا أن يخفى عن الآخر شيئاً ؟ فرفع سعيد إليه عينين ظهر فيهما العذاب واليأس وقال فى مرارة :

— لو كنت التحقت بكلية التجارة ، إذن لكنت قد تخرجت من زمن ولعمل والدى على إلحاقى بإحدى الشركات الكبرى أو على الأقل لتفرغت لأعمالنا التجارية ولاستطعت حينذاك أن أحصل على . . الفتاة التى أريدها شريكة لحياتى !

فأشرق وجه نظمى وعلته ابتسامة عريضة وإن كان الحزن لم يفارق نظراته :

— إذن أنت عاشق ! ! يا لى من غبى ! . .

وكانا قد انتحيا جانباً بعيداً عن باقى الشلة التى كانت ضحكاتها تصل إلى مسامعهما وقال نظمى :

— انظر إلى هؤلاء المهرجين السعداء . . إن مذهبهم الشيوعية فى الحب ! ؟ لا يفكر أحد منهم أن يتزوج ، إنما يغتنم اللذات أينما وجدها دون أن يشغل قلبه بشىء . . فقال سعيد مستنكراً :

— وهذا الصحفى الكبير صاحب الآراء والنظريات المثالية ؟ !

فابتسم نظمى سخرية وقال :

— إن هذا الكاتب الذى تعنيه هو ابن خالتى وأنا أدرى الناس به ! إنه يؤدى رسالته بقدر ما يستطيع ويكتب مايراه صالحاً يعود بالنفع على أبناء وطنه ويجذب القراء والقارئات وهن كثيرات كما تعلم ! وأنت تعلم أنه واسع الاطلاع كثير الأسفار والمغامرات ففى جعبته كثير من التجارب والطرائف يعرضها على صفحات مجلته وينتزع بها إعجاب الكل على السواء :

وأذهلت سعيد هذه المعلومات التى يسمعها لأول مرة واستبد به العجب وقال :

— إذن فهو يقول مالا يعتقد ولا يؤمن بما يكتب .

فقال نظمى وكأنه أستاذ يخاطب تلميذاً ساذجا ! :

إن ما يكتب للناس لا علاقة له بمعتقداته الخاصة التى يحتفظ بها

لنفسه ويرى أنها لا تهم أحداً سواه ! . ولنتخذ هذا الممثل الكبير (د) مثلا . قل لى رأيك فى أفلامه ومسرحياته التى يؤلفها ويخرجها بنفسه .. ماذا ترى فيها ؟ . . إنه ينتصر للطبقات الفقيرة دائما وينال من الطبقة الموسرة ويرميها بكل نقيصة وكأنما الأخلاق العالية أودعها الله بين جنوب الفقراء والمعوزين وحرمها الأغنياء والموسرين ؟ ! مع أن العكس قد يكون هو الصحيح فى معظم الأحيان فالفقر والعوز كثيراً ما يكونان دافعاً للسرقة وارتكاب الجرائم كما أن الفقير لا يتاح له ما يتاح للغنى من تعليم وثقافة إلا إذا كان التعليم والثقافة يؤديان إلى الفساد وهذا ما لا أوافق السيد (د) عليه ! !

وسكت نظمي قليلا ريثما يلفظ أنفاسه ثم قال :

— هل شاهدت الفيلم الأخير لهذا الممثل ؟ لقد كان يبدو فيه رث الثياب زرى الهيئة معدماً لا يكاد يُسكت صيحات معدته الخاوية بينما هو يتشدق طوال الفيلم بكلمات الكرامة والشرف والنزاهة ويكيل الشتائم والسباب للطبقات العالية والثرية ! !

ولا أحد ينكر تأثير أفلام هذا الممثل الشهير فى جمهورنا ومعظمه من الفقراء والسذج ولكن .. هل تعلم شيئاً عن حياة هذا الممثل الخاصة ؟!

فأجاب سعيد وقد شغله حديث صاحبه عن همومه :

— كلا بالطبع ! فقال نظمى فى سخرية :

— إنه ياصديقي يعيش في قصره كالمهراجا ينفق المال بغير حساب ويقتني السيارات الفخمة بآلاف الجنيهات ويضيع على موائد القمار مئات الجنيهات كل ليلة ! . . وكل هذه الأموال استنزفها من دماء الشعب الفقير المسكين الذي يلقي إليه بتفاهات وكلمات مبتذلة لا يفتأ يكررها ويعيدها في كل أفلامه ! . . ولا تكاد تمر على هذا الممثل ليلة دون أن يكرع من الخمر عدة زجاجات قد يعود بعدها محمولا على الأكتاف.. تماماً مثل صديقنا الصحفي الكبير الذي سوّد الصفحات الطوال داعياً إلى التحليّ بالأخلاق العالية ! !

وقهقه على أثر هذه الكلمات فشاركه سعيد في الضحك وقال محذراً :

— يالك من خبيث ! . . وددت لو سمعك قريبك حتى يقوم بتحطيم رأسك وهو كما أعلم مفتول العضلات زاول جميع أنواع الرياضة ! . .

فنظر نظمي بطرف عينه إلى قريبه وهو يضحك فوجده غارقا في تهريجه وضحكه . . وما لبث نظمي أن تذكر الحسناء التي شغلته قبل أن يحضر صديقه ويلهيه عنها بالحديث ، ولمس ذراع سعيد وقال :

— انظر إلى الفتاتين الجالستين هناك وقل لي رأيك في الغادة ذات الشعر الكستنائي التي ترى البروفيل الجانبي لوجهها الساحر !

ونظر سعيد إلى حيث أشار صديقه فكاد قلبه يكف عن الخفقان فلم تكن تلك الجالسة الحسناء التي يعنيها صديقه سوى ابنة خاله سناء ! سناء العزيزة فتاة أحلامه ومنى قلبه ! ! . .

وامتقع وجه سعيد وجف حلقه ورأى نظمى الدقيق الملاحظة التبدل الذى طرأ على صديقه فقال مندهشاً :

— ماذا بك ؟ أتعرفها ؟ ! فقال سعيد بصوت خفيض مضطرب :

— إنها سناء ابنة خالى وفتاة أحلامى . .

فقال نظمى فى دهشة واستغراب وقد احمر وجهه قليلاً :

— ولمَ تتحدث عنها بهذه اللهجة الحزينة اليائسة ؟ فأجاب سعيد وهو يشعر بفؤاده يتمزق :

— لأنها يا عزيزى خطبت وعما قريب تزف إلى شخص آخر . . .

فقال نظمى وقد أخذته الشفقة بصديقه :

— وماذا منعك عن التقـدم لخطبتها لنفسك وأنت أحق بهـا من غيرك .

فأجاب سعيد فى أسى :

— لست أدرى . . . فأنت تعلم أنى لم أتخرج بعد . . وعلى أى حال هى متعلقة بخطيبها وقد انتهى الأمر . . فقال نظمى وقد برقت عيناه :

— إذن فقد صدق ظنى حين قلت إنها عاشقة ! وسكت سعيد ولم

يعلق بشيء وإن آلمته عبارة صديقه وأدمت قلبه . . وأخذت يده تعبث بمضرب الـكرة الذى كان لا زال ممسكاً به . .

وقال نظمي بعد برهة :

— ألا تتقدم لتحيتها والجلوس معها ؟

فلم يسع سعيد إلاّ أن يتقدم فى تثاقل من سناء وصديقتها بينما قام نظمى إلى شلته وهو يشعر ببعض الأسف لإفلات الغادة الجميلة من شباكه ! !

obeikandi.com

الفصل العشرون

انتهت الحاجة أم أمين من صلاتها وتمتمت ببضع دعوات ونظرت بعين مبتهلة إلى أعلا داعية الله أن يكلأ نجلها مراد برعايته . وكان مراد قد غادرهم منذ أسبوعين لقضاء بضعة أيام بالقاهرة مع أسرة أخيه حيث حدث له ما عرفناه فى الفصول السابقة . .

وكانت والدته لا تعلم شيئا من أمر خطبته وكان أمين قد وعد أخاه حين ودعه قبل سفره الأخير أن يتكفل بتسوية كل شىء مع والده . .

واجتاز الحاج عبد الشافى باب الدوار الواسع وصعد سلاملك منزله بسرعة غير معهودة فى شيخ فى السبعين ! . . ودخل إلى الغرفة حيث كانت تصلى زوجه الحاجة . . وجلس فى صمت على مقعد قريب . . والتفتت إليه الحاجة بوجهها الذى يشع إشراقا وتقى ، فأخذها الاكفهرار المجسم فى قسمات وجهه المتغضن ! . .

ولم تكن الحاجة أم أمين تعتاد من زوجها هذا الشحوب والوجوم إلاّ إذا حدث أمر جلل ! ونظرت إليه مستفسرة فى قلق فنظر إليها ثم أطرق ولم يحر جوابا ! وتقدمت منه ولمست كتفه فى رفق وقالت :

— حاج ! إنك متضايق من شىء ! فقال الحاج فى ألم :

— حتى مراد . . الذى كان كالعذراء . . قد فعلها ؟ !

فجزعت الأم وقالت :

— ابنى مراد ! . . ماذا ؟ . . ماذا فعل ؟ ! ماذا حدث له ؟ !

فاستقرت نظرات الحاج عبد الشافى على النافذة الزجاجية وقال دون أن ينظر إلى زوجته :

— لا تقلقى . . إنه بخير . . وقد خطب فتاة من مصر ! ! ألا ترين أن الأمر لا يستوجب القلق بل يدعو إلى الفرح . . ؟ يا لعقوق الأبناء ! !.

فذهلت الأم وكان هذا آخر ما تتوقع سماعه عن مراد ، ولكن عينيها ومضتا ببريق خاطف ونظرت إلى زوجها الثائر ولم تتكلم . . ماذا تقول لقد سبق مراداً أخوه الأكبر وأعلمهم بخطبته بعد تمامها . . وغضب والده يومها وثارت ثائرته وصمم ألاّ يحضر القران لولا توسلات الحاجة ولولا ما سمع عن الأسرة الكريمة التى اختار منها ابنه زوجته . وتكفل الزمن بعد ذلك بإزالة كل أثر للجفوة من قلب الوالد نحو ابنه الأكبر . وها هو مراد . . ذلك العزيز الصغير . . ها هو يحذو حذو أخيه الأكبر ! . .

وعجبت الحاجة للأمر ولم تكن تظن أن مراداً يفكر فى الزواج !

إنها لا زالت تذكره منذ عهد قريب فتى صغيرا يلهو هنا وهناك ويعابث ناظر العزبة ويقفز فى الحقل كالعصفور السعيد ! . .

وكادت تكذب ما تسمع والتفتت إلى زوجها وقالت فى ارتياب :

— ولكن ! . . أقصد من أنبأك بهذا الأمر العجيب ؟ فلم يجب الحاج بل اكتفى بأن مد إليها يده بخطاب ما إن وقعت عليه عيناها حتى عرفت فيه خط ابنها أمين وتسارعت دقات قلبها الكبير وأخذت فى القراءة وقلبها يزداد خفقاً كلما أوغلت فى القراءة . .

وانتهت الحاجة أخيرا من الخطاب الطويل الذى سرد فيه أمين لوالده كل شيء واعتذر إليه لأن الوقت والظرف لم يمكناهما من إخباره بالأمر فى حينه وهو يؤكد له أن مرادا قد اختار خطيبته من أسرة كريمة طيبة يعرفها . . وفى نهاية الخطاب يرسل تمنياته لوالدته و يسألها ووالده الدعوات الصالحات !

واستمرت الحاجة فى إطراقتها حتى سمعت أحد الفلاحين ينادى زوجها فأخذ منها الخطاب وهرول خارجاً . .

وتقدمت الحاجة من أريكة مريحة وألقت بجسدها المنهك من عمل البيت المتسع ورغم أن المنزل الكبير كان يكتظ بالخدم إلاّ أن الحاجة كانت تؤثر أن تقوم بكل شيء بنفسها . . وذات يوم زار أمين وحسنية العزبة وارتاعت حسنية حين رأت ما تبذله حماتها من تعب وجهد فى عمل البيت وكانت مدللة لم تعتد أعمال المنزل فسألت الحاجة فى رقة وأدب :

— بالله يا نينا تتركين هذه الأعمال للخدم وهم كثيرون بحمد الله !

فنظرت إليها الحاجة فى عجب وحنق وقالت :

— وماذا أفعل يا ابنتى إذا تركت البيت للخدم ؟ ! إن عمك الحاج لا يأكل أبداً إلاّ من يدى وإذا أضطر إلى حضور وليمة عاد منها ليطلب طعاماً فهو يجلس فى الوليمة مجاملة ويتظاهر بالأكل دون أن يأكل شيئاً ! !

فضحكت حسنية وأطربها ما تسمع . . ومن يومها وهى تطهى طعامها بيدها لزوجها بعد أن استغنت عن الطاهى وكان سرور زوجها بالغاً لهذا . .

وطاف بذهن الحاجة آلاف الأفكار والهواجس وأخذت تحاول أن تتخيل خطيبة ابنها الجديدة ! . . كانت لا تستطيع أن تتخيلها غير جميلة ! . . إن مراد جميل فلا بد له من زوجة جميلة ! !

وكان الحاج عبد الشافي راغباً فى تزويج ابنه من ابنة أخيه وكان هذا هو سر ثورته ! إلاّ أن الحاجة لم تكن راغبة فى هذه الزيجة لأن ابنة عمه لم تكن على شىء من الحسن بالمرة وإن كانت قد ورثت عن أمها ثروة كبيرة . .

واستبدت بها الهواجس وخشيت أن يكون مراد قد تورط مع

إحدى فتيات القاهرة اللعوبات التي سمعت الكثير عن تفننهن في إغراء الشباب الساذج و إيقاعه في حبائلهن ! ؟

وامتلأت نفسها غماً لهذا الخاطر السيء إلاّ أنها اطمأنت بعض الشيء حين استحضرت في ذهنها صورة حسنية زوجة أمين . . وتذكرت عراقة أصلها وكمال أخلاقها . . وكانت تحب حسنية كابنتها وتمنت لو كان مراد أمامها في ذلك الوقت حتى تغمر وجهه الحبيب بالقبلات وتسأله عن خطيبته . .

وكان أخوف ما تخافه علمها بأن مراد على نقيض أخيه تماماً فإن كان أمين العاقل المتزن قد عرف كيف يختار من تقاسمه حياته فإن مراد وهو خيالى النزعة عاطفي المزاج لا يبعد أن تكون إحدى الفتيات الشريرات قد أوقعته في شباكها ! واضطربت نفسها خوفاً على ولدها الحبيب ولم تدر كيف تقابل ثورة زوجها التي رأت بوادرها والتي لا شك سيصبها على رأسها كما يحدث دائماً ! .

وأجفلت وتململت لهذا الخاطر الأخير ودعت الله أن يلطف بقلبها وبابنها وتذكرت أنه هناك . . بعيد بعيد يستهدف للخطر في كل لحظة فشرقت عيناها بالدمع ولامت نفسها على أفكارها . . إن مراد حرّ يختار من يشاء لنفسه ! فقط هي تريد أن يعود إليها سالماً !

وشعرت بالضيق وهي تتذكر أمر هذه الحرب التي طالت أكثر

مما ينبغى . . إنها لا زالت تذكر الحرب السابقة — الحرب العظمي — لم تدم سوى أربع سنوات بعد أن ضج العالم من طول ما لاقى خلالها من ويلات ومصائب . .

وهاهى هذه الحرب تكاد تتم عامها الخامس فلا تزداد إلاّ اشتعالا ! وأثقلت عليها هذه الأفكار القاتمة فغادرت مكانها على الأريكة واتجهت إلى النافذة وفتحتها وأخذت تسرح الطرف فى الخضرة الممتدة ملتمسة التفريج عن نفسها القلقة . .

وشاهدت الحاج عبد الشافى من بعيد وهو يتوجه إلى المنزل فتأهبت لمقابلة ثورته ! ودخل الحاج إلى الغرفة وهو يتمتم بعقوق الأبناء ويلعن اليوم الذى أنجب فيه ولديه ونظر إلى زوجته بوجه متحقن غضبا وقال :

— هل تذكرين كيف تم زواجنا ؟ ! فأطرقت الحاجة حياءً ولم تكن تتوقع أن يبدأ زوجها ثورته بهذه الذكريات ! وقال الحاج يرد على سؤاله :

— لقد استدعانى والدى إليه ذات يوم وقال : إنك كبرت يا عبد الشافى وآن لك أن تتزوج وقد اخترت لك فتاة حلوة على قدر كبير من الأخلاق الكريمة ومن أسرة عريقة . وازدادت الحاجة إطراقا لسماع هذه الكلمات واحمر وجهها الصبيح حياء بينما استرسل زوجها الشيخ :

— وبعد أسابيع أتم والدى كل شىء . . وكان أول ما وقعت عليك عيناى يوم الزفاف . . وإنى أحمد الله ولا أتذكر أنى نقمت مرة على اختيار والدى .

وهدأت حدة صوته وهو يفوه بهذه الكلمات بينما قالت الحاجة محاولة تهدئته :

— ذاك زمان ولىّ وهيهات أن يعود ! . . إن الدنيا تتغير يوما عن يوم . .

فصاح بها الحاج محنقاً فى ثورة :

— وماذا تقولين فى محمود فهمى نجل فهمى بك المدير الذى عاش حياته فى الإسكندرية والزقازيق وانحدر من أسرة متحضرة . . ألم يختر لابنه كريمة أخيه ؟ ! ووافق محمود مغتبطا على اختيار والده . . فسارعت الحاجة مصححة :

— ولكنى علمت من مراد أن محموداً كان يميل إلى ابنة عمه منذ الصغر . ولو كان أبوه قد اختار أية فتاة غيرها لرفض بالتأكيد ! . .

فزمجر الحاج عبد الشافى ولم تعجبه إجابتها السريعة ! :

— هكذا أنتن أيتها الأمهات دائما تسارعن لا نتحال المعاذير لتسويغ هفوات أبنائكن الذين أفسدهم تدليلكن . فقالت الحاجة فى دلال وقور :

obeikandl.com

— ومتى كان مراد فتى مدللا ؟ إنه نعم الشاب العاقل الرزين . .

فقال الحاج متهكما :

— نعم هو عاقل رزين بدليل أنه خطب فتاة دون الرجوع إلى والده . . يا المغالطة الصريحة ! . . فقالت الحاجة وهى تحاول الوصول إلى قلب زوجها من أى طريق :

— بالله دعنا من هذه الأمور فإنى فى خشية على مراد أن يكون قد حاق به مكروه لا قدر الله فلم تصلنا منه أية خطابات منذ سافر .

فاضطرب قلب الحاج لهذه الكلمات وأخذه الخوف على ابنه وكان به كلفاً وتلاشى غضبه فى لحظة ونظر إلى أعلا مبتهلا :

— اللهم احفظه لنا وأعده سالماً إلينا . . فقالت الحاجة ناظرة إليه فى تأثر ورجاء :

— وإلى خطيبته أيضاً ! . . من يدرى ألم لا تكون من أسرة كريمة حسنية ؟ ! وهل جن مراد حتى يخطب فتاة من الشارع ؟ ! . . . ولم يعلق الحاج عبد الشافى بشىء وإن كان فى قرارة نفسه يفكر فيما تقول زوجه ولا تستبعده .

obeikandl.com

الفصل الحادى والعشرون

اشتدت وطأة الحرب واستعر أوارها وراحت المدافع والبوارج والطائرات تنفث اللهيب والموت والدمار . . .

وتعددت الغارات على الإسكندرية ، وأصاب أهلها — أولئك السكندريين الشجعان ذوى التاريخ الحافل المجيـد — أصابهم الذعر لأول مرة ! فقد وجدوا الطائرات تصب عليهم الحمم صباً وتدك بيوتهم التى عاشوا فيها وتوارثوها عن أجدادهم جيلا بعد جيل . .

وتلقى محمود وهو فى الإسماعيلية خطاباً من خطيبته وابنة عمه مديحة تعبر له فيه عن خوفها الشديد عليه من الغارات وتخبره بخط مضطرب أن القنابل دمرت منزلهم — أى منزل عمها — بالإسكندرية وجعلته أثراً بعد عين !

وأخطرته أن أسرتها ستضطر إلى مغادرة الإسكندرية إلى المنصورة حيث يقيمون مع فهمى بك عمها . .

وآلمت محمود هـذه الأنباء غير السارة . . وبقدر ما فرح لنزوح أسرة عمه ومديحة إلى المنصورة للإقامة فى بيتهم بقدر ما حزن لتهدم منزلهم فى الثغر الحبيب فإن له فيه ذكريات جميلة عزيزة وكان يود أن تقضى فيه مع مراد بضعة أيام فى الصيف . .

obeikandi.com

وعاد نظمى من أجازته وأنبأهم أن القاهرة تضيق بالمهاجرين والفارين من الموت الذى يحصد عشرات الأسر فى الإسكندرية حصداً ! . .

وقص عليهم بأسلوبه الشيق قصص هؤلاء المهاجرين التعساء وأحس محمود بالراحة وحمد الله فى نفسه على مسارعة عمه بالهجرة إلى المنصورة رغم ما يعلمه من عناد زوجة عمه ! . .

ولم تمض ليلتان حتى فوجئت الإسماعيلية التى تحيطها المعسكرات الإنجليزية من كل ناحية بغارة شديدة استمرت ما يقرب من الساعتين وكانت إحدى صفارات الإنذار تدوى أثناء الغارة فسقطت عليها قنبلة أخرستها وساد المدينة سكون رهيب كان يمزقه صوت القنابل بوحشية . .

ووقف محمود إلى بطاريته يلقى بأوامره إلى الطوبجية وهو يلعن فى نفسه الإنجليز المجرمين الذين تسببوا بجشعهم فى هذه الحرب الضروس والذين أدى وجودهم فى بلادنا وسكوت حكوماتنا على احتلالهم إلى هذه الغارات العنيفة التى تقتل العشرات كل يوم من الأهالى التعساء . . .

وكانت بطارية محمود تقوم على شاطىء البحيرة الصغيرة عند التقائها بالقنال . . . واقتربت منهم إحدى الطائرات مزمجرة وهى تئن من ثقل ما تحمل ! فصوب الجندى البارع مدفعه إلى محركها وأطلق قذائفه فترنحت الطائرة الجريحة كنسر هائل أصابه مس ثم ما لبثت أن هوت إلى البحيرة وارتطمت بصفحة الماء الذى تطاير رشاشه إلى ارتفاع كبير . .

وسمعت صرخات استنجاد من راكبي الطائرة ! كانوا يستنجدون بأولئك الذين جاءوا يصبون الموت والهلاك فوق رؤوسهم ! ؟ .

وكان اثنان من جنود خفر السواحل السودانيين واقفين فشاهدا حادثة سقوط الطائرة وسمعا الاستغاثة فخفا إلى الشاطىء وتبينا رغم الظلمة الحالكة أيدى يائسة تلوح من وسط البحيرة فقذفا بنفسيهما فى الماء بغير تردد وسارعا نحو الطائرة المحترقة ولم يكن يراود ذهنيهما فى تلك اللحظة الرهيبة سوى خاطر واحد . . هو أن أخوين لهما فى الإنسانية يستنجدان بهما . . . وبذل الجنديان الباسلان جهد الجبابرة لإنقاذ الرجلين اللذين نجيا من ستة كانوا بالطائرة ! وتمكنوا بعد جهد شديد من إخراجهما إلى الشاطىء الرملى وهما فى حالة يرثى لها نظراً لما نزف من دمائهما . .

وسارع الجنديان فى ملابسهما المبتلة إلى أقرب تليفون واستدعيا سيارة الهلال الأحمر ولم تمض لحظات حتى حضرت وحملت الجريحين إلى مستشفى المدينة وبعد الغارة بأكثر من ساعة ظهرت سيارات الصليب الأحمر الإنجليزية تبحث عن الجرحى ! . .

وربما لا يزال أهالى الاسماعيلية يذكرون حادث تلك الطائرة وبعضهم من لا يزال يحتفظ بأجزاء منها كتذكار ! . .

ولم يستطع محمود حين شاهد الطائرة الضخمة تفقد توازنها ثم تهوى إلى الماء إلا أن يطلق صيحة فرح مجنونة وهرع إلى الجندى الباسل واحتضنه وأخذ يقبله فى فرح وحماس . .

وأظن أن المسئولين فى مصر لا يعلمون حتى الآن أن جميع الطائرات التى أسقطت فى منطقة القنال كانت بمدافع المصريين الذين كانوا يتربصون بها تربص الطائر البارع فليس للإنجليز المدعين الخاتلين إذن أى فضل فى الدفاع عن القنال أو غيره من المدن المصرية وكان أولى بالمسئولين والمفاوضين أن يخرسوا ألسنتهم الكاذبة القذرة بدلا من اعترافهم بحق الإنجليز فى حماية مصر .. كنانة الله وحصن الإسلام المكين ..

وتقدم الثعلب الألمانى روميل زاحفاً إلى حدود مصر الغربية ومالبث أن اجتازها دون مقاومة تذكر ! ؟ وانتدب مراد لقضاء ثلاثة أسابيع بالأسكندرية قابلة للإمتداد ! وتوجه مراد إلى مقر عمله وهو لا يستطيع أن يكتم ارتياحه لهذا الأمر رغم ما سمع من اشتداد الغارات على الأسكندرية فى الفترة الأخيرة ..

وهال مراد ما رأى من آثار الدمار والتخريب بفعل الطائرات الإيطالية وتذكر صديقه محمود الذى طالما ألح عليه فى زيارة الأسكندرية وكان قد اتفق معه على قضاء بضعة أيام فيها حيث يقدمه إلى خطيبته مديحة ..

ووصل إلى مقر عمله وقدم نفسه إلى قائد المنطقة واستقبل بترحيب من زملائه الضباط هناك وكانوا يعرفونه زميلا فى الكلية ويستريحون

إلى دماثة أخلاقه ورقة طباعه . . ومضى يومان . .

وجاءت الأنباء تترى أن الألمـان يتقدمون بسرعة عظيمة داخل حدود مصر الغربية وصدرت الأوامر إلى المصريين بالانسحاب من السلوم ولم يمض وقت كبير حتى احتل الألمان السلوم . . وكم حزن مراد لهذا الخبر ! كانت له ذكريات جميلة هناك فكم أمضى من ليالى فى الصحراء الرائعة الممتدة هناك يفكر فى حبيبته سناء ! وكم كان يطرب لموسيقى جراما فونه الذى تركه لزملائه قبل رحيله إلى الأسكندرية ترى هل تركه الزملاء أم أخذوه معهم فى انسحابهم ؟ !

كان مراد طوال إقامته فى السلوم يتمثل دائما بقول شوقى « وما البيد إلا الليل والشعر والحب ! » حقاً كان لا يرى فى صحرائه الحبيبة وسمائها الصافية ذات النجوم اللامعة المتألقة إلا الليل والشعر والحب ! ولم يشعر قط بالخطر الدانى فى كل لحظة .

وجلس مراد يسطر لحبيبته الخطاب الثانى ولم يكن قد أنبأ أحداً بنقله إلى الأسكندرية . . وشرح لخطيبته مشاعره وأسفه لترك السلوم واحتلال الألمـان لها وفى ختام كتابه يدعو الله أن يسعده برؤيتها فى القريب فيروى لها ما صنعه البعد بقلبه ! . . ووضع مراد القلم جانباً وقطع عليه جرس التليفون خيالاته الجميلة ورفع السماعة إلى أذنه فإذا به صوت مألوف لديه وإن لم يتبين صاحبه . . وقال المتحدث :

— مبروك يا مراد ! ؟ لقد رقيت ملازماً أول :

— ماذا ! ؟ إنى مراد عبد الشافى الضابط بالمدفعية ! . . لا شك أنك اخطأت الاسم ! ؟ من المتحدث ؟ فأجاب الصوت :

— كمال رأفت ! . . ألا تذكرنى ! . . زميلك فى السلوم . .

فصاح مراد فى فرح :

— كمال ؟ ! كيف حالك . . من أنبأك بهذا الخبر ؟ !

— لقد كنت فى القيادة وأنبأنى به أحد كبار الضباط ولست فى حل من ذكر اسمه ! . .

— إذن فيمكننى اعتباره صحيحاً ؟ فقال مؤكداً :

— لا شك فى صحته وإلا ما أخبرتك به .. ثم حياه وهنأه للمرة الثانية ووضع السماعة . .

واستمر مراد لحظات بعد هذا ذاهلا ثم أعاد السماعة إلى مكانها وكانت الساعة قد بلغت السادسة مساء ودخل أحد زملائه يحمل جريدة البلاغ وبها حركة ترقية كبيرة بين ضباط الجيش وفى مقدمة الأسماء اسم مراد عبد الشافى .. وعانقه الضابط الذى حمل إليه الجريدة ومالبث الخبر أن سرى بين إخوانه مسرى البرق .

واختطف مراد الجريدة وأخذ يبحث فى لهفة عن اسم معين ! ولا شك أن القارىء سيحدس هذا الاسم . . إنه محمود فهمى ! . .

وعادت نظرات مراد اليائسة تفحص الأسماء من جديد دون جدوى . .

فسكت على مضض ، وقلل هذا من وقع الخبر السار فى نفسه ، فقد كان يريد أن يقاسمه محمود كل مسرة . . وأمضى مراد ليلة مسهدة كان جسده المنهوك من أثر السهر ليالى متواليات فى أمس الحاجة إلى النوم العميق ، ورغم ذلك أخذت الأفكار والخواطر تتناوب وتتوالى على رأسه المكدود ! .

وتمكن أن يفوز بإغفاءة قصيرة عند مطلع الفجر . .

واستيقظ فى موعده المعتاد . . السادسة ! يكاد الصداع يحطم رأسه ، وهرع إلى الحمام وترك جسمه يتبرد بماء الدش فما لبث أن عاوده نشاطه وخفّت حدة الصداع المؤلم الذى كان يعانيه ، وارتدى ثيابه بسرعة ولم يعجبه طعم القهوة التى قدمها له جندى المراسله فوضع القدح جانباً واستغرق فى العمل زهاء ساعتين ودخل عليه مراسلته يحمل برقية ففضها مراد بلهفة فإذا بها من محمود .. ففرح وأسف فى آن واحد ! وود لو كان فى استطاعته أن ينزل عن ترقيته لصديقه الحبيب الذى يؤثره بكل شىء . .

وفى تلك الساعة بالضبط كانت سناءووالدتها ووالدها يتبادلون التهنئة فإن أمين لم يستطع حين قرأ النبأ إلا أن يبادر إلى كاظم أفندى وهو فى

طريقه إلى عمله ليزف إليهم النبأ السار وكان فرح سناء عظيما بهذه الترقية.. ورأت فيها جيهان هانم فألا حسنا ! وكانت سناء لاتزال تحت تأثير رسالته الأخيرة الجميلة التى كادت تحفظها عن ظهر قلب لكثرة ماقرأتها.. وكانت تستعيد عباراتها الجميلة عشرات المرات ، وفى اليوم السابق لذلك اليوم كان سعيد قد تمكن من معرفة خطيب سناء وإن كانت صورته فى ذهنه غير واضحة المعالم فقد كان فى زيارة بيت خاله الذى لم يستطع منع نفسه من زيارته رغبة فى إمتاع نفسه بجلسات مع سناء قبل أن تذهب من طريقه إلى الأبد ! وأقبل أمين فى ذلك الحين مصطحباً زوجته ، وكانت جيهان هانم تعرف والدة حسنية معرفة وثيقة فوق أن حسنية زميلة لابنتها فى المدرسة فرحبت بها وقدمتها وزوجها إلى سعيد الذى عرف فى أمين ذلك الشاب الذى كاد يصدمه بسيارته ذات يوم !..

وطالعته من ثنايا ذاكرته صورة الشاب الطويل الذى كان يصاحبه .. لاشك أنه هو الخطيب الموعود الذى انتزع منه سناء !!..

وصافح سعيد أمين وهو يتكلف ابتسامة مجاملة .. بينما انصرفت حسنية إلى سناء وانخرطا فى حديث طويل ..

ومالبث سعيد أن قام من مجلسه منصرفاً إلى منزله وقد زاد فى قلبه الحنق حين عرف من هو خطيب ابنة خاله التى أوقفت كل ذرة من تفكيرها عليه ! وغاظه أنه لم ير فى الضابط أى شىء يجذب فتاة

ساحرة مثل سناء! فشكله عادى وقسماته ليست فى وسامة قسماته هو مثلا!!

ونقم على الأقدار وتصاريفها العجيبة .. ولم تنج سناء أيضاً من بعض نقمته! وبلغ منزله فسمع صوتاً فى غرفة الاستقبال فأيقن أن ضيوفاً فى زيارة أمه الكثيرة المعارف والأصدقاء فقد كانت خديجة هانم اجتماعية بطبعها تحب الناس جميعاً ..

وكأنما أحست الأم بحضور ابنها فقامت مستأذنة من ضيفتها الوقور وابنتها الحسناء البادية الأناقة ..

وتقدمت خديجه هانم من سعيد قائلة فى صوت به نبرة لوم:

— أين كنت يا سعيد لقد تأخرت كثيراً فى الخارج؟ فرد سعيد مستاءً فى أدب:

— تأخرت؟! إن الساعة لم تتعد السابعة!.. فقالت والدته:

— نعم ولكنك تركت المنزل بعد الغداء مباشرة .. تعال أقدمك إلى الضيوف فقال سعيد معترضاً:

— بالله دعينى الآن فليست بى رغبة للجلوس مع أحد!..

فقالت أمه فى توسل: إنها أمينة هانم وابنتها نارمين .. هلم يا حبيبى فأنا واثقة أنها ستعجبك!.. فكادت جوانب سعيد تنشق من الغيظ وقال فى حدة:

— لقد سبق أن أخبرتك أن هذه محاولات لا جدوى منها ولست

أرغب ولا أفكر قط فى الزواج ! . ولكن الأم تقدمت منه راجية وقد كادت الدموع تطفر من عينيها .

— لست أريد منك الموافقة على الزواج منها فأنت حر . . ولكن فقط أرجو فى أن تراها وتجالسها . . فصاح سعيد فى حنق :

— ماذ يعنينى من مجالستها إذا لم يكن هذا غرضك ؟ ! . فقالت والدته :

— لقد كنا نتحدث عنك قبل وصولك ودعوت الله أن يرسلك ليروك ولا شك أن الله قد استجاب دعوتى ! . . فنزل سعيد على رغبة أمه وسار معها إلى الصالون على مضض وصافح السيدة الوقور التى أعجبها منظره لأول وهلة ولم يكد يرفع بصره إلى وجه ابنتها وهو يصافحها و إن كان قد أخذه من يدها البضة صغرها وطول أصابعها و نصاعة بشرتها . وجلس سعيد ولم يستطع حتى التفوه ببعض كلمات الترحيب بما يستوجبه الظرف وقالت أمينة هانم فى سرور :

— إننا سعداء برؤيتك ياسعيد افندى ونرجو أن نهنئك قريبا بالبكالوريوس . بينما رفعت نارمين أهدابها الطويلة وتأملت سعيد لأول مرة منذ دخل الحجرة مع والدته وخفق قلبها لوسامة محياه وأناقته وسمات الرجولة المتفجرة من وجهه وكانت تسمع أمها تتحدث إلى خديجة هانم مستفسرة عن سعيد باهتمام غير عادى وكانت فى كل مرة تطرق حياء إزاء نظرات خديجة هانم الباسمة الودود كلما زارتها مع أمها . .

وكانت صديقتها ميرفت قد أخبرتها قبل ذلك أن سعيداً وسيم شديد الأناقة فقد رأته ميرفت فى النادى الأهلى حين كانت تجلس مع سناء يجلس معهما بعض الوقت واقترحت ميرفت أن تلعب معه بعض أشـ[illegible] من التنيس وغالب سعيد حياءه وقام يلبى رغبتها وقد هزمته ميرفت يومئذ شر هزيمة لأنه كان مضطرباً فكانت يده كثيراً ما تحيد عن الكرة ولم ينسَ سعيد أبدا هذه الهزيمة لأنه كان من أبطال هذا النادى الأهلى فى التنيس .

ورفع سعيد رأسه فاصطدمت نظراته الحائرة بنظرات نارمين وهى تتفرس فى وجهه فاحمر وجهها واضطربت أهدابها الطويلة الوطفاء وأطرقت حياء ولم يستطع سعيد أبدا أن ينكر جمالها أو أناقتها هذه المرة . . .

نعم هى ليست أجمل من سناء ولكن فيها تلك الرقة الساحرة التى تأسر قلب الرجل لأول وهلة وتلك الأنوثة الفياضة من عينيها وجيدها البديع هذا إلى جمال يديها الذى كان أول ما طالعه من كنوز حسنها . . .

وزايلته الرغبة فى الانصراف ووجد نفسه ينطلق مع أمينة هانم فى الحديث وزال جو الوجوم والحرج الذى ساد الغرفة حين دخل سعيد . .

ومالبثت نارمين أن اشتركت فى الحديث فطرب سعيد لنبراتها الموسيقية الرقيقة وكان أسعد الجميع ولاشك خديجة هانم التى طالما دبرت وفعلت ما بوسعها كى يفوز ابنها بنارمين الثرية الجميلة . . .

openkanal.com

الفصل الثانى والعشرون

وقفت إحدى عربات الـكارو إلى باب المنزل الذى يقط ظم أفندى وما لبث أن لحق بها شاب يبدو أنه فى الثانية والعشرين نحيف الجسم شاحب الوجه لم يعن بترتيب شعره أو هندامه يلوح من عينيه السوداوين بين لحظة وأخرى بريق قوى نافذ حتى ليبدو لمن يراه أول مرة كأحد الفلاسفة أو الشعراء ! . .

كان هـذا الشاب هو توفيق حسنى الطالب بالليسانس بكلية الحقوق وكان الوقت خريفاً والشمس لا تـكاد تظهر لـكثرة ما أحاط بها من سحب ، وتقدم توفيق يساعد الحوذى فى إنزال حوائجه القليلة التى حملها من المنزل الذى كان يقطنه بشارع عباس بالجيزة إلى غرفة منعزلة بسطح المنزل الذى يقطنه كاظم أفندى . .

كان توفيق يعيش طوال سنى دراسته الجامعية مع ثلاثة من رفاقه من طلبة الجامعة يحتلون جميعاً شقة واسعة فى منزل كبير لأحد تجار الجيزة .

وكان المرء يعجب كيف تجمع الظروف هؤلاء الشبان الأربعــة تحت سقف واحد رغم تباينهم فى الميـول واختلافهم فى المشارب ! ؟

فأولهم كان شاباً فى الثالثة العشرين بقى له عام للانتهاء من دراسته بكلية الهندسة وكان أنانياً مسرفاً فى حب نفسه لا يعنيه من أمر زملائه شىء ولا يختلط بهم إلاّ إذا حاول أن يريهم شيئاً اقتناه حديثاً رغبة فى إثارة حسدهم رغم أنهم كانوا جميعاً فى أنفسهم يسخرون منه ! . .

والثانى فى الخامسة والعشرين عريض الجبهة واسع الفم كثير الضجيج مسرف المرح وكان أيضا فى السنة النهائية بكلية الآداب وكان يشتغل بالكتابة فى الصحف والمجلات وتأليف الأغانى والأزجال ! . . وكان مندمجا إلى حد ما فى الوسط الفنى كما كان له نشاط ملحوظ فى كليته فى الناحيتين الاجتماعية والأدبية . .

وكانت غرفته لا تخلو لحظة من رفاقه المعروفين بالتهريج والمرح وكان هذا الشاب محبوباً من زملائه لدماثة أخلاقه وذكائه ومرحه الجم . .

أما الثالث فكان فى السنة الثالثة بكلية الحقوق لم يتعد الثانية والعشرين على شىء من البدانة أبيض البشرة تبدو عليه الطيبة والبساطة اللتين يتبينهما المرء فى أهل الريف وكان هدفا لنكات طالب الآداب وقفشاته وكان يتقبلها بصدر رحب ونفس رضية لم تعتد الحقد أو الضغينة . .

أما صاحبنا توفيق فكان أكثر الجميع غرابة أطوار! . . يعيش في عزلة ، لا يندمج مع زملائه إلاّ بقدر ، وكان يحبهم جميعا حتى طالب الهندسة رغم أن عينيه الفاحصتين كشفتا خبيئة نفسه في أول يوم رآه ! . .

وكان الجميع على السواء مجدين في دروسهم فيما عدا طالب الآداب الذى كانوا يتراهنون على رسوبه فاذابهم يفاجأون باسمه بين أول الناجحين في آخر العام ! !

وكان توفيق قد أمضى مع زملائه سنوات ثلاث كان خلالها موفقاً في دراسته ولكنه في السنة الأخيرة أخذ يحس أن نفسه تضيق ذرعا بزملائه . .

وكان يشعر برغبة ملحة في العزلة والبعد فكان يغادر المنزل معظم الوقت يسير على ضفاف النيل أو في حديقة الحيوان التى كانت قريبة من منزله . وأخيراً أحسّ توفيق برغبته في السكنى وحده تلح عليه فلم يجد بدا من الالتجاء إلى بيت آخر به غرفة منعزلة . . واستمر بحثه أكثر من عشرين يوما حتى عثر على ضالته في منزل صغير أنيق بشارع المدارس بحى الروضة الهادىء رغم بعده بعض الشىء عن الكلية .

وكانت هذه الغرفة مهجورة لم يقطنها أحد قبله فأراد صاحب

المنزل وهو جزار ممن أثروا خلال الحرب أن ينتفع بها فأصلحها وأعدها للسكنى فكان أول من قدر له أن يسكنها هو الطالب توفيق حسنى . .

وأسف الزملاء كثيراً لانتقال توفيق إلى مسكن آخر فقد كان موضع حبهم وإجلالهم وكان أكثر الجميع أسفا من غير شك هو طالب الهندسة لا لتعلقه بتوفيق ولكن ليقينه أن قيمة ما سوف يدفع من إيجار ستزيد بضعة عشر قرشا ! !

وانتهى توفيق من نقل حاجاته إلى غرفتـه الجديدة بمساعدة الجوذى وكان فرحا بسكنه الجديد . . وكان يتيسر له إذا نظر من نافذة الغرفة الصغيرة أن يرى النيل . . النيل الذى يحبه ويهرع إليه كلما ألم بقلبه هم أو قلق . .

وكان يستطيع وهو الأهم أن يختلى بنفسه ويغرق فى تأملاته أو يدوّن خواطر نفسه التى كانت تلح عليه أن يفرج عنها بالكتابة ، وقد فعل ذلك مرة فى الجيزة وقرأ ما كتب على زميله طالب الآداب فأعجب به الإعجاب كله وهنأه وحثه على الاستمرار فى الكتابة فكان توفيق يفرح بهذا التقريظ ويكاد يهم بعناق زميله الأديب ! . .

وسار توفيق فى حياته الرتيبة الجديدة رضية نفسه قريرة عينه . .

وبينما كان صاعدا ذات يوم درجات المنزل إلى غرفته فتح باب شقة فى الطابق الثانى وطالعه وجه مشرق باهر الحسن لم ير فى حياته

أجمل منه ! وكان ضعيفا أمام الجمال . . فلم يستطع أن ينظر إلى الوجه الساحر طويلا فغض ببصره كأنما أصابه من حسنها بهر ! . . وسار فى طريقه إلى غرفته . .

وكانت سناء قد سمعت أن طالبا قد شغل الغرفة العلوية ولكنها لم تره سوى تلك الساعة . . ولم تثر رؤيته فى نفسها سوى شعور بالإكبار الممزوج بالشفقة لما رأت من شحوبه وسمات الإرهاق البادية عليه . .

ومضت الأيام تجد فى سيرها وشُغلت سناء بغرام مراد الذى أدى إلى خطبتها له وتوثقت الأواصر بين الطالب والأسرة التركية الطيبة فقد كان توفيق ذات يوم يقفز درجات المنزل بسرعة مخافة أن تفوته محاضرة القانون الجنائى الهامة فرمقه كاظم أفندى وكان يتأهب للانطلاق بسيارته الصغيرة إلى عمله . .

وكان يعرفه لكثرة ما صادفه فى صعوده وهبوطه وكانا فى كل مرة يتبادلان التحية وأصر كاظم أفندى على أن يوصله إلى الكلية فمانع توفيق ورضى أخيرا أن يأخذه إلى ميدان الجيزة . . ولكن كاظم أفندى لم يصغ إلى اعتراضه فلم يقف به إلاّ أمام الجامعة . . وكان باقيا على موعد المحاضرة خمس دقائق !

وشكر له توفيق كريم مجاملته وحفظ له فى نفسه هذا الصنيع .. ومنذ ذلك اليوم وتوفيق وكاظم أفندى صديقان . .

وزاره توفيق فى الجاراج وأعانه فى تنظيم حساباته . .

وبينما كان توفيق صاعداً إلى غرفته ظهراً أحد الأيام تقابل مع كاظم افندى على الدرج وصمم كاظم أفندى على أن يتغديا معاً فرفض توفيق معتذراً وكانا قد بلغا الشقة ففتحها كاظم أفندى بمفتاح كان معه وسمعت جيهان هانم حديثهما على الدرج فخرجت ورأت زوجها يلح على توفيق كى يتغدى معه وتدخلت وكانت كثيراً ما شغلها أمر ذلك الطالب الصامت المنعزل . . وجذبت توفيق من ذراعه فى رفق ولم يسعه إزاء وجهها الباسم الحانى إلا النزول على رغبتهما فى صمت وخجل . .

وأخذ كاظم أفندى فى الترحيب بينما كانت مسامع توفيق قد جذبها صوت رقيق يغنى من الداخل ؟ . . كانت حسناؤنا سناء تغنى وهي تعد طعام الغداء . . كانت تغنى دائماً أثناء عملها وتملأ البيت لحناً ومرحاً . .

وفرغت سناء من إعداد الطعام وإن لم تفرغ من الغناء ! واستفسرت عن والدها فأنبأتها أمها أنه بالداخل فهرعت للقائه وما رأته حتى جرت إلى أحضانه مهللة وأوسعته لثماً وتقبيلا ولم تكن بعد قد فطنت إلى الضيف الجالس والذى رآها تندفع كالغزال الجميل وتحتضن والدها وتقبله فأطرق حياء وحرجاً . . وكأنما أحست سناء أن فى الجو شيئاً فتلفتت

فإذا بها تفاجأ برؤية توفيق ، وكان لا يزال مطرقاً فأخذها الخجل الشديد لولا أن أباها قال ضاحكا :

— ألا تسلمى على صديقنا الأستاذ توفيق ؟ أم إنك لا تعرفينه ؟

فارتبكت سناء ولم يكن توفيق يقل عنها ارتباكا ! ومدت إليه يدها فنهض توفيق من مجلسه وصافحها فى أدب ثم جلس . .

ورأت سناء نفسها تضطرب بعض الشىء إزاء نظراته النافذة فقد كان لعينيه بريق غريب ، ودعاها والدها إلى الجلوس ولكنها اعتذرت بأنها ستساعد والدتها فى إعداد المائدة وجرت مسرعة إلى الداخل . . .

وانتهى الجميع من الغذاء وكانت سناء ترمق الضيف أثناء الأكل فوجدته لم يكد يأكل شيئاً فهمست بذلك لوالدها الذى صاح به معاتباً :

— ما هذا يا أستاذ توفيق ؟ ! إن الطعام أمامك لم يُمسّ !

فابتسم توفيق وقال فى رقة :

— إنى أكلت كما لم آكل من قبل فإن الطعام شهى . . وسرّ سناء هذا الإطراء غير المباشر لها فابتسمت فى حياء . .

وقام الجميع إلى الصالون لتناول القهوة وأخرج توفيق علبة لفائفه وقدمها لكاظم أفندى قائلا :

— هل لك فى واحـدة ؟ ! فاعتذر كاظم أفندى فى رقة بينما قال توفيق وهو يتناول لفافة و يشعلها :

— معذرة . . فقد شاء حظى السىء أن أعتاد التدخين إذ وجدت فيه تسرية وإراحة للأعصاب . . فابتسم كاظم أفندى ولم يجب . .

وجاءت القهوة فتناول توفيق قدحه وراح يرشف منها وسمعت سناء طرقات خاصة كانت تنتظرها بلهفة فهرولت وفتحت الباب ثم عادت وقد أشرقت أساريرها بابتسامة سعيدة وظهر الفرح فى عينيها وكانت ممسكة بخطاب عليه ختم الإسكندرية وفضته بسرعة وأخذت فى قراءته وكان مراد يخبرها فيه عن نقله نهائياً إلى الإسكندرية . .

وفرغت سناء من القراءة وقد تسارعت دقات قلبها وندت عن صدرها تنهدات مكتومة سمعها توفيق فرمق سناء بنظرة من عينيه النافذتين فأدرك حالها ! ومدت جيهان هانم يدها قائلة وهى تبتسم لسناء :

— هل تسمحين ؟ فاكتسى وجه سناء احمراراً على احمراره وتركت الخطاب لأمها بينما قال كاظم أفندى باهتمام :

— هل هو من مراد ؟ ! أهو بخير ؟ فقالت جيهان هانم دون أن ترفع نظرها عن الخطاب :

— نعم . . إنه بخير وقد نقل إلى الإسكندرية ! فأشرقت أسارير كاظم أفندى ولكنه ما لبث أن قال متنهداً :

— ولكن الإسكندرية لا تقل خطراً عن السلوم . . غير أن هذا أحسن على كل حال ، فإنه سيكون قريباً منا على الأقل . .

كان توفيق فى تلك الأثناء قد انتهى من لفافته فما لبث أن أخرج أخرى وأشعلها من اللفافة المحتضرة بين شفتيه ! ثم أخذ يدخن فى لذة.. وأخذت عينا سناء هـذه الفعلة وعجبت لـكثرة تدخينه وهى لا تحب التدخين و إذ ذاك التفت كاظم أفندى إلى ضيفه وقال فى رقة :

— أظنك لا تعلم أن سناء ابنتى خطبت قريباً ؟ . .

فقال توفيق بأدب وهو يحسد فى نفسه الخطيب السعيد على هـذه الخطبة الموفقة ! :

— ومن يكون الخطيب السعيد ؟ وأطرقت سناء بينما أجاب كاظم أفندى :

— إنه مراد أفندى عبد الشافى ملازم أول بسلاح المدفعية ويعمل بالإسكندرية .

فالتفت توفيق إلى سناء وقال فى رقة :

— أهنئك يا آنستى من أعماق نفسى وأرجو لك كل السعادة مع زوجك المقبل الذى يجب أن يعرف أنه وفق إلى خطيبة نادرة فى حسنها وكمالها .

وابتسمت سناء وصار وجهها فى لون الورد وجعل هذا الإطراء قلبها يخفق بشدة وقالت باسمة :

— أشكر لك رقتك يا أستاذ وأتمنى أن أرد لك تهنئتك قريباً . .

فضحك توفيق وقال :

— أنا أتزوج ! ؟ يا للشناعة ! ! أتظنين أن هناك فتاة ترضى بي زوجاً ؟

إنك تحسنين بي الظن يا آنستي ! فقالت سناء بحماس وهي تتأمل وجهه الطويل وجبهته العريقة النبيلة :

— أظن أن أية فتاة لا أحسبها تحصل على زوج خير منك !

فهزت هذه الكلمات توفيق بشدة وهو يسمعها من بين شفتي فتاة ساحرة مثل سناء . . ولا شك أن هذه شهادة لها قيمتها ! . .

وقالت جيهان هانم بعد أن فرغت من قراءة خطاب مراد وناولته لسناء :

— أف لهذه الحرب اللعينة . . متي تنتهي ؟ ! فأجاب توفيق :

— أظن أنها لن تنتهى قبل سنتين ما دام هتلر قد خاطر بمهاجمة روسيا !

فتدخل كاظم أفندى وكان يعادى الروس أشد العداوة . . تلك العداوة التاريخية المغروسة فى نفوس الترك من زمن بعيد ! وقال متحمساً :

— لا أظن ذلك يا أستاذ فإن الجيش الألمانى سيدخل موسكو قبل أربعة أشهر على الأكثر ! . .

ونفث توفيق دخان سيجارته وقال فى ثقة :

— وهل نسيت أن الشتاء قد أقبل هناك ؟ . . بالله ماذا يفعل الجند فى الجليد الذى يغطى الأراضى الروسية ويعرقل سير المواصلات فى روسيا نفسها ! ! . . لا أظن إلاّ أن مأساة نابليون ستتكرر رغم معنوية الجيش الألمانى العالية . .

وانصرفت سناء وأمها عن هـذا الحديث وبعد قليل نهض توفيق للانصراف فودعته الأسرة الصغيرة فى حرارة ، وأكدت له جيهان هانم أن بيتها هو بيته وأن له أن يعتبرها كوالدته . . فشكر لهـا توفيق رقتها متأثرا . وصافح سناء ثم شدّ على يد كاظم أفندى فى حرارة وامتنان وصعد إلى غرفته . . ولم يمض قليل حتى سمعت سناء خطواته وهو ينزل مسرعاً إلى الخارج ! . .

ولم يحدث أن تأثر توفيق بمعرفة قوم تأثره بالتعرف إلى أسرة كاظم أفندى وقد أحب الأتراك منذ ذلك الحين وكان قبل ذلك لا يميل إليهم . .

وهرع توفيق إلى شاطىء النيل — صديقه العزيز — وأغرق نظراته فى مياهه العميقة الداكنة . . كان يحس فى هـذا اليوم سعادة غامرة لأنه أصبح لا يعيش منعزلاً وحيداً فى غرفته بل وجد حوله قلوباً تشعر به وترعاه ، هو الذى هرب من إخوانه رغبة فى الوحدة والعزلة ! . .

الفصل الثالث والعشرون

لم يكن توفيق يتصور أن الحب يفعل كل هذا بقلب عذراء إلاّ حين رأى سناء ذات يوم ذابلة المحيا وقد أحاط بعينيها البديعتين هالتان من أثر السهاد والبكاء . .

وكان قد مضى عليها أسبوعان لم تتلق خلالهما أى شيء عن مراد ، ذلك الحبيب البعيد المتحجر القلب ! كيف يطيق الصبر كل هذه المدة دون أن يكتب إليهـا ؟ هى التى تحبه أكثر من أبويها اللذين يحباها الحب كله ! ألم يحنثا بعهدهما لسالم بك نصر بعد أن داعبت قلبه الآمال الزاهية و بات يتحرق شوقا إلى اليوم الذى يتخذ فيه سناء زوجا فتخلع على حياته القاتمة بشبابها وجمالها ثوب السعادة الوردى ؟ !

وهى تعلم تماما أن هذا الحادث قد سبب جفوة بين والدها وسالم بك وتعلم أيضا أن والدها خسر كثيرا بهذه القطيعة رغم أنه لم يخبرها بأى شيء من هذا . . .

وكانت العلاقات قد توطدت بين توفيق وسناء ، وذات يوم أثناء جلسة هادئة سردت عليه بوجه محمر وأنفاس متلاحقة قصة حبها لمراد . . الضابط الذى لم يره توفيق قط والذى يكاد يجزم أن أمه وضعته فى ليلة القدر فليس من الميسور لأى شاب مهما بلغ أن يفوز بإنسانة رائعة الحسن

كاملة الخلق مثل سناء ! وآلم توفيق ما رآه من علامات الألم البادية على وجه سـناء وكان على أتم استعداد لبذل أى شيء لإعادة المرح والصفاء إلى محياها الساحر الحبيب . .

كان توفيق يعتقد وهو الفنان أن سناء خلقت للسعادة وأن قلبها البللورى لا يجب أن يكدره أى شيء . . وأحست سناء بنظراته الحانية فأطرقت ، وكانت تعلم أن شيئا لم يغب عن عينه الفاحصة ! . .

وقال لها باسما فى رقة :

— ألم يصلك شيء منه ؟ فقالت وهى تكاد تبكى :

— كلا ! فقال مطمئنا :

— حسنا . . لا شك أن خطابا سيصلك منه اليوم فى بريد بعد الظهر ولعلى حين أعود من كليتى أن أجد البشر قد عاد إلى قلبك فيرتد إلى وجهك رواؤه وسناؤه الذى أضعته بكثرة بكائك !

فقالت سناء بغضب ودلال :

— ماذا يا أستاذ توفيق ؟ أتقول إنى أبكى ؟ !

فقال توفيق فى نبرة تمثيلية :

— عفوا يا آنستى العزيزة . . إنى أعلم أنك ثابتة الوجدان ولـكنى أظن أنّ الأجدر بك أن تزيلى آثار الدموع من وجنتيك الجميلتين قبل الاعتراض على ملاحظاتى ! ففزعت سناء وسارعت إلى الداخل

ونظرت إلى مرآتها فهالها الشحوب الشديد والذبول الواضح فى وجهها وكان فعلا هناك أثر للدموع على وجنتيها ! . . وفى تلك اللحظة سمعت توفيق يصيح من الخارج :

— إلى الملتقى يا سناء فقد تأخرت عن موعد الكلية ! وسمعت بعد ذلك خطواته تسرع على الدرج . .

وعجبت سناء فى نفسها لهذا الشاب كيف يحرص على مواعيد الكلية كل هذا الحرص بينما هو لا يكاد يستذكر شيئا رغم اقتراب موعد الامتحان ! وفى الواقع إن توفيقا كان يكتفى بالاستماع إلى المحاضرات وكتابة بعض المذكرات أثناءها . . وكان بالفعل يتضايق أن تفوته إحدى المحاضرات وخاصة محاضرات أستاذ القانون الجنائى . .

وطردت سناء عن نفسها هذه الأفكار وعادت إلى التفكير فى مراد . . وتنهدت يأسا وهى تتقدم من الشرفة ، ووجدت عينيها تنظران إلى شرفة منزل أمين ووجدت حسنية واقفة مع ليلى فحيتها ملوّحة بيدها وكان لا يمر يوم دون أن تتزاوران ، وردت حسنية التحية ووقفت كل منهما تبتسم للأخرى من بعيد . .

وسمعت سناء صوت والدتها تناديها من الداخل فخفت إليها بعد أن أومأت برأسها لحسنية . .

وكانت حسنية تعلم لهفة سناء وقلقها على خطيبها لتأخره فى

الكتابة إليها وكانت هى وزوجها فى قلق أيضا . .

وعادت سناء إلى الشرفة فوجدت حسنية لا تزال واقفة وهى ترقب سيارة صغيرة آتية من بعيد . . واقتربت السيارة واتسعت عينا حسنية دهشة وهى ترى سيارة زوجها تمر بباب المنزل ثم تتجاوزه دون أن تقف حتى إذا اقتربت من منزل كاظم أفندى وقفت ! !

وعجبت سناء هى الأخرى ولكن عجبها زال وحل محله فرح مجنون حين فتح باب السيارة وهبط منه مراد ! نعم مراد بقامته الطويلة وكتفيه العريضتين ونزل فى أثره أمين والتفت ناحية بيته ملوحاً لزوجه بيده وهو يضحك ، وكانت حسنية هى الأخرى قد سرتها عودة مراد المفاجئة أما ليلى فكانت تقفز فرحا وتصر على النزول لاستقبال عمها والتعلق بعنقه كعادتها . .

أما سناء . . فكان الله فى عونها . . لقد استخفها الفرح حتى لم تستطع أن تخف لاستقبال خطيبها الحبيب الذى كان أقصى أمانيها منذ لحظات أن يصلها خطاب منه ! ؟

وصعد مراد الدرج قفزاً واتجه فوراً إلى غرفة سناء وكانت جيهان هانم فى تلك الأثناء مشغولة فى بعض شئونها فلم تفطن لحضور مراد واستدارت سناء حين سمعت خطواته خلفها ووقف مراد يتأملها ويملأ منها عينيه اللتين حرمتا منها طويلا .. وكانت هى الأخرى تتأمله بعيون

وهى وقلب يكاد من الفرحة يقفز إليه . . ونازعتها نفسها إلى الارتماء فى أحضانه ولـكن حياءها الغريزى كان يمنعها وتقدمت منه وهو واقف يتأملها كالمسحور ومدت إليه يدها وهى تقول وقد أغرورقت عيناها بالدموع:

— مراد ! . . أتيت أخيراً أيها القاسى ! ولم يحر مراد كلمة واحدة وإنما قبضت يداه على يديها البضتين بشدة وفى لحظة فريدة من العمر . . لحظة لمع فى السماء قبس قدسى أرسل على القلبين المتناجيين فيضاً غامراً من الحنان والرحمة وإذا بشفاه الحبيبين تتلاقى فى قبلة عميقة والهة وأخذ مراد يجفف دموعها بقبلاته بينما استكانت هى فى صدره العريض وأخذت أنفاسها المطرية تغمر وجهه وعنقه ، ونسيت نفسها فى اللحظة .

ولم تستطع ليلى أن تصبر على لقاء عمها ورأى أمين تململها وقفزاتها فى الشرفة فسار إلى المنزل ودعاها إلى النزول إليه فهبطت بسرعة فى فرح فسار بها أبوها إلى منزل كاظم أفندى وسبقته إلى الصعود ودلفت إلى المنزل وجرت إلى عمها الذى كان فى واد آخر وأحس بذراعين صغيرتين تحوطان ساقيه فالتفت فإذا بها ليلى تصيح جذلا فحملها بين ذراعيه وأخذ يقبلها وقد أحاطت عنقه بذراعيها ونظرت إليها سناء مبتسمة ومدت ذراعيها فتحولت ليلى إليها فحملتها وكانت تحس سعادة غامرة وهى تقبل وجهها الصغير الذى كان لا يزال يحمل دفء قبلات مراد حبيبها ! . .

وانتهت جيهان هانم من عملها وأقبلت على غرفة ابنتها التى كانت ولا بد لا تزال فريسة همومها وقلقها على خطيبها البعيد !

ودخلت الغرفة فإذا بها تفاجأ بما يكاد يجعلها تسقط من وقع المفاجأة وتركت سناء ليلى تفلت من بين ذراعيها بينما تقدم مراد يصافح جيهان هانم مقبلا يدها فى احترام عميق فربتت على كتفه برفق وحنان ثم صافحت أمين وقبلت الصغيرة ليلى . .

وجلس الجميع وقامت سناء تحضر شيئاً لضيوفها الأعزاء فبادرت جيهان هانم معترضة بظرف ورقة :

— سأقوم أنا بهذه المهمة واشبعى أنت من النظر إلى خطيبك فقد كاد بعده يذهب بعقلك ! فأطرقت سناء بينما ضحك أمين وابتسم مراد حياء وتسارعت خفقات قلبه السعيد .

وقدمت إليهم جيهان هانم علبة جميلة بها بعض الحلوى و بعد قليل نهض مراد وعينا سناء تتبعانه فى دهشة فقال لها :

— سأنصرف الآن فقد أوحشتنى حسنية ثم أستريح قليلا وأمامى أيام ثلاثة نقضيها معا . .

وتقدمهم أمين حاملا ابنته إلى الخارج يتبعه مراد ثم سناء التى عاد إلى وجهها بهاؤه ورواؤه . .

وفى تلك الأثناء كان توفيق قد عاد من كليته إذ وجد الطلبة مضربين متجمهرين فى حرم الجامعة يتبارون فى الخطابة . . وكان توفيق رغم وطنيته التى تقرب من التعصب لا يحب الاشتراك فى المظاهرات

ففضل العودة إلى حجرته وقابل فى صعوده أمين وهو يحمل ليلى وبدا خلفه ضابط طويل القامة عريض المنكبين ممسكا بغطاء رأسه فى يده فبدا شعره الأسود الفاحم كأسلاك من الأبنوس ! . . وكانت تقف خلفه سناء كأتم ما تكون سحراً وجمالا وغبطة وعيناها لا تفارقان عينى الضابط . .

وفرح توفيق حين تحققت الأمنية التى تمناها لسناء قبل أن يغادرها متوجهاً إلى كليته وآلمه أن سناء لم تكد تفطن إليه وهو يمر أمامها صاعداً إلى غرفته فقد كانت فى شغل عنه وعن كل شىء وتذكر المثل البلدى المشهور « من لقى أحبابه نسى أصحابه ! »

واستدار صاعداً فلمحته سناء فنادته فالتفت إليها فتقدمت منه ونادته أن ينزل إليها فاستجاب إلى رغبتها وقدمته إلى خطيبها الذى صافحه بأدب جم . .

وكان أمين قد بلغ الباب الأسفل وركب السيارة . .

وكرر توفيق التهنئة لمراد بالخطبة وقال له ضاحكا فى ظرف :

— ما هذا يا أخى أتسافر إلى الخطر وتترك وراءك سناء تقضى الليالى تبكى !

فابتسم مراد بينما نظرت إليه سناء غاضبة فضحك بينما حياه مراد وغادره ليلحق بأمين .

الفصل الرابع والعشرون

انحنى الجارسون فى بزته السوداء الأنيقة ثم اعتدل فى وقفته ينتظر ما يطلبه من ذلك السيد الفخم المفرط الإناقة الذى جلس مع أحد البكوات من رواد الملهى إلى إحدى الموائد الأمامية المحيطة بحلبة الرقص والنمر الاستعراضية التى يقدمها كل ليلة ذلك الملهى الشهير .

ونظر سالم بك نصر إلى الجارسون المنتظر وقال فى عدم اكتراث :

— ويسكى بالصودا . وهرع الجارسون فى نشاط يلبى طلب البك الذى يبدو عليه الثراء والجاه العريق . وكان سالم بك قد أصبح فى حالة يرثى لها فقد تحطمت أعصابه وكثرت المشاغبات بينه و بين زوجه أم أولاده .. وزادت هذه المشاحنات حدة عقب أن فوجىء برفض خطبته لسناء وكم حزّ فى نفسه أن ردّ إليه كاظم أفندى جميع هداياه وأبى فى أدب وشمم أن يقبلها منه كتذكار .

وذات يوم تقابل مع أحد أصدقائه من عشاق الكأس فاصطحبه إلى ذلك الملهى الشهير وانتحيا جانباً وطلب صديقه خمراً لشخصين فلم يمانع سالم بك بل أضحى هو الذى يطلب الخمر بعد الكأس الثالثة !

وكأنما كان سالم بك يفرغ فى جوفه ناراً فقد التهبت مشاعره وازدادت آلامه وثارت أشجانه وأخذ يتفكر فى حياته كيف كانت

obeikandl.com

وما صارت إليه وأحس أنه كد طويلا وكدح وقاسى من أجل لاشىء !؟ سراب ! ؟

إنه لم يجد فى المال المتعة ولا السعادة التى كان ينشدها والتى طالما هفت إليها نفسه فهاهى فتاة جميلة فقيرة تتأبى عليه وتتمنع هو الوجيه الثرى الذى يزيد دخله على العشرين ألفاً من الجنيهات فى العام .

نعم لقد جاهد و بنى ولكن لا لنفسه لأنه حتى الآن لم يجن ثمرة كدحه وجهاده وهو يعلم أن شمس حياته تميل نحو الغروب وأن أولاده سيستولون بالطبع على كل ما جمع بكد ساعده وهو قد نشأهم تنشئة حسنة ورباهم كأحسن ما تكون التربية وألحقهم جميعاً بأرقى المعاهد الدراسية و بعد سنوات سوف يتخرجون و يصيرون نماذج للشباب الراقى .

يصيرون أهلا لإنفاق هذا المال الكثير فلديهم الشباب والعلم والنشأة الراقية . . . وضخمت الخمر فى رأسه هذه الأفكار وابتسم فى سخرية ومرارة من نفسه وهو يعجب لأمر هذه الحياة ! . .

وأزيح ستار أبيض فى نهاية القاعة و بدا وجه فاتن جذاب سرعان ما اجتذب إليه العيون وخلب القلوب وخاصة حين ظهر باقى القوام الشيق الجميل الذى أبان ثوب السهرة عن أجمل مواضعه . .

وتقدمت سهام راقصة الملهى الأولى وكانت قد انتهت من رقصاتها وعادت إلى غرفتها تتبعها عاصفة شديدة من التصفيق لا زال صداها

يدوى فى أذنها حتى الآن ! وسارت تخطر فى ثوبها البديع وهى تهب لعيون رواد ذلك الملهى الراقى . .

وتلفتت سهام كأنما تبحث بعينيها السوداوين عن شخص معين وأخيراً أشرقت أساريرها بابتسامة وتقدمت من المنضدة التى جلس إليها سالم بك وصديقه الثري المعروف . وكان سالم بك غارقاً فى أشجانه وكئوسه يحاول عبثاً أن يطفىء اللهب المستعر فى قلبه . . ورفع عينيه حين بلغ أنفه عطرها القوى ونظر بعينين شبه مغمضتين فإذا به يذهل واتسعت حدقتا عينيه وكأنما هو قد أفاق قليلا من بعض نشوته وانتقلت نظراته من عينيها المغناطيسيتين إلى أنفها الدقيق إلى شفتيها الممتلئتين المستديرتين إلى جيدها الطويل ثم انحدرت إلى كتفيها العاريتين ثم صدرها الشامخ . . لله ما أجمله ! . . ثم خصرها الدقيق . . ثم غامت عيناه . .

وانتهى الوجيه رفيق سالم بك من الترحيب بصديقته الغانية ثم مالبث أن قدمها إلى سالم بك قائلا وهو يضحك :

— الآنسة سهام الراقصة المشهورة التى تصيب كل يوم بسهام عينيها خمسمائة شخص على الأقل ! ثم أطلق ضحكة عالية كأنما أعجبته نكتته بينما شد سالم بك على يد سهام البضة ورفعها إلى شفتيه وهو يكاد يلتهمها بعينيه الجائعتين ! . .

وكانت هى تتأمل منظره الفخم وخاصة ذلك الدبوس الماسى الذى كان يلمع فى ربطة عنقه الجميلة . . وقال سالم بك وهو لايزال يتأمل سهام مفتونا :

— إنى أذكر أنى رأيت هذا الوجه الساحر من قبل ! !

فابتسمت سهام ولمعت عيناها وقالت :

— وأنا أيضاً ! . . أين ياترى ؟ ! فقال سالم بك :

— لست أدرى بالضبط لأنى لم أحضر إلى هذا المكان من قبل . . ربما فى أوتيل سميراميس .

— آه تذكرت ! ! ألم تكن أنت الذى كنت تجالس المسيو (ن . .) حين دخلت مع شاكر بك عبد الموجود ؟ فأشرقت أسارير سالم بك وقال :

— يالك من سيدة قوية الذاكرة !.. لقد مر على هذه الحفلة ستة أشهر أو يزيد . . ولكن لاشك أن وجهك الساحر لا ينسى بسهولة . . فابتسمت سهام فى سرور ودلال بينما صفق سالم بك يطلب مزيداً من الويسكى . . وقال الوجيه الذى كان يعرف سهام من زمن ولاشك ! .

— إن سهام اليوم من الكواكب اللامعات فقد أعجب بها المخرج الشهير منير شوقى وأظهرها فى كثير من الأفلام وقد شاهدتهما معاً بالأمس فى حالة انسجام تام ! وقهقه وهو يعتدل موجها كلامه لسهام :

— أظنك تمكنت من اقناعه بأن يسند إليك بطولة فيلمه القادم..

فاحمر وجه سهام ورمقت ذلك الوجيه بغضب فسكت على الأثر . . بينما لم يعلق سالم بك بشيء فقد أعجبته سهام ونظر إليها نظرة اشتهاء منذ رآها . . ولم يعد يعنيه من أمرها سوى أنها امرأة جميلة تفيض سحراً وأنوثة وتستطيع أن تسرى عن نفسه وتمسح بيدها الجميلة آلامه ومتاعبه . ونظر الوجيه إلى ساعته ثم أهاب بسالم بك أن ينهض للانصراف معه فقد أزف موعد عودته ولايستطيع بحال أن يتأخر خشية بأس زوجه ، فأبدى سالم بك رغبته في المكث فتركه صديقه وهو يبتسم ابتسامة ذات مغزى وينظر إليه في شيء من الرثاء ! !

ولم تحاول سهام أن تخفى ارتياحها لانصراف ذلك الوجيه الذى كانت عشيقته طوال سنتين حاولت خلالها بشتى الطرق أن تحصل منه على ما تستطيع من أموال ولكنه كان حريصاً لا تنطلى عليه حيلها وإن كان لا يبخل عليها بالثياب والهدايا . .

وأخيراً لم تجد سهام بداً من الأنصراف عنه وإن كان لايزال متعلقا بها . .

وأحست هى بغريزتها أن سالم بك يختلف عن رفيقه تمام الاختلاف هذا إلى جانب أنه أكثر وسامة وأناقة . .

قال سالم بك وهو يرمقها بعينين مفتونتين :

— أتعرفينه من زمن ؟ ! فقالت مرغمة :

— نعم ولكنه لايعجبنى كثيراً . . فضحك سالم بك قائلا :

— وأنا أيضاً أعرفه من زمن . . إنه إنسان مرح وإن كانت عباراته أحياناً فيها غلظة وتهكم .. فقالت وهى ترنو إليه بطرف ساحر :

— ولكنى أرى أنك تختلف عنه كثيراً ! . فنظر إليها وقد سره اطراؤها غير المباشر وقال :

— حقا ! ؟ فقالت بحماسة :

— نعم . . فأنت أكثر رقة ودماثة . ثم قالت وهى تبتسم :

— و .. أكثر وسامة . . فأطرق سالم بك حياء وتلوى قلبه ألما !!

كان يود لو سمع هذا الإطراء من شفتى إنسانة أخرى . . سناء كاظم !.. التى فعل أقصى ما فى وسعه لاستمالتها وكاد يفلح لولا ذلك الشاب اللعين الذى ألقاه القدر فى طريقها . . لا بل فى طريق سعادته هو . .

وتململ وهو يحاول أن يطرد هذه الأفكار من ذهنه وعاد ينظر إلى وجه الحسناء التى جلست تنادمه وتنفث فيه سحرها . .

وشربا بضعة كئوس صارا بعدها صديقين مؤتلفين ؛ وكأنما أزالت الخمر ذلك الحاجز الذى كان مضروبا بينهما وارتفعت ضحكات سهام الموسيقية كلما سرد سالم بك الثمل فكاهة أو ملحة ! وكان الجلوس جميعاً من رواد الملهى يتجهون إليهما بعيون بدا فى أكثرها الحسد .

opeikandi.com

وفى ركن بعيد من القاعة الواسعة وقف شاب أشقر يرتدى الفراك وهو ينفث دخان لفافته فى عصبية . . كان مدحت عازف الكمان بفرقة الملهى . . وكان المتأمل فى ملامح مدحت يرى سمات الأصل الطيب فى جبينه وعينيه فلم يكن عازف الكمان هذا قد نشأ فى هذا الوسط . . وإنما كان طالباً بإحدى المدارس الثانوية ، وكان مدللا فكان يرسب باستمرار لانعدام الرقابة على حياته الدراسية حتى لقد كان فى الثانية والعشرين ولم يزل فى الفرقة الرابعة ! .

وتعرف الفتى بسهام راقصة الملهى الشهيرة وفتن بها وكان والده يمتلك بضع مئات من الأفدنة بددها فى القمار والخمر ولم يتبق منها سوى بضعة أفدنة بينما تراكمت عليه الديون . . وكان يعطى ولده بسخاء ولا يبخل عليه بشىء . .

وجذب الشاب مدحت الراقصة الحسناء بوسامته وشبابه وأناقته وحرك قلبها الذى لم يكن ليتحرك إلا للمال والذهب ! وجذبته سهام بعينيها القاتلتين وحيويتها الدافقة وأخذ مدحت فى كل ليلة يشتري لها الهدايا الفاخرة رغبة فى الاستئثار بالتفاتها وفى أن يحظى بها دون سواه من معجبيها الكثيرين واستمر مدحت في علاقته معها وأهمل دروسه إهمالا تاماً وعاد ذات يوم إلى بيته مخموراً فإذا به يفاجأ بأن والده توفى بسكتة قلبية فطار من رأسه كل أثر للخمر وأصابه ذهول شديد وما لبث أن

انفجر يبكى كطفل صغير . . وحصرت التركة فوجد أن الأفدنة القليلة لا تكاد تكفى لسداد الديون المتراكمة . . وصفى كل شيء فخرج صفر اليدين حتى المنزل الذى كان يقطنه مع والدته اضطر إلى بيعه فالتجأت أمه إلى بيت والدها وهو موظف من أرباب المعاشات واضطر مدحت إلى البحث عن عمل حتى لا يعيش هو الآخر عالة على جده . .

وعلمت سهام بقصته فأبدت تأثرها وسعت لدى مدير الفرقة الموسيقية ليلحقه بها عازفا بها وكان مدحت على شيء من المهارة فى العزف على الكمان وقد كان . .

وانضم مدحت منذ ذلك اليوم إلى فرقة الملهى ولكن سهام مالبثت أن أهملته إلى الأثرياء من رواد الملهى وكثيراً ما بكى مدحت بين يديها مستعطفا فكانت أحيانا تشفق عليه فتأخذه بين ذراعيها كطفل صغير وتقبله وتعبث بخصلات شعره الذهبية وأحيانا لا تأبه له ولا تعبأ بتوسلاته وتتركه محطما بائسا حتى تمكنت من إسقاط ذلك الوجيه الذى كان يرافق سالم بك فى شباكها ، فاتخذها عشيقة وكان ما كان من حرصه ويقظته فضاقت به ذرعا وصارت تمضى معظم أوقات فراغها مع مدحت الذى كاد يجن من الفرح . .

وكانت سهام قبل أن تخرج إلى الصالة لتجالس الرواد حسب اتفاقها مع صاحب الملهى ، كانت تلاطف وجنتى مدحت الذى وقف

يساعدها فى ارتداء ملابسها . . كانت تحبه كطفل كبير ولا تخجل منه حتى أنها كثيراً ما كانت تخلع ملابسها أمامه . . وفى بعض الأحيان كان يطبق عليها بذراعين من حديد ويقبل كل جزء من وجهها وعنقها وكانت تطالعها من عينيه نظرات من نار تشعر منها بالخوف فكانت تستكين لضماته القوية شاعرة بضعفها أمامه أما هو فكان مجنونا بها فقد استولت على كل ذرة من تفكيره حتى ليبيت الليل يحلم بها .

وتبعها مدحت بنظره حتى جلست إلى مائدة الوجيهين وارتاح الفتى حين انصرف عشيقها القديم وقد ظن أنها لا بد قائمة فى أثره ولكنه وجم حين رآها تجلس وتطيل الجلوس مع الرجل الآخر . . وتميزت نفسه من الغيظ وهو يسمع ضحكاتها الناعمة تتردد فى جوانب الصالة فتلفت الأنظار بينما جلس صاحبها ينظر اليها نظرات ملؤها الجذل والرغبة . .

ورمى مدحت لفافته إلى الأرض فى عصبية وضيق وهم بالتقدم من سهام ليصفعها أو الخروج بها بعيداً عن هذا الملهى المكتظ بالرجال وكلهم يطمع فى نظرة منها . .

وجن جنونه حين رأى يدها البضة تستقر على كتف سالم بك وقد يبلغ بها الأمر أن تلاطف خده . . ياللشيطان . . أفٍ لهذه المرأة . . واستمر سالم بك وسهام فى نشوتهما حتى حانت منه نظرة إلى ساعته

فإذا بها جاوزت منتصف الليل فدفع حسابه ونهض مستئذناً وقالت سهام وهى تضع ذراعها العارية فى ذراعه .

— هيا بنا فأنا الأخرى منصرفة لأنى متعبة ! وسارت بجانب سالم بك متأبطة ذراعه إلى الخارج حيث كانت تنتظره سيارته البكار الفخمة وجاس سالم بك إلى عجلة القيادة بينما ألقت سهام بجسمها الدافىء إلى جانبه وقد أخذتها فخامة السيارة التى انطلقت بهما تتبعها عينى مدحت وهى تومض شرراً وغيظاً .

obeikandl.com

الفصل الخامس والعشرون

انتهت أجازة مراد وأحست سناء بها تمر كلمح البصر . . نعم لقد سعدت بخطيبها الذى لم يكد يفارقها لحظة — ولم تكن تدرى أن هذه السعادة الدافقة لن تطول أكثر من يومين ثم يعود مراد إلى الإسكندرية — إلى الخطر المحدق . . وأحست سناء حين وقفت تودع مراد على رصيف المحطة كأن قلبها ينتزع منها وكذا أحس مراد ! وضغطت يداه الكبيرتان على يد حبيبته فنظرت إليه بعينين يفيض منهما الحب وكانت تبتهل إلى الله أن يعيده إليها سالماً فقد صارت تعتقد ألاّ حياة لها بدونه . . .

وتأهب القطار للتحرك فعانق أمين أخاه ومدت سناء إليه يديها وضغطتا على يده فلم يتمالك مراد إلاّ أن يرفعهما إلى شفتيه ويقبلهما فى عبادة وهيام وتحرك القطار مبتعداً بمراد . . وظلت سناء تلوح له بمنديلها وظل هو يرقبها من نافذة القطار حتى غابت عن أنظاره . .

واستدارت سناء وكان أمين فى انتظارها فرأى الدموع تملأ مآقيها فابتسم لها فى حنان وربت على ذراعها وسار معها فى صمت إلى سيارته الواقفة فى ساحة المحطة وركبا معاً ، وهم أمين باتخاذ طريق منزلها ولكنها طلبت إليه فى خجل أن يوصلها إلى منزل صديقتها ميرفت فقد كانت

لا تطيق العودة إلى منزلها الذاخر بذكريات مراد . . لقد جلس على كل مقعد فيه ووطأت قدماه كل شبر فى أرضه تقريباً ! . . وكذا هى تريد ألاّ تقع عيناها على الشرفة التى رأته فيها أول مرة وخفق قلبها خفقة الحب الأول . . إن كل شىء هناك يذكرها بحبيبها الذى سافر وخلفها تحسب الساعات والدقائق فى انتظار عودته سالما . .

ووقفت السيارة إلى فيلا بديعة بالأورمان ونزلت سناء وشكرت أمين مودعة ولكنه قال باسما :

— يجب أن أطمئن أولا إلى وجود صديقتك وبعد ذلك أنصرف فربما لا تكون بالمنزل ! فابتسمت سناء فى امتنان ودخلت المنزل فقابلتها والدة ميرفت التركية بحفاوة بالغة وأخبرتها أن ميرفت خرجت بسيارتها إلى النادى الأهلى ودعتها للمكث قليلا فاعتذرت سناء شاكرة وانصرفت حين كان أمين ينتظرها . . وضحك حين رآها قائلا :

— ألم أقل لك ؟ ! يجب أن يكون المرء بعيد النظر . .

فضحكت سناء وركبت إلى جانبه وانطلقت بهما السيارة وسار أمين متمهلاً حتى أوصلها إلى منزلها فشكرته وصعدت إلى شقتها ثقيلة القلب وكانت جيهان هانم قد أحست هى الأخرى بوحشة حين غادرها مراد مودعاً مصطحبا معه سناء فارتدت ملابسها وخرجت تزور أختها . .

وكم تضايقت سناء حين وجدت المنزل خاليا من أمها . . فمهما يكن فإنها تجد عندها الراحة والسلوى . .

ودخلت إلى غرفتها بخطى متثاقلة وأسلمت جسدها إلى مقعد مريح واستمرت فى جلستها بضع دقائق ثم قامت إلى مكتبتها وتناولت كتابا اقتنته حديثا وهو « الرباط المقدس » وقد جذبها الاسم شأن كل فتاة مقبلة على الزواج ! . . وكانت سناء تحب توفيق الحكيم وتعجب به حتى لقد اقتنت كل كتبه ولم تكد تفتح الكتاب حتى سمعت صوت سيارة تقف بالباب وخطوات سريعة تصعد الدرج فأيقنت أنها ميرفت وفرحت لهذه الصدفة . . وتعانقت الصديقتان وضحكتا حين سردت سناء على صديقتها قصة زيارتها لمنزلها بعد خروجها فإذا بالأقدار توسلها إليها ! . .

وحانت من ميرفت نظرة إلى الكتاب الذى كان بيد سناء فقالت وقد اتسعت عيناها :

— أتقرأين الرباط المقدس ؟ ! ياله من كتاب بشع ! ! فقالت سناء فى دهشة وعجب بالغ :

— ماذا ؟ ! توفيق الحكيم بشع ؟ ! ياله من قول مضحك !

فاستدركت ميرفت قائلة :

— لا . . لم أقصد المؤلف وإنما قصدت الكتاب ! فقالت سناء :

— وهل الكتاب إلا نفس المؤلف وخواطره وخلجات قلبه في جمل مسطورة ؟ ! فأجابت ميرفت بلهجة العارف الواثق بما يقول :

— لقد قرأت للحكيم كتبا كثيرة وأعجبت جدا بمسرحية رصاصة في القلب ولم أكن أتصور أن توفيق الحكيم الذى صور فى مسرحيته تلك أرق المشاعر وأرفع المثل ، لم أكن أتصور قط أنه يكتب كتابا مثل الرباط المقدس .

فهتفت سناء وقد زاد شوقها إلى قراءة الكتاب :

— كيف هذا بالله ؟ ! فقالت ميرفت :

— أرى أنك لم تقرئى الكتاب بعد وهذا حسن وسأعطيك فكرة عنه . . إنى لم أقرأ فى حياتى كتابا يصور الغريزة الجنسية فى المرأة ويحلل الخيانة الزوجية كما حللها توفيق الحكيم فى هذا الكتاب حتى إنه ليسرد فى بساطة الدقائق الخفية التى يجب ألاّ تنشر . .

فقالت سناء فى حماس :

هذا حسن جدا ! حتى يكون تأثير آراء الكاتب التى يسوقها بعد ذلك أفعل فى نفس القارىء وأبعد أثرا . .

فقالت ميرفت وقد اقتنعت برأى صديقتها إلى حد ما :

— ولكنى أصارحك القول لم أستطع المضى فى القراءة فقد أخجلنى الوصف الدقيق . . فقالت سناء .

obeikandi.com

— إنك مخطئة فى هذا ولا شك فقد كان ينبغى لك أن تتمى الكتاب حتى تخرجى منه برأى غير هذا الرأى الناقص الذى سمعته منك . . والعبرة بالخواتيم كما يقول الأستاذ المازنى ! . . فأطلقت ميرفت إحدى ضحكاتها الموسيقية المجلجلة وقالت :

— أفٍ لك يا سناء . . إنك دائرة معارف . . لا تكفين أبداً عن القراءة ولا تسأمين الاطلاع . . فابتسمت سناء فى رضى وقالت :

— ولحظى السعيد وجدت خطيبى من عشاق الأدب وقد قرأ جميع الكتب التى قرأتها وأعجب بها وكم فرح حين عرف حبى للأدب . .

وقالت ميرفت بعد قليل :

— إنى متوجهة إلى النادى الأهلى . . هلا أتيت معى نمضى بعض الوقت ؟

فقالت سناء مداعبة :

— لا يا عزيزتى . . لن أذهب معك فلا شك أنك ستتركيننى وحدى وتلعبين التنس شأنك دائما ! فضحكت ميرفت وقالت وهى تجذب سناء من يدها :

— اطمئنى يا عزيزتى فليس بى ميل للعب اليوم . .

وقامت سناء معها وركبتا السيارة التى كانت ميرفت تقودها وقبل

أن تتحرك بهما لمحت سناء توفيق خارجاً من المنزل وقد رأى السيارة ولكنه لم يحاول أن يرى من فيها ؛ ونادته سناء فالتفت بحدة فرآها وصديقتها ، وكانت المرة الأولى التي يرى فيها ميرفت ، واقترب منهما وحياهما برقة فيها بعض التحفظ ؛ والتفتت سناء إلى صديقتها وقالت :

— هذا هو الأستاذ توفيق الفيلسوف الذي حدثتك عنه ! فقالت ميرفت وهي تضحك وإن كان قلبها قد إضطرب قليلا من نظرات توفيق النافذة ! . .

— ليس هو توفيق الحكيم بالطبع لأن الآخر يضع البيريه على رأسه ولا يستطيع السير دون عصاه الشهيرة ! ! فضحك توفيق وقد سرته روح ميرفت المرحة وقال :

— ستريني منذ الغد لابساً البيريه ممسكا بعصا غليظة تشبها بتوفيق الحكيم ، ومن شابه أستاذه فما ظلم ! ! ودعته سناء إلى الركوب معهما قائلة :

— إننا ذاهبان إلى النادي الأهلي ، وأظن ميرفت لا تمانع في الركوب معنا إلى هناك . فقالت ميرفت في رقة وهي تحاول عبثاً أن تتخلص من تأثير نظرات توفيق !

— إن هذا يسرني من غير شك . ولعلنا نجد في صحبة الأستاذ متعة ومسرة .

openkanal.com

فشكرها توفيق وهم بالاعتذار لولا أن شيئاً فى وجه ميرفت جعله يقبل الدعوة على الفور ، وهو نفسه لم يكن يدرى كنه هذا الدافع القوى ،

واجتازت السيارة الجسر البديع الذى يصل الروضة بالجيزة ، وكان توفيق يتأمل النيل كعادته . و بعد قليل وقفت السيارة إلى باب النادى . وهبط توفيق وساعد سناء على النزول ثم تبعتهما ميرفت . . وكان الجو بارداً بعض الشيء ففضلت ميرفت الجلوس داخل الصالون الذى يحمل اسم أحد مؤسسى النادى . واحتلوا ثلاثة مقاعد مريحة . وطلبت الحسناوان شايا بينما طلب توفيق قدحا من القهوة ومضى يدخن فى صمت . . ونظرت إليه سناء برهة ثم قالت :

— إنك تدخن كثيراً يا أستاذ توفيق وأظن هذا يضر بصحتك .

فنظر توفيق إليها وكان يتأمل ميرفت فى أناقتها الفريدة وقال لها فى امتنان :

— أشكر لك يا آنستى شعورك الرقيق ولعمرى إن قلبك لهو الطهر بعينه . .

فأطرقت سناء . . وفى هذه اللحظة أقبل الجارسون يحمل أقداح الشاى والقهوة . . وكان ثمة نغمات مثيرة تنبعث من البيانو الذى يتصدر القاعة الواسعة ، كانت فتاة شقراء تعزف عليه لحنا أورو بيا حديثا مالبثت أن انتهت وقامت إلى الخارج . .

والتفتت سناء إلى ميرفت التى كانت قد انتهت من شرب الشاى. وتبعت العازفة بنظرها وهى تغادر القاعة . . وقالت سناء :

— بالله يا ميرفت تسمعيننا بعض الموسيقى على البيانو . . إن الأستاذ توفيق لا شك مغرم بالموسيقى . . فهز توفيق رأسه موافقاً فى حماس . وقامت ميرفت فى حياء وسارت إلى البيانو ولم تنس قبل قيامها أن تختلس بضع نظرات إلى وجه توفيق لعل شيئاً ما فى وجهه قد جذبها هى الأخرى ! !

ونهضت سناء وتبعها توفيق وجلسا فى مقعدين قريبين . واتخذت ميرفت مجلسها أمام البيانو . . وجرت أناملها الجميلة على أصابع البيانو ثم التفتت بحركة رشيقة إلى زميليها وقالت متضرجة الوجنات :

— سأعزف لكما لحناً له فى نفسى أثر وذكرى جميلة فقد كانت والدتى تعزفه لى وأنا طفلة ، وكان أول ماعزفت على البيانو هو هذا اللحن.

ورمقها توفيق بنظرة فيها تأثر وشوق إلى الاستماع بينما صفقت سناء بيدها مسرورة وهى تقول :

— هلمى يا ميرفت فأنا أعرف عمتى بارعة فى العزف . .

وانطلقت ميرفت تعزف فى براعة اللحن المعروف « طلائع السعد » واهتز توفيق للنغم فقد كان هو الآخر يحبه . . ولما انتهت التفتت إليهما بوجه باسم وقالت :

— والآن سأقفز بكما نصف قرن على الأقل فأسمعكما قطعة أوربية شهيرة وهى تانجو « كومبارسيتا » . وقفزت سناء فرحا وخفق قلبها فقد كانت تعلم أن مراداً يعشق هذا اللحن . . ومضت أنامل ميرفت تجرى على أصابع البيانو فى سرعة و براعة . وملأت الأنغام الجميلة المكان وسرت إلى الخارج حتى أن ذلك الصحفى الكبير أهاب بصحبه أن يصمتوا و ينصتوا إلى اللحن الجميل ! . .

وانتهت ميرفت فلم يملك توفيق إلا أن يصفق بقوة فالتفتت إليه ميرفت واهتز قلبها إزاء حماسته واستحسانه . وقامت وجلست بالقرب منهما محمرة الوجه . . وشملها توفيق بنظرة من شعرها الحالك المعقوص على أحدث المودات إلى أخمص قدميها الصغيرتين فعاودها ذلك الارتباك الذى أحسته حين رمقها بنظراته النافذة أول مرة ! . .

وكان توفيق يعشق الموسيقى و يعتقد أنها من ضروريات الحياة . ولا يكاد يمر عليه يوم حتى يذهب إلى نادى كلية الآداب أو الزراعة يستمع إلى الموسيقى أو يعزف على البيانو . . ولم يدر لماذا أحس رغبة ملحة فى العزف وهو يستمع إلى عزف ميرفت فقد رأى أنها موسيقية بارعة .. وأحس بأنه يريد أن يكشف لها عن براعته هو الآخر فى العزف!

وقام فى حياء وقال وهو ينظر إلى الغادتين :

— هل تسمحان ؟ فقالت ميرفت وهى تتأمله متحاشية النظر إلى عينيه :

— لم أكن أعرف أنك تعزف ؟ ! فقال توفيق فى تواضع و بساطة :

— إنى مبتدىء فقط . . ولعل عزفى لا يزعجكما ! . .

وجلس وجرت أصابعه على البيانو فى ثورة وقوة و براعة . و بدأ يعزف قطعة شوبان الخالدة « لاپولونيز » وارتجفت ميرفت وأخذتها روعة النغم بينما كانت سناء فى عالم آخر ! كان اللحن يزداد قوة كلما اقترب من نهايته . وأيقنت سناء وهى تصغى أن هذا اللحن جدير حقاً بأن يثير حفيظة الشعب البولونى و يدفعه إلى الثورة على الظلم . . وانتهى توفيق وتدلت يداه إلى جانبه فقد بذل مجهوداً عظيما فى العزف . وكانت ميرفت مبهورة الأنفاس لا تفارق عيناها توفيق الذى نظر إليهما و إلى سناء ليرى أثر العزف فى نفسيهما ، وأحس بسرور خفى وهو يرى مدى تأثير عزفه على ميرفت وما لبث أن قال :

— و إليكما قطعة أخرى تختلف تمام الاختلاف عن الأولى وهى « طنين النحل » لسكورساكوف . . وكان لحناً مرحاً شيقاً كادت فتاتانا ترقصان معه . . ولما انتهى توفيق قامتا تهنئانه على براعته وتشكرانه على ما أتاحه لهما من سرور ومتعة . ووجدت ميرفت نفسها تسير بجوار توفيق وكأنما أحست برابطة وثيقة تربطهما ! . .

ونسيت فى تلك اللحظة خطيبها الذى كان يتخذ الأهبة للسفر إلى مقر عمله بمفوضية كوبنهاجن ! . .

الفصل السادس والعشرون

عاد سالم بك إلى منزله وهو لا يزال يحسّ بحرارة القبلة التى اعتصرها من شفتى سهام الفاتنة التى أوصلها إلى منزلها بالزمالك . . وكان منظرها الرائع على المسرح فى رقصاتها الاستعراضية البديعة ، ثم بعد ذلك فى رقصة البطن المثيرة التى برعت فيها ونالت شهرة كبيرة جعلت الصالة تعج كل يوم بالرواد وعشاق فن سهام أو بالأحرى جسدها المثير الفاتن ! . .

والتهب وجهه بالحنين والشوق حين بدا فى خياله قوامها البديع وهو يتماوج مع النغم فيهتز كل جزء فيه ويختلج بينما تتطلع العيون مأخوذة إلى الصدر البارز فى شموخ وفتنة والذى ظهر أكثره . . والبطن اللجينى وهو يتثنى ويتماوج بينما تسلط الأضواء الملونة على الجسم بأجمعه فتكسبه روعة وبهاء على روعته وبهائه . .

وكاد سالم بك حين بلغ بأفكاره هذا الحد أن يكر راجعا بسيارته إلى منزل سهام كى يبثها هيامه ولوعته ولكن رأسه كان ثقيلا وجسده منهوكا وكان قد شرب أكثر من المعتاد فآثر الذهاب إلى بيته وأمضى الليل يحلم بالغانية الجميلة . .

وأصبح سالم بك من روّاد الكازينو الممتازين ، وكان هائما بسهام

وكانت هى كعادتها تحاول أن تحصل منه على أكبر قدر من المال . وكان هو كما أسلفنا لا يبخل عليها بشىء . . وكلما رأت إقباله عليها وجنونه بها زادت تدللا وتمنعا فيزيد بها شغفا وفتونا . . وألح عليها ذات مرة وكان يزورها فى غرفتها بالمسرح أن تمنحه قبلة فتمنعت دلالاً ، فأصر هو فلم تزد إلاّ تدللا فانصرف غاضبا ، فما لبثت أن لحقت به وهو يكاد ينطلق بسيارته وارتمت على صدره وقبلته قبلة طويلة عاد بعدها وذراعها فى ذراعه . .

واضطر سالم بك إلى سفر فى عمل استغرق منه أكثر من أسبوع ، وعاد من سفرته مشوقا إلى لقاء سهام . . ولم تظهر هى على المسرح تلك الليلة ، وسأل عنها فقيل إنها متوعكة بغرفتها ، فبادر بالذهاب إليها وهاله ما رأى من شحوب وجهها وفتور نظراتها وعلامات الأسى العميق المرتسمة على محياها . .

وسألها عن حالها فأجابته شاكرة بأنها تشعر ببعض إعياء . .

وجلس إليها يحاول أن يخفف ما بها وكان رقيق القلب ، وآنست سهام فى صوته نبرة عطف صادق لم تحسها من أحد قبله فانفجرت باكية بحرقة . . وتألم سالم بك لبكائها واستحلفها أن تذكر له ما بها فقصت عليه قصتها : وهى أن مدحت تفترسه الحمى بإحدى المستشفيات ويكاد يشرف على الموت ويحتاج لعناية خاصة . . وليس له فى الدنيا سواها

بعد أن توفيت والدته وأصيب جده بشلل . .

وأخبرته عن أصل مدحت الطيب وقصة حياته التعسة ، ولم تستطع أن تمنع نفسها من البكاء وهى تخبره أنها تود لو استطاعت أن تنقله إلى منزلها كى تعنى به لولا أنها لا تمتلك ما يكفل له العلاج والراحة بعدما أنفقت عليه كل ما معها من نقود وحلى . .

وتأثر سالم بك لهذه القصة وكادت الدموع تطفر من عينيه ، وعجب لتقلبات الدهر وغدره . . ورجاها أن تصحبه لزيارة مدحت فوافقت فرحة وهى تعجب بنبل مشاعره ورقة قلبه . .

وفى اليوم التالى دخل سالم بك يحمل كيسا كبيرا من التفاح ومعه سهام . . وكان الفتى راقدا فى فراشه شاحب الوجه أبيض الشفتين غائر العينين . . وتقدم إليه سالم بك ولم يكن يعرفه قبل ذلك . . وتأكد حين رآه من صدق رواية سهام إذ كان يبدو على مدحت سمات الأصل العريق والمحتد الكريم . . وبدا فى عينى المريض الحقد حين رأى سالم بك وكاد يمتنع عن مصافحته حين مد يده إليه . . وتمكن سالم بك بما أوتى من لباقة وبراعة فى الحديث من إزالة بعض الجفوة من قلب مدحت فتبسط معه فى الحديث، وسأله سالم بك عن أسرته وأهله فأخبره مدحت باسم والده ، فتذكره سالم بك وكان من الشخصيات المعروفة وترحم عليه ، ثم نظر إلى المريض فى عطف وقال باسما :

— هل تحب سهام حقا ؟ !

فقال مدحت مبهوتاً :

— ماذا تقول يا سيدى ؟ ! فعاد سالم بك يسأل :

— أقول هل تحب سهام بعض ما تحبك ؟ !

فقال المريض بمرارة :

— ليتها تحبنى وتمنحنى عشر الاهتمام الذى تمنحه لرواد الصالة الأثرياء ! فاحمر وجه سالم بك ولكنه وقال :

— وهل تظن أنها تحب أياً منهم ؟ . . إنك واهم يا صغيرى فليس فى قلب سهام إلا أنت . . ولو كنت قد رأيتها بالأمس وهى تبكى من أجلك لعرفت مدى حبها لك . .

وكانت سهام تستمع مطرقة والأسى يطل من محياها ، ونظر إليها مدحت طويلا ثم قال فى حرارة وهيام :

— إن سهام هى كل مالى فى هذه الدنيا . . ليس لى فى الوجود غيرها ولست أحب من الدنيا سواها ، وقد عذبنى حبها طويلا ولكننى لا أسلوه أبداً . . إنه يجرى فى دمى !

وتأثر سالم بك بينما نظرت سهام إلى وجه مدحت فى حب وحنان، واغرورقت عيناها بالدموع ومدت يدها الرخصة ووضعتها على شفتيه وقالت :

— كفى يا مدحت . . إن الكلام يتعبك . .

فقال مدحت معترضا وهو ينظر إليها فى وله :

— ولكن الكلام عن حبى لك لا يضرّ بى ، بل على العكس يسعدنى و يشفينى !

وتنحنح سالم بك وابتسم وهو يقول :

— دعا هذه المغازلات لوقت آخر . . ثم التفت جاداً إلى سهام وقال :

— أتحبين مدحت حقا ؟ !

فأطرقت سهام ! فكرر سالم بك سؤاله فقالت :

— إنه حبى الأول والأخير . . الإنسان الذى منحته قلبى منذ رأيته . .

فقال سالم بك متسائلا :

— وما يمنعكما من الزواج ما دام كل منكما يحب الآخر ؟

فقالت سهام :

— العمل . . الذى يقتضينى الجلوس مع رواد الصالة ، وهذا يثير غيرة مدحت وحفيظته ويجعله يصر على ترك عملى .

فقال سالم بك ببساطة :

— وماذا يمنع من أن تهجرى الرقص وتستكينى للحياة المنزلية مع مدحت ، الذى يبحث عن عمل بعيداً عن جو الملهى الموبوء ! . .

obeikandi.com

فنظر مدحت إلى سالم بك فى دهشة ممزوجة بالإكبار بينما قالت سهام :

— لقد بحث مدحت كثيرا عن عمل فلم يوفق حتى توسطت له لدى مدير الكازينو فعينه عازفا فى الأوركسترا . .

فقال سالم بك :

— أما عن مسألة عمل مدحت فأنا كفيل بها . . والآن بقى أمر الزواج . . هل يمكنكما الزواج بمجرد أن يغادر مدحت المستشفى ويسترد صحته إن شاء الله ؟ ! فصاح مدحت وقد استخفه الطرب :

— من أنت يا سيدى الكريم ؟ ! أإنسان أم ملاك ؟ ! إنك تدنينى من جنتى التى أحلم بها . . بل هذا فوق ما حلمت به ! !

وابتسم سالم بك وقال :

— إنى إنسان يعنيه أن يراكما سعيدين ! !

وقالت سهام وهى تنظر إلى مدحت فى حنان وهيام :

— إنى موافقة على ما تقول بلا قيد ولا شرط ، وحسبى أن أسعد مدحت وأعوضه ما فقد من حب وحنان بعد فقد والديه . .

فقال سالم بك وهو ينهض :

— حسنا جدا . . دعا الأمر لى و . . مبروك ! ولما همت سهام بالانصراف معه اعترضها قائلا :

— لا ... يحسن أن تبقى معه حتى تعجلى بشفائه ! وسار فى طريقه . .

وشفى مدحت بعد أيام وغادر المستشفى . وأمدّهم سالم بك بمبلغ من المال لم يقبله مدحت إلاّ بعد أن حرر له صكا به يسدده على أقساط . . وأثث شقة بسيطة بعد أن استخدم سالم بك نفوذه وعينه بإحدى الشركات . واستطاع مدحت أخيرا أن يتزوج من سهام حبيبته التى عذبه حبها طويلا ، وهجرت سهام الرقص وتفرغت لحياتها المنزلية مما كان حديث المجلات والأوساط الفنية فترة طويلة . .

ولّم ينس مدحت ولا سهام لسالم بك أبدا هذه المنة .

obeikandl.com

الفصل السابع والعشرون

كانت الليلة شديدة البرودة وزفيف الرياح يصك الآذان صكا وترك مراد النسمات الباردة تلفح وجهه فى قسوة . .

وكان الظلام حالكا رهيباً لا يهتك ستره سوى الأنوار الكاشفة التى كانت خطوطها تتقاطع تحت صفحة السماء التى اختفت نجومها تلك الليلة . . وكان يمزق السكون بين آن وآخر أزيز الطائرات المغيرة التى لا تكاد تمر ليلة دون أن تغير على الإسكندرية . .

وكان مراد قد عاد إلى مقرّ عمله منذ أسبوع وقد خلّف قلبه فى القاهرة يعيش بجوار حبيبته الغالية سناء . . وكانت الظلمة وزفيف الريح العاصفة يبعثان فى نفس مراد الكآبة والوحشة . .

واقتربت إحدى الطائرات المغيرة وملأ أزيزها الجو ، وسقطت قنابلها هنا وهناك ، وسمع صوت المدافع المضادة للطائرات تذود عن المدينة ببسالة وعناد . .

وسقطت قنبلة بالقرب من مراد فجندلت جنديين منهم الطوبجى الباسل الذى انكفأ على مدفعه والدماء تنزف منه بغزارة . فهرع مراد إليه غير عابىء بالدماء التى كانت تنزف منه هو الآخر . . وأسند رأس

الجندى المحتضر بذراعه ، وابتسم الجندى وهو يغالب آلامه الشديدة ، ولم يتمالك مراد دموعه وانحنى على الجندى وقبله فى عينيه وجبينه ، فنظر إليه الجندى واتسعت الابتسامة على شفتيه الشاحبتين ثم أسلم الروح . واستمر مراد فى ذهول محتضناً الجندى وقــد جمدت فى محاجره الدموع . . .

واقتربت إحدى الطائرات وأطلقت قذائفها فترك مراد الجندى وهم أن يجرى لولا أنه أحسّ إعياء شديداً وما لبث أن سقط على الأرض فاقد الوعى . وشاهده أحد زملائه فهرع إليه وحمله وجرى به نحو أحد الخنادق وتركه بين يدى جنديين ومضى يؤدى واجبه . .

* * *

فتح مراد عينيه بعد جهد فقد كان يحسّ ثقلاً فى أجفانه . وطالعه وجه باسم فأغمض عينيه ثم فتحهما كأنه لا يصدق مايرى . وكان دوى القنابل وأزيز الطائرات وأنات الجرحى كلها أصوات لا تزال تطن فى أذنه فــكان يهب من رقدته فزعاً وأحياناً كان يهذى بكلمات غير مفهومة وأحيانا أخرى كان يصرخ . . وقد استمرت هذه الحالة طوال يومين وكان الأطباء فى قلق عليه ، ثم اجتاز مرحلة الخطر . .

وكان أمين قد تلقى النبأ من أحد زملاء أخيه المقربين فأسرع بالسفر إلى الإسكندرية بسيارته ووقف بجانب مراد طوال اليومين

obeikandi.com

اللذين استمر فيهما يهذى . . ولم يشعر مراد به إلاّ حين فتح عينيه فطالعه وجه الممرضة الجميلة التى سهرت على العناية به . وحاول أن يتقلب على جنبه الآخر فتأوه ألماً من جرح شديد فى كتفه . وحانت منه نظرة فإذا بأمين ينحنى عليه بعينين يطل منهما الألم والحنان ، فابتسم حين رأى أخاه بينما قبله أمين وهو يبكى . .

كان أمين فى أشد حالات الخوف على حياة أخيه وقد أجرى له الأطباء عملية نقل الدم مرتين . ولم يرتح باله إلاّ حين أخبره الأطباء بزوال الخطر تماماً . . وإذ ذاك فقط اطمأن وراح يفكر فى والده وكيف ينهى إليه الخبر وفى سناء خطيبة أخيه . . لقد هذى مراد كثيرا باسمها وهو راقد . . وفكر أمين أن يرسل إليها برقية ولكنه خشى وقع البرقية على قلبها الرقيق المفرط الحساسية .

ورفع مراد وجهه إلى أخيه وقال بصوت بدا فيه الإعياء والدهشة :

— يا إلهى ! . . أين أنا ؟ ! ترانى جريح ؟ ! فنظر إليه أمين فى إشفاق وقال :

— جرح بسيط والحمد لله . وقد كنا فى خشية عليك لكثرة ما نزف من دمك . .

فقال مراد :

— هل علمت والدتى ؟ . . وسناء هل أخبرتها ؟ !

— لقد أرسلت برقية إلى والدك اليوم . أما سناء فلم أشأ أن أعلمها حتى لا يصدمها النبأ وأنت أدرى الناس بمدى حساسيتها وتعلقها بك . .

فسكت مراد وأطبق جفنيه ، بينما مر أمين بيده على جبينه فأحس بالاطمئنان التام حين وجد الحرارة انخفضت عما كانت عليه من قبل . .

وعاد أمين إلى التفكير فى كيفية إنباء سناء بالخبر غير السار وخاصة حين رأى مراد يحب أن يراها بجانبه . . حتى لقد فكر فى أن يسافر ويحضرها معه ، وكادت هذه الفكرة تختمر فى ذهنه لولا أن أخاه أخذ يتأوه ويشكو من آلام شديدة فى فخذه الأيمن ! . . ونبذ أمين فكرة السفر حتى لا يترك أخاه فى آلامه وحده . .

وفى تلك الأثناء دخل اثنان من الضباط كان منهما الضابط الذى حمل مراد إلى الخندق وهو جريح ، وجلس الضابطان بجانب مراد بعد أن شدا على يد أمين حين عرفا صلته بزميلهما الجريح . . وقال أحدهما بعد برهة وهو ينظر فى ساعته :

— إنى مسافر يا مراد بعد دقائق . . هل تريد شيئاً من مصر ؟

فهز رأسه نفياً بينما سطعت فى ذهن أمين فكرة فتقدم من الضابط وسأله :

— أنت مسافر إلى القاهرة الآن ؟ ! فقال الضابط مؤكداً :

— نعم وسأعود بعد يومين . . هل من خدمة أستطيع تأديتها ؟
فقال أمين بعد أن انتحى به جانباً :

— نعم تستطيع أن تؤدى خدمة جليلة لصديقك الجريح ! وإنى أكون ممتناً إذا ذهبت بمجرد وصولك إلى المنزل رقم ١٦ بشارع المدارس بالروضة وقصدت شقة كاظم أفندى التركى وأنهيت إليه خبر إصابة أخى بطريقة رقيقة ، فإن ابنته خطيبة أخى وأظنك ترى معى أن وجودها الآن بجانبه سيساعد على سرعة إبلاله . . فأبدى الضابط استعداده التام وتحمسه لتنفيذ ما عرض أمين ؛ فشد أمين على يده وصافح الضابط زميله وربت على خد مراد وانطلق خارجاً . ولبث زميله بعده قليلا ثم انصرف وجلس أمين بجانب أخيه يحاول أن يسرى عنه بالحديث واشتركت معه الممرضة الحسناء . .

وكان أمين فى حالة إنهاك شديد نظراً لاستمرار سهره بجانب أخيه الجريح ليلتين كاملتين . وأحس بخدر يسرى فى أعضائه وخاصة حين رأى النوم قد غلب مراد و بسط سلطانه عليه فاستسلم للنعاس وهو جالس فى مكانه ، وابتسمت الممرضة حين رأته نائما ولم تشأ أن توقظه ! . .

وفزع أمين من نومه على صوت أخيه يناديه و يطلب منه كوب ماء ؛ فهرع وأحضرها إليه فشربها عن آخرها وكان محتقن الوجه ... وأشار إلى عنقه قائلا :

— إنى أشعر بجفاف شديد فى حلقى . . هل أستطيع تناول كوب أخرى ؟ ! فهم أمين بإحضارها له لولا أن دخلت الممرضة ورأته فقالت له محذرة :

— نصف كوب فقط للمريض ! ! فاضطرب أمين ولم يدر ماذا يفعل فقد أعطى أخاه المريض كوباً كاملة وها هو يهم بأن يلحقها بأخرى لولا لطف الله بمراد الذى أوشك من غير شك أن يؤذيه . .

ورأى أن من الخير أن يخبر الممرضة بحقيقة الأمر فقال مرتبكا :

— لقد قدمت له منذ لحظات كوب ماء شربها عن آخرها وهو يطالب أخرى لأن حلقه جاف ! ! فأبدت الممرضة فزعها لقوله ونصحته بأن يناديها كلما طلب المريض شيئاً فهذا أسلم ! . .

وتقدمت الممرضة من مراد ووضعت فى فمه ميزان الحرارة بينما وقف أمين يرقبها باهتمام . و بعد قليل أخرجته فإذا بحرارة مراد قد ارتفعت قليلا فقطبت الممرضة جبينها بينما تقدم أمين ليرى درجة الحرارة فإذا بها التاسعة والثلاثين ! . . ولم يرتح أمين لارتفاع الحرارة ثانية وخشى أن تعاوده الحمى ويأخذه الهذيان . .

و بالل يده بماء الكولونيا ومر بها على جبين الجريح فتململ ومالبث أن أطلق صرخة خافتة . . فقد آلمت الحركة كتفه الجريح فكف أمين وهو ينظر إليه و يود لو استطاع أن يحمل عنه بعض آلامه . .

ومضت نصف ساعة وأغفى المريض إغفاءة أخرى وتركه أمين، وغادر الغرفة وسار في الممشى الطويل ؛ ثم وقف إلى نافذة قريبة يستنشق بعض الهواء النقي ، وتقدمت منه الممرضة وقالت :

— لا تقلق إن حالة أخيك حسنة ، ولا تعبأ بهذا الارتفاع الطفيف في درجة الحرارة فسوف يزول حالا .. فشكرها أمين على عنايتها بأخيه ، وحيته الممرضة وابتعدت في خطوات رشيقة نشطة . وطرقت أذن أمين آهة حسب أنها من غرفة أخيه فهرع إليه فإذا به غارق في نومه فعجب أمين وأيقن أن أعصابه متوترة .. وألقى نظرة على وجه مراد ثم غادر الغرفة في سكون خشية أن يوقظه ، وعاد إلى مكانه بقرب النافذة وأخذ يملأ صدره من النسيم المنعش . ونظر في ساعته فإذا بها قد قاربت الرابعة ، وتذكر أن الضابط لابد وأن يكون قد بلغ القاهرة من ساعتين على الأقل . . وأخذ يتخيل سناء وهي تسمع النبأ ، ولم يشك في أن الخبر سيكون مفاجأة شديدة لقلبها الرقيق ، فقد كانت إذا ما توعك مراد قليلا تألمت له غاية الألم وودت لو كانت هي المتوعكة لا هو . .

وكان أمين يعجب لأمرها ويعجب لذلك الحب العجيب الذي يصل بين قلب أخيه وقلب هذه الغادة التركية الجميلة .. واستمر في وقفته طويلا حتى سمع خطوات الممرضة ، ولما اقتربت منه قالت في دهشة :

— أما زلت واقفاً لم تغادر مكانك ؟ ! لقد مضى عليك أكثر

من ساعة فى وقفتك ؟ ! فنظر أمين فى ساعته فإذا بها الخامسة ! وأحس بالجوع ينهش معدته بعد أن أمضى يومى المحنة التى اجتازها أخوه بغير طعام . فلما انجابت هذه المحنة واطمأن قلبه على أخيه الحبيب أحس بالجوع . . وهم بأن يسأل الممرضة عن مكان قريب يستحضر منه « ساندوتش » ولكنه خجل . .

وسُمعت ضجة فى الممشى الطويل وتبين خلالها صوت أجش لفت أنظار أمين إلى مصدر الضجة ، و بعد قليل استطاع أن يميز شبح والده الشيخ وقد اصطحب معه ناظر العزبة ! . .

وقد حضر الحاج عبد الشافى على أثر البرقية التى تلقاها من أمين فى الصباح ، وتقدم منه أمين وصافحه وقبل يده . ثم صافح ناظر العزبة وتقدم الشيخ إلى غرفة ولده الجريح ولكن أمين أخبره أنه مستغرق فى النوم فقال الحاج عبد الشافى محتجاً :

— ولكنى أريد أن ألقى نظرة عليه فأنا لم أره من أكثر من أربعة شهور . . حتى عطلته شاء أن يمضيها بالقاهرة ! فسمح له أمين بأن يراه على شريطة ألا يوقظه . وفتح الباب وتقدم الأب الشيخ من الفراش الذى يرقد عليه ولده وألقى نظرة على محياه وسمع تنفسه المنتظم أثناء نومه فأحس بقلقه يزول . . وقال لأمين وهو يتراجع و يغلق الباب فى حذر . .

— أنه بخير والحمد لله .. لقد خشيت أن يكون قد حاق به مكروه لا قدر الله !

فقال أمين ليزيد فى اطمئنان والده :

— إنها إصابة طفيفة فى كتفه وأخرى فى فخذه ولولا ما نزف من دمه لكان الآن فى عمله .. فأجفل الحاج حين تذكر طبيعة العمل الذى سيعود إليه ولده عقب إبلاله . وأرسل من أعماقه أنة حزينة ، وكانت الممرضة داخل الحجرة فخرجت متوجهة إليهم وأسرت إلى أمين أن المريض استيقظ ويمكنهم الدخول والجلوس معه .. ودخل الجميع .

وسر مراد كل السرور لرؤية والده وكان يحسب ألف حساب لهذه المقابلة ! فهى المرة الأولى التى يراه فيها بعد خطبته لسناء ..

وحاول أن ينهض ليقبل يد والده ولكنه أحس بكتفه يؤلمه ، فعاد إلى مكانه بينما انحنى والده يقبله بين عينيه وربت على وجنته قائلا وهو يضحك ، وإن كان التأثر باد فى نبرات صوته :

— كنت انتظر هذه المقابلة بصبر نافد فإن لى معك حسابا طويلا أريد أن أصفيه ! ولم أكن أحسب أنى سألقاك وأنت جريح فى فراشك .

ومد يده يحاول أن يمنع دمعتين سقطتا على الرغم منه وانحدرتا على وجنتيه المجعدتين ..

وابتسم أمين وهو يدرك ما يعنيه والده وأطرق ..

obeikandi.com

وكان ثمة ضجة وأصوات أقدام تقترب من الباب الذى ما لبث أن فتح وظهرت به سناء ! !

سناء بقامتها الفارعة وطلعتها الساحرة التى لم يستطع الشحوب الشديد فيها أن يخفى جمالها الآسر .. ونظرت إلى حبيبها الراقد فى فراشه وتقدمت منه فى بطء وهى تحس قلبها يصرخ من أجله . وجثت بجانبه فنظر إليها مراد بعينين ملؤهما اللهفة والحب والشكران وهتف فى فرح :

— سناء ! ! . . وانفجرت سناء باكية . .

وكان الحاج عبد الشافى لم يفق من الذهول الذى استولى عليه لذلك المشهد الرومانتيكى . وعرف سناء ومن تكون وخاصة حين تقدم كاظم أفندى وصافح أمين فى صمت . . وكان الضابط قد بادر إلى بيت كاظم أفندى حال وصوله وأنهى إليه الخبر فحزم كاظم أفندى أمره على السفر فى الحال . وأخبر سناء فكادت تجن للنبأ وأصرت على مرافقة والدها مادام مسافراً بسيارته الصغيرة . .

وقدم أمين كاظم أفندى لوالده بقوله :

— عمى كاظم أفندى التركى ، والد سناء خطيبة مراد ! . . وقال لكاظم أفندى مقدماً والده :

— والدى الذى كنت أرجو أن يتم التعارف بينكما فى ظرف أحسن من هذا ! ! . .

فابتسم كاظم أفندى وحيا الشيخ الوقور فى أدب وإكبار ، بينما صافحه الحاج بكلتا يديه وقد أعجبته سيماء الطيبة والأصل الكريم المرتسمة على وجهه . .

وكانت سناء لا تزال تنشج وقد تناثرت خصلات شعرها البنى المذهب على فراش مراد فمد الشيخ يده وربت على كتفها فى حنان وهو يقول متأثراً :

— كفى يا ابنتى . . إنه بخير . وقامت سناء وقد بلل الدمع خديها الجميلين فنظر إليها الحاج عبد الشافى وتأملها من رأسها إلى قدميها وقال :

— ما شاء الله ! . . إنك تفوقيننى طولا يا فتاتى ! ؟ سبحان الخلاق ما هذه الحلاوة ؟

والتفت إلى ولده الجريح مداعباً وقال :

— يا لك من ولد ماهر ! . . كيف استطعت التوفيق إلى غادة بهذا الحسن ؟ ! إنها حورية من الجنة من غير شك ! !

فسر الجميع لهذا القول ، وابتسم ناظر العزبة ابتسامة عريضة ، فقد كان يحب مراد وطالما حمله على كتفه وهو طفل ، وأطرقت سناء وهى تنظر إلى حبيبها الذى أشرقت أساريره لإطراء أبيه وكاد يطير فرحاً . . وأحس أنه سليم معافى يستطيع أن يغادر فراشه لو شاء . . وقال فى نفسه « عسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ! » .

وقهقه الحاج عبد الشافى وهو يتابع حديثه :

— لا شك يا كاظم أفندى أن الحور العين من الترك والجركس . أليس كذلك ؟

فضحك الجميع وكان أسعدهم ولا شك مراد . . وطرب الوالد الشيخ لرؤية سناء وفرح بها فرحاً شديداً وكأنه عثر على لؤلؤة ثمينة ! ؟

وكانت سناء تشعر بالسعادة والألم وهى تحس نبضات يد مراد المحمومة . . .

وتذكر مراد أن أحد زملائه أخبره بوجود محمود بالإسكندرية ولكنه لا يعلم بإصابة صديقه ، فطلب إلى أمين أن يعمل على الاتصال به بأية وسيلة لأنه فى شوق شديد إليه . .

وحضر محمود صباح اليوم التالى وقد أخذه الجزع على صديقه الحبيب ، وكانت سناء وحدها مع مراد بينما تأخر الحاج عبد الشافى وناظر العزبة وكاظم أفندى وأمين فى مقهى مجاور .

ودخل محمود على صديقه العزيز وارتمى عليه وقبل كل جزء فى وجهه وهو يبكى مما دفع الدموع إلى عينى مراد ، ورأت سناء ذلك المنظر وكان مراد كثيرا ما حدثها عن صديقه الأوحد واستدارت وهى تخفى دموعها . .

وفطن محمود بعد فترة غير قصيرة إلى وجود سناء فتأملها فى دهشة ،

وابتسم مراد وفرح فقد كانت هذه الفرصة التى ينتظرها من زمن . . وقدم كل منهما للآخر قائلا :

— خطيبتى سناء . . صديقى العزيز محمود . . ألاَ يطابق الصورة التى رسمتها لك عنه ؟ ! ومدت سناء يدها إلى يد محمود الممدودة وكان محمود رائع المنظر فى قوامه الرياضى و إن كان أقصر قليلا من مراد . .

وتأملها محمود مشدودهاً مأخوذاً بجمالها الباهر ، ورأى فيها تلك الطالبة المجدة التى صادفها وصديقه منذ سنوات بأحد شوارع الروضة وحسبها مراد أوروبية ! بينما استرعت عينى محمود إذ ذاك تلك المسحة الشرقية فى وجهها الجميل الناصع البياض . . وابتسم محمود لهذه الذكرى ...

وأمضى مراد وصديقه وخطيبته وقتاً مرحاً ممتعاً . .

واستمر مراد فى المستشفى أسبوعين ، وقبل أن يغادره كان قد صدر الأمر بنقله إلى القاهرة . .

وحضرت سناء ووالدها إلى المستشفى فى اليوم المحدد لخروج مراد ووجدا هناك الحاج عبد الشافى وأمين . . وغادر الجميع المستشفى وسناء تكاد من الفرحة الغامرة تبكى !

الفصل الثامن والعشرون

عجب توفيق لأنه لم ير سناء يومين متواليين وهو الذى كان يراها عشرات المرات فى اليوم الواحد . . يراها فى صعوده إلى غرفته وهبوطه منها . . يراها فى شرفتها ويراها فى الطريق ، وسأل عنها والدتها ذات يوم فأنبأته بخبر إصابة مراد فأسف لذلك أشد الأسف ، فهو وإن لم يجالس مراداً أكثر من مرة أو مرتين إلا أنه أحبه وأكبر أخلاقه العالية ورجولته البادية فى كل حركة وكل كلمة تصدر منه . . وأكبر فيه أيضاً حبه القوى لسناء حتى ليكاد يقبل موطىء قدميها الصغيرتين ! ! . . وأحسّ توفيق بوحشة وكآبة حين وجد البيت خاليا من سناء وكأنما هى شمس صغيرة تطلع على البيت فتملؤه حياة وبهجة وإشراقاً ! وكانت سناء فى نظر توفيق المثل الأعلى للجمال الرفيع والأنوثة الرقيقة المكتملة !

وانتقل به التفكير فجأة إلى مرفت ! تلك الثرية الأنيقة . . إنه لا يستطيع أن ينكر أنها تركت فى نفسه أثراً . . نعم لقد استهوته أناقتها الفريدة كما فتنه قوامها الرياضى ، وإن كان قوام سناء التى لم تزاول فى حياتها أى نوع من أنواع الرياضة أكثر رشاقة وجمالا ! !

وأكثر ما أعجب توفيق من ميرفت قوة شخصيتها وجرأتها ، فهى تستطيع أن تتحدث إلى أى إنسان دون حرج أو مهابة ، وتستطيع أن

تجبر محدثها على احترامها والإعجاب بها . . وأخيراً أعجبه منها براعتها في العزف على البيانو . .

ومن العجيب أن القطع التي عزفتها أمامه في النادي الأهلي كانت من منتخباته الموسيقية المختارة . . وحاول أن يتخلص من هذه الخواطر التي تدور حول إنسانة بينه و بينها ما بين السماء والأرض ، بعيدة عنه بعد القمر عن الفراش الذي يتوق إلى التحليق حول هذا الإله الصغير في سناه وضياه ! . .

ولكن تراه هو الآخر يحب أن يحترق بنارها كما يهيم الفراش بوهج النار حتى ليقذف بنفسه فيها ؟ ! ! . .

وكان يحس من أعماقه بهاتف يقول :

— إنها تعجبك ، ولا شك أنك أعجبتها . . ألم تلحظ نظراتها المصوبة إليك كلما كنت منصرفاً عنها حتى إذا نظرت إليها أطرقت واحمر وجهها ؟ ؟ ! !

وأحسّ توفيق بقلبه يصغي إلى هذا الهاتف و يستكين إليه . .

نعم كان توفيق يحب المرأة من أعماقه و يرى أنها سلوة الدنيا و بهجة الوجود . . ومع ذلك كان يعيش وحيداً متحاشياً الاقتراب من أية امرأة ! . . فقد كان ثمة رأى آخر يؤمن به وهو أن المرأة وحدها هي التي تستطيع أن تهدم الفنان أو البطل ! لذلك عاش وحيداً في وحشته لا يؤنسه سوى أفكاره وخواطره حتى التقى بسناء فأضاءت جانباً من

حياته المظلمة ، ولكنها لم تملأ قلبه أو تعود بروحه الظامئة إلى شاطىء الأمن والسكينة الروحية . . .

ولكن هل تستطيع روح الفنان أن تسكن وتهدأ وتستريح ؟ !
إنها أبداً ثائرة قلقة حائرة محوّمة حول الجمال حيث وجد !

وهز توفيق رأسه كأنما هو يريد التخلص من هذه الأفكار ، وظلت صورة ميرفت ماثلة فى خاطرة لا تريد أن تبرحه . . .

وذات يوم حضرت ميرفت لتستفسر عن أنباء مراد وسناء ، وصعدت الدرج وضغطت الجرس فلم يجبها أحد ، ووجدت نفسها تنظر إلى أعلا حيث يقطن توفيق ! ! ونازعتها نفسها غير مرة إلى الصعود إليه للسؤال عن سناء ! ولكنها خجلت وعجبت لجرأة أفكارها . . كيف تراودها نفسها الصعود إلى غرفة طالب شاب غريب يعيش بمفرده ؟ ! هى الثرية الراقية ربيبة القصور وهو الطالب الفقير المجهول ! !

وتمنّت فى تلك اللحظة لو أطل عليها أو صادفها فى صعوده إذن لحققت رغبة قلبها فى لقائه والحديث إليه ، واستمرت فى وقفتها دقائق ثم هبطت الدرج كاسفة ! . .

وهمت بركوب سيارتها لولا أن لمحت توفيق بقوامه الطويل وجبينه العريض المرتفع وشعره الأسود المهمل . . .

ووجدت نفسها رغم جرأتها ورغبتها الخفية فى لقائه . . . وجدت

نفسها تركب السيارة وتدير محركها وكأنها لم تره أو كأنها تبغى الهروب من خطر محدق ! ! ورأى توفيق السيارة وعرف صاحبتها فخفق قلبه واقترب منها فإذا ميرفت فى أتم زينتها و بهائها ، وصوب إليها إحدى نظراته المعجبة النفاذة فاستولى عليها اضطراب شديد هذه المرة فقد أطال التحديق فى وجهها وطالعها فى بريق عينيه السوداوين شىء جديد لم تره من قبل ! . . هو الإعجاب الممزوج بالرقة .

وابتسمت ميرفت لتخفى ارتباكها وردت على تحيته .. وقال توفيق :

— لم تحضر سناء بعد . . وقد طالت غيبتها ولكننى علمت من جيهان هانم أن مراد بخير .

وتململت ميرفت وقالت وقد بدا القلق فى نظراتها :

— ولكن غيبتها طالت يا أستاذ توفيق ! . . فقال توفيق ضاحكا :

— لا يأخذنك القلق عليها فحسبها أنها بجوار خطيبها ! .

فأطرقت ميرفت ولم تجب . . ولما رفعت عينيها وجدت توفيق ينظر إليها ! تماماً كما كانت تفعل معه كلما كان متشاغلاً بالنظر إلى جهة أخرى . . واحمر وجهها وقالت فى ارتباك :

— أتريد الذهاب إلى مكان ما فأوصلك بسيارتى ؟ ! فشكرها توفيق وعيناه لا تفارقان محياها الجميل . . ووجد نفسه يقول بغير إرادة منه :

— ولكن إذا شئت التكرم بانتظارى بضع دقائق حتى أعود

فإنى أكون جد شاكر ! فابتسمت ميرفت وتسارعت دقات قلبها وقالت :

— لا مانع . . فلست على عجالة . .

وهرول توفيق إلى غرفته وكان قلبه يدق بشدة لم يعهدها من قبل . ووضع الكراسة التى كانت بيده وحانت منه التفاتة إلى المرآة وتقدم منها وأخذ يصلح رباط عنقه ومر بيده على شعره الأشعث ولم يعتد هذه الفعلة من قبل ! . . وأغلق باب حجرته وهو يعجب لتصرفاته الشاذة التى كان يؤديها على الرغم منه ! ونزل إلى الحسناء الثرية المنتظرة !

وفتح توفيق باب السيارة الخلفى وجلس فى صمت ، ونظرت إليه ميرفت فى دهشة وحياء وقالت :

— ألك رغبة فى الجلوس منفرداً ؟ ! فخجل توفيق وقال :

— خشيت أن يضايقك جلوسى بجانبك ! .

فقالت فى عجب واستنكار :

— ولم ؟ ! فأجاب الفتى فى خجل وقد تخلى عن كبريائه لأول مرة :

— إنك غادة غاية فى الأناقة والثراء ، مرموقة من المجتمع ، وأنا شاب فقير خامل لست على شىء من الأناقة . . وسكت هنيهة ثم قال :

— ثم أنك مخطوبة . . فماذا عسى أن يقول الناس إذا رأونى جالساً إلى جانبك فى السيارة ؟ فقالت ميرفت وقد تسارعت دقات قلبها غضباً وانفعالاً وكأنها أهينت :

— ماذا تقول يا أستاذ ؟ ! إنك تهينني بهذه الكلمات . . إننا نعيش فى القرن العشرين ؟ .. أم أنك ترانى غير أهل لأن تجلس بجانبى ؟!
فأطرق توفيق خجلا ولأول مرة يشعر بالارتباك إزاء امرأة ! . .

ونظر إليها فواجهت نظراته فى جرأة هذه المرة فترجل فى صمت وركب إلى جانبها وجذب إليه باب السيارة ! . .

وكان توفيق لا يعرف له وجهة معينة يقصدها ! . . وأخذ يفكر فى مكان يذهب إليه بينما انطلقت ميرفت مسرعة إلى كوبرى عباس.. وكأنما هى أحست أنها تسير بسرعة غير معهودة بغير داع فخففت سرعتها وانحرفت السيارة يميناً بعد أن اجتازت الكوبرى وسارت متمهلة على شاطىء النيل الهادىء الجميل . .

وكم أحس توفيق بالامتنان لها فقد كان أشد ما يكون شوقاً إلى النيل ! صديقه العزيز . . وكان فى قلبه الكثير مما يريد أن يفضى به إلى ذلك الصديق العظيم الكتوم . .

وانتهت بهما السيارة إلى كازينو جميل على النيل فأوقفت ميرفت سيارتها والتفتت إلى توفيق قائلة فى حياء وكأنما هى عرفت أنه لم يكن يبتغى من الركوب معها سوى صحبتها !

— إنى أدعوك إلى قدح من الشاى فى هذا الكازينو الهادىء ! فهل تقبل دعوتى ؟ ! فقال توفيق باسماً وقلبه يدق فى شدة :

— إنك تقلبين الأوضاع يا آنستى ؛ فقد جرت العادة على أن يكون الرجل هو الداعى ! فأطلقت ميرفت ضحكة رقيقة وقالت :

— ومتى عرفتنى يا أستاذ أعترف بالأوضاع التى تعارف الناس عليها وصاروا عبيداً لها بحكم التكرار والاعتياد ؟ ! فرمقها توفيق بنظرة فيها الكثير من الإعجاب . وهبط معها وساراً نحو الكازينو الهادى وصعدا إلى السطح الذى كان غارقاً فى أشعة الشمس فى ذلك اليوم الصحو من أيام الشتاء . .

وجلسا إلى مائدة فى الطرف وجعل توفيق يسرح نظره فى النيل الساحر وهو يفتح صدره للنسيم المنعش . .

وكانت ميرفت تتأمله فى نظراته الحالمة الساهمة وهى تحس فى أعماق نفسها بالإعجاب الشديد به فقد بدا عليه سيماء الفلاسفة أو المفكرين !

وقالت ميرفت بعد فترة :

— أتريد أن أقول لك بماذا يذكرنى منظرك هذا فى سهومك وشرودك ؟ فابتسم توفيق وقال :

— نعم . . بماذا يا ترى ؟ فقالت ميرفت ودقات قلبها تتسارع :

— إنك تذكرنى بأديب موهوب شاهدت قصته فى أحد الأفلام منذ سنوات وقد ظل حتى العقد الرابع من عمره مغموراً مجهولا رغم كثرة إنتاجه . إذ لم يتقبل الناشرون منه كتبه وكلها تحوى أفكاراً وآراء

ومذاهب جديدة قيمة . . وكتب هذا الأديب أقاصيص كثيرة فكانت جميعها تبوء بالفشل ! واضطر إلى السير على نهج الأدباء القدماء فذاع اسمه وبزهم جميعا ، واستطاع بعد سنوات أن يقدم إلى الناشر كتبه وأقاصيصه الأولى فنالت شهرة واسعة وأحدثت ضجة كبيرة فى عالم الفكر والأدب ، وقيل إنها فتح جديد فى الكتابة والأدب ! !

واستطردت ميرفت تقول كالحالمة :

— وقد استهوتنى هذه القصة فشاهدت الفيلم مرتين ! ولست أدرى لماذا كلما نظرت إليك تذكرت هذه الشخصية . . رغم أنه لا يشبهك فى شىء ؟ !

وكان توفيق طوال حديثها يصغى إليها ملتذاً بجمال حديثها ، وكان يتوق من زمن أن يعرف رأيها فى شخصه وارتاحت نفسه واطمأنت كبرياؤه حين وجد أنها تنزله من نفسها منزلة عظيمة وتتوسم فيه النبوغ الكامن . . وشكر لها حسن ظنها به وقال ساهماً :

— إن كل همي يا آنسة ميرفت أن أشتغل بشئون الفكر والأدب ، وقد كدت أهم بالالتحاق بكلية الآداب لولا أنى أكره التدريس ، كما أن دراسة القانون تستهوينى وخاصة مادتى الاقتصاد وتحقيق الجنايات . .

وقالت ميرفت فى إيمان وثقة :

— لا شك أنك ستكون أديباً ناجحاً وإن لم أقرأ شيئا من

كتاباتك إلا أن سناء حدثتني عنك كثيراً وهي في مقدمة المعجبين بك . وأظن رأي إنسانة مثقفة واسعة الاطلاع مثل سناء رأي له قيمته .

فقال توفيق مطرقاً . .

— سأحاول أن أقدم إليك بعض كتاباتي لعلي أحظى برضاك عنها . .

فقالت ميرفت وقد تضرج وجهها في شبه همس :

— وهل يهمك رأيي أنا الأخرى ؟ ! فقال توفيق في حرارة وهو يثبت عينيه في وجهها الجميل :

— وإنما رأيك هو الذي يعنيني ، فإن من أمانيّ أن أكون محل رضاك . . و . . إعجابك ! ! فخفق قلب ميرفت بشدة ولم تكن قط تتوقع هذه الكلمات منه وقالت :

— إني أقرأ قليلا في الأدب . . ثم أطرقت ورفعت رأسها بعد هنيهة محمرة الوجنات متألقة العينين وقالت :

— كما إني لم أتوقع أن أنال إعجابك يوماً . لقد بدا لي أن هذا أحد المستحيلات ! فقال توفيق وقد تخلى عن تحفظه دفعةً واحدة :

— لقد حزتِ إعجابي أول يوم رأيتك فيه ، وأصارحك القول إني حاولت التخلص من هذا الاعجاب وكدت أفلح ، لولا أن رأيتك تعزفين في النادي الأهلي فلم أتمالك نفسي من التصفيق لك ، وأحسست بعد

هذا رغبة غريبة ملحة فى العزف لا لأنى أردت التسلى بالعزف ، ولكن لأنى أحسست رغبة عنيفة غلابة فى أن أحظى باعجابك ! !

وقالت ميرفت وقد توردت وجنتاها أكثر مما قبل . . قالت نشوانة وكأنها فى حلم :

— وقد كنت رائعاً حقاً يا توفيق ! . . لقد رفعتنا إلى سمائك وجعلت روحينا تحلقان وترقصان من النغم . .

وخفق قلب توفيق خفقة اليقظة السعيدة وهو يسمع اسمه المجرد من شفتى هذه الغادة الأرستقراطية الأنيقة . . كانت هى البادئة برفع الكلفة و إزالة الفوارق . . لله ما أرقها وأطهر قلبها ! . .

وقال توفيق وكأنه فى حلم لا يريد أن يستيقظ منه :

— أشكرك يا ميرفت رقتك وجميل شعورك نحوى . . إن نبلك لا يقل عن جمالك وأناقتك . . لا شك أنى سعيد بمعرفتك والجلوس إليك . .

فقالت ميرفت متهدجة الصوت متلاحقة الأنفاس :

— وأنا الأخرى سعيدة يا توفيق . . وكنت سعيدة دائماً وأنا معك . . كل لحظة قضيتها معك كنت أستعيدها وأستحضرها فى خاطرى كلما خلوت إلى نفسى . . وفى كل مرة كنت أقابل سناء كنت أهم بالسؤال عنك لولا خجلى . . ثم نظرت إليه بغتة وقالت فى نبرة غريبة وقد ومضت عيناها :

— توفيق . . إن دنياك تستهوينى وتسحرنى !

فقال توفيق ساهماً :

— ولكنى أعيش دائماً فى السحب ! فقالت مسبلة العينين :

— ما أجمل أن يعيش الإنسان فى السحب . . معك . . نحلق روحان طليقان سعيدان ! ! . .

فامتدت يد توفيق على غير وعى منه وقبضت على يدها الجميلة الصغيرة بقوة . فمدت ميرفت يدها الأخرى وضغطت بها على يد توفيق الخشنة الكبيرة بينما كانت عيناها تفيضان بما فى قلبها من مشاعر وأحاسيس متأججة . . واهتز توفيق لكلمات ميرفت وضغطة يدها الناعمة البضة وأحسّ أن هذه الحسناء الأنيقة قد كبلته بقيود لن يستطيع التحرر منها ، ولم يكن يتصور قط أن تسير الأمور على هذا النحو . نعم هو قد حلم بها وتمنى فى قرارة نفسه لو أسعده الحظ بالجلوس معها فى خلوة والنظر إلى عينيها . . لله ما أجملها ! ؟ وها هو القدر يهيىء الخلوة . . وها هو يفتح قلبها لحبه . . هو الذى يعشق الطبيعة ويخشى النساء ! . .

وأصرّ توفيق على دفع الحساب ، فمانعت ميرفت أول الأمر ولكنها رضخت لمشيئته حينما رأت أصراره . . ومن الغريب أنها أحست بسعادة وهو يدفع حسابهما ! وسارا متجاورين إلى السيارة وركبت وركب إلى جانبها وقالت مداعبة :

— تراك سعيدا بالجلوس إلى جانبي أم أنك تجدنى لم أستحق هـذا الشرف بعد ! ؟ . . فنظر إليها توفيق وتأمل يديها الجميلتين القابضتين على عجلة القيادة . . ونازعته نفسه إلى تقبيل تلك الأصابع الطويلة العاجية ولـكنه أجفل واضطرب قلبه حين رأى خاتماً ماسياً يلمع سناه فى إحدى أصابعها ! . . وارتجف قلبه حين تذكر أخيراً أنها مخطوبة . .

ووجم وامتلأت نفسه غماً . . لقد أحسّ نحو نفسه بالازدراء . . كيف يجرؤ على مغازلة فتاة مخطوبة ؟ ! كيف تسوغ له نفسه أن يستمتع بمحاسنها و يحلم بقربها ؟ !

وابتعد عنها قليلاً ، وأحسّت ميرفت منه هذه الحركة فهدأت سرعة السيارة و نظرت إليه فى هلع ودهشة فرأت وجومه وامتقاع وجهه ولمحت خطوط الألم تـكاد تـكون واضحة على جبهته العريضة . .

وأوقفت السيارة فى ركن هادىء ونظرت إليه متسائلة فى دهشة وعذوبة :

— ماذا بك ياتوفيق . . أتتألم من شيء ؟ ! فقال توفيق في أطراقة :

— لا يا آنستى . . فقط رأيت صرح آمالى ينهار فى لحظة ! !

فاضطرب قلب ميرفت وقالت جزعة :

— ماذا تعنى ؟ ! فقال فى مرارة وهو يحول عينيه عنها إلى النيل :

— أعنى أنه لا حق لى فى اختلاس هذه اللحظات السعيدة التى لا شك ستظل محفورة فى ذاكرتى إلى الأبد . . إنك مخطوبة لإنسان آخر لا شك يحبك وتحبينه . . يالى من غر مجترىء ! ؟

وآلمت ميرفت هذه الكلمات المريرة الساخرة وإن كانت هى الأخرى قد فكرت فى خطيبها منذ برهة . . وقالت فى تأثر وجرأة وهى تقترب بوجهها من وجهه :

— توفيق . . أتحبنى ؟ ! ! فأجفل توفيق وأبعد وجهه قليلا وقال فى ألم :

— إنى إنسان قضى عليه أن يعيش محروما من أجمل أمل طاف بخياله . .

فقالت ميرفت وهى تقبض على ساعديه بقوة :

— توفيق . . لا تقل هذا . . لقد أسرت روحى منذ اليوم الأول الذى تقابلنا فيه . . وقد أيقنت منذ التقت أعيننا أنى وجدت أخيرا الروح التى أبحث عنها . . لن أكون إلاّ لك . . إذا كنت تريدنى . . وسأفسخ خطوبتي من ذلك الإنسان الذى أعرف سرّ تقدمه لخطبتى والذى لم يخفق قلبي له مرة واحدة ! !

فقال توفيق فى دهشة وإنكار وإن كان ماسمع قد أفرح قلبه :

— ولكنى سمعت من سناء أنك متعلقة به !؟ فقالت مسارعة :

— هذا ليس صحيحاً ، وإنما أنا رضيت به رغبة فى قطع الطريق على ابن خالى الذى لا أستسيغه وكان يرغب من زمن فى الزواج منى ! !

فأطرق توفيق ملياً وإن لم يخف على عين ميرفت الفاحصة أنه فوجىء بهذه المعلومات وسُرّ بها . . ورفع توفيق رأسه ببطء بعد فترة طويلة وكأنه يحمل عبئاً ثقيلاً :

— ميرفت . . أيتها الرقيقة الغالية . . لندع هذه السخافات فلست لى ولست لك . . كلانا يختلف عن الآخر تمام الاختلاف ! ! ثم إننى إنسان لا يفكر فى الزواج ولن أفكر فيه إذ أنى أضيق ذرعاً بقيوده وتكاليفه وليس فى الوجود شىء أثمن عندى من حريتى . . فلنفترق منذ الآن صديقين ! !

وريعت ميرفت وصاحت والدموع تملأ عينيها السوداوين الجميلتين :

— لا يا توفيق . . لا تقل هذا . . لا أريد أن أحرم من الحب . . . لقد كنت أغبط سناء على سعادتها كلما كانت تفضى إلى بحبها ، وها أنا ذا أهم بأن أمسك بالسعادة التى أنشدها لقلبى وتهفو إليها روحى فإذا بها تفر من يدى . . فقال توفيق وقلبه يئن ويتلوى من الألم :

— يا صديقتى الجميلة . . قد أكون أعجبتك من بعض نواحٍ الآن ، ولكن إذا فرض أن نلت شرف الاقتران بك فلا شك أنك ستتضايقين من كثير من عاداتى . ثم إنى نشأت نشأة متوسطة إن لم أقل فقيرة بينما

أنت من بيت عريق فى الثراء والرفعة ، تقلبتِ فى الدمقس والحرير منذ الصغر ولم تتعودى الشظف . . وبالطبع لا أستطيع أن أضمن لك عيشاً رغيداً ! . . فقالت ميرفت فى حماس وهى تنظر إليه :

— إنى على استعداد لمقاسمتك حياتك مهما كانت ، فسعادتى فى العيش إلى جوارك . . وماذا يجدى الثراء والقلب محروم من الحب . . أجمل ما فى الوجود ؟ ! . .

فقال توفيق وهو يغالب مشاعره :

— سيأتى يوم تشكرينى فيه لأنى وقفت فى منتصف الطريق . . والآن هلمى بنا فلدى بعض الشئون أريد إنجازها . . وشكراً على هذا اليوم الذى لن أنساه ما حييت ! . .

ولم تستطع ميرفت أن تمنع دموعها فتركتها واسترسلت فى بكاء صامت ، وأحسّ توفيق بقلبه يتفتت ومد يديه وقبض بهما على يد ميرفت ورفعها إلى شفتيه فإذا بدموعه تغمر يدها . . فارتجفت وقالت :

— ماذا ؟ ! أتبكى يا توفيق . . يا لشقاء قلبينا . . ولكنى أحملك وزر هذا الشقاء ! ! . . فانتفض توفيق ولكنه تمالك نفسه وقال :

— فلنمض فى طريقنا . . .

وعاد توفيق إلى غرفته حزينا وعادت ميرفت إلى بيتها واعتكفت فى غرفتها وكانت لا تزال تحس دفء دموع توفيق التى غمرت يدها . .

obeikandi.com

وأحست فى قلبها ثورة ونقمة و بؤسا فبكت طويلا . .

ولم تمض أشهر على هذه الحوادث حتى عاد خطيب ميرفت إلى مصر فى أجازة متلهفا إلى خطيبته ، وقد ساءه أن وجدها متوعكة ولم تخف لاستقباله ، و بعد أيام أبدى الخطيب رغبته فى عقد القران فمانعت ميرفت لغير ما سبب ، وتدخل والدها فأصرت على تأجيل العقد إلى حين وتشبثت برأيها ، ولم يجد الوالد أمام بكائها ورجاء أمها سوى أن ينزل على رغبتها وهو يعجب لأمرها ! . .

obeikandi.com

الفصل التاسع والعشرون

في الوقت الذى جلس توفيق يعصر ذهنه و يستحضر معلوماته التى جمعها من كراسة المحاضرات فى السرادق المقام لامتحان الليسانس بكلية الحقوق، كانت ميرفت تجادل خطيبها بالحسنى وتبين له أن الشتاء أفضل وقت لإتمام القران ، وكان هو قد بدأ يشك حين رأى تشددها وتجهمها فى وجهه ونفورها من الخروج معه ، فآثرت أن تترضاه بالحسنى .. ولم تكن تدرى سبباً لهذه المماطلة ولعلها كانت تريد أن تنعم ببقية أيام تفكر أثناءها فى توفيق ! . .

وانتهت أيام الامتحان وسارع توفيق يعد نفسه للرحيل فراراً من غرفته التى خلف بين جدرانها تذكارات كثيرة . .

وكانت سناء تتأهب لعقد قرانها من مراد .. ولم يسعها حين علمت أن توفيق يتأهب للسفر إلا أن تصعد إليه وتساعده فى جمع حاجياته . . وقد اعترض توفيق محتجاً وقد أثر فى نفسه تصرفها الكريم ، ولكنها لم تصغ إليه وانصرفت إلى ترتيب حاجياته فى الحقيبة الكبيرة التى أعدها لذلك ، ولما انتهيا قالت سناء باسمة فى حياء :

— أظنك لن تبخل علينا يا توفيق بالحضور فى حفل زفافنا . .

فقال توفيق متأثراً :

obeikandi.com

— إننى سأكون أسعد الناس بيوم زفافك يا أكرم وأرق مخلوقة عرفتها . . لن أنسي أبداً هذا الوجه المشرق الذى ملأ حياتى إشراقا وبهجة وأنساً . . ولا ذلك الأدب الجم والكرم الأصيل من عمى كاظم أفندى وجيهان هانم . بالله بلغيها تحياتى وامتنانى . . قولى لها إن توفيق لن ينسى أبداً عطفها الغامر ورقتها وحنوها اللذين عوضاه عن حنان أمه الراحلة . . . وتركها لاستحضار حمال لأمتعته بينما لم تستطع سناء وهى تهبط إلى شقتها أن تمنع دمعتين ترقرقتا فى عينيها . . كان توفيق لها أخا وصديقا . . ما كان أحلى حديثه وأظرف قفشاته ! نعم كان شخصا كثير الإطراق والسهوم ولكنه فى أويقات صفائه على قلتها كان مرحا مفرط المرح كثير الضحك . .

وأقبل مراد فحاولت سناء إبداء سرورها بمقدمه ولكنه فطن إلى الكآبة البادية فى نظراتها ، واستفسر منها وكانت تعلم أن مراد يفهم مابها ويقرأ سريرتها كما يقرأ فى كتاب مفتوح ! . . فقالت باسمة فى أسى :

— سيسافر توفيق اليوم إلى بلدهم دمنهور . . وربما لا نراه بعد اليوم . . . وفوجىء مراد الذى توطدت أواصر الصداقة بينه وبين توفيق وكان قد نسى فى فرحته بقرب زفافه أن امتحان توفيق ينتهى اليوم وأنه سيسافر كما أخبره ! . .

وساءل مراد وهو يخشى أن يكون توفيق قد سافر بالفعل :

— هل سافر توفيق ؟ ! فقالت سناء :

لم يسافر بعد . . وقد ساعدته فى إعداد حاجياته منذ قليل ثم ذهب لاستحضار حمال لأمتعته . . ولم تكد تتم جملتها حتى كان توفيق قد حضر وفى أثره الحمال . ولما مرّ بشقة كاظم أفندى خرج إليه مراد وصافحه بحرارة وأبدى أسفه الشديد لفراقه ، وأصر على مصاحبته إلى المحطة . . .

وصافح توفيق سناء مودعاً وهو يحاول جاهداً أن يمنع دموعه من السقوط وانصرف هو ومراد وتركا سناء وحيدة ! . .

ومضت سناء إلى بعض شئونها وما لبثت أن تذكرت عقد قرانها القريب فغمرتها سعادة أنستها كل شىء . .

وأقبلت جيهان هانم بسيارة زوجها الصغيرة التى عادت بعد أن أوصلتها ، وكانت تحمل بعض أشياء ، وألقت بنفسها على الأريكة متعبة لاهثة الأنفاس . .

وهرعت إليها سناء فقالت الأم :

— ما رأيك فى الخميس المقبل موعداً لعقد القران ؟ ! فأجابت سناء مطرقة الرأس :

— الأمر لك يا أماه ولوالدى . . فقالت جيهان هانم موضحة :

— إن عطلة أزواج عماتك يوم الجمعة ، وكذا زوج أختى ، وسينتهى سعيد ابن عمتك من امتحانه الأربعاء القادم . . أليس هذا موعداً مناسباً ؟ ! فقالت سناء :

— سوف يعود مراد بعد قليل ويمكننا استشارته لعل له رأيا يبديه .

وهزت جيهان هانم رأسها موافقة ثم قالت :

— هل حضر مراد فى غيبتى ؟ فأجابت سناء فى أسى :

— نعم . . وانصرف ليودع توفيق الذى سافر إلى دمنهور ، وقد أوصانى أن أبلغك ووالدى عظيم تحياته وبالغ تأثره . . .

واعتدلت جيهان هانم فى جلستها وكأنما تذكرت شيئاً غرب عن بالها وقالت :

— وهل سافر توفيق . . يا له من طفل كبير ! لقد وعدنى بالأمس أن ينتظر عقد القران . .

ثم قالت فى نبرة آسفة :

— كنت أود أن أراه قبل سفره فلهذا الشاب فى قلبى مكانة . . لعل الأيام أن تجمعنا به فى القريب . . فقالت سناء مؤكدة :

— لا شك أنه سيعود ليقف على النتيجة كما أنه لم يحزم أثاثه وأخذ معه فقط ملابسه . ثم أغلق غرفته وأخذ مفتاحها معه . .

وأمضت الأم وابنتها وقتاً فى الحديث عن حفل القران وكيف ينبغى

obeikandl.com

أن يكون نظامه . وقالت الأم وهى ترمق ابنتها فى حنان:

— سيكون الحفل بالغ الروعة . . بل سيكون أروع حفل يقام فى حينا هذا . . وهل لدينا من نفرح به سواك يا سنائى ؟ ! وقامت إلى ابنتها وقبلتها فى حنان وتأثر . .

* * *

وجاء الخميس وكانت شقة كاظم أفندى تموج بالضياء . وانطلقت الزغاريد وامتلأ الصالون برجال الأسرتين فى حين ضاقت الغرف بالسيدات. وكانت سناء تجلس فى غرفتها مع إجلال ابنة خالتها وكريمان وعصمت ابنتى عمتها . ثم انضمت إليهن نارمين خطيبة سعيد وحسنية زوجة أمين ، وانطلقت الضحكات الناعمة ترسل فى جوانب البيت السعيد الفرح والبشر ولكن عروسنا الحسناء لم يكمل سرورها إلا بحضور ميرفت ، التى كانت رغم زينتها وأناقتها ذابلة المحيا تائهة النظرات . وقبلت ميرفت العروس فقالت سناء فى جذل :

— عقبى لك يا ميرفت . . إن فرحتى لن تتم إلا يوم زفافك . .

فوجمت ميرفت ولم تحر رداً ! . .

وفى الصالون كان كاظم أفندى والحاج عبد الشافى ومحمود وأمين وزوجا أختى كاظم أفندى و بعض المدعوين من أقارب الأسرتين المقربين . . .

وكان البشر يعلو الوجوه جميعاً ، وكان أكثرهم فرحاً هو الحاج عبد الشافى ومحمود . . أما مراد . . العريس ! . . فقد كان مضطرباً بعض الشيء وهو لا يكاد يصدق أن سناء ستصير فى هذا اليوم له إلى الأبد ! ! . .

وحضر المأذون بعد هنيهة لعقد القران ، وأصر الحاج مدبولى البقال الملاصق لمنزل العروس على إهداء أربع زجاجات من شربات الفراولة الفاخرة ابتهاجاً بقران سناء التى طالما داعبها وحملها بين ذراعيه وهى طفلة . .

ودارت أكواب الشراب ووزعت علب الحلوى الفضية على المدعوين ، واحتفظت جيهان هانم بواحدة لتوفيق كما احتفظت سناء بواحدة لمديحة خطيبة محمود . .

وفى نفس الليلة أقيمت حفلة فى إحدى القاعات الشهيرة وحضرها عدد كبير من علية القوم وفى مقدمتهم سفير تركيا الذى كان يرتبط بأسرة سناء بصلة قرابة . . وحضر الأميرلاى فهمى بك والد محمود كما حضر عدد كبير من الضباط . .

وعزفت الموسيقى بعض الألحان الجميلة . . وفوجىء كاظم افندى بحضور سالم بك نصر بسيارته الفخمة وشد على يد كاظم افندى وهو يقول :

— أين العريس ؟ فأشار إليه كاظم افندى وكان واقفاً ومحمود

فى جمع من أصحابه ، وتقدم سالم بك من مراد وعرفه بنفسه وصافحه وهنأه فى رقة ، فشكره مراد فى أدب وكان قد عرف قصة خطبته لسناء . . و بعد قليل انصرف الجميع إلى البوفيه الفاخر . .

وكان الاضطراب والتحفظ اللذان ساورا قلب مراد قد زالا تماما حين وجد نفسه محاطاً بزملائه . .

وألقيت بعض الكلمات المناسبة ، وأحيي الليلة أحد كبار المطربين فأطرب وأعجب . . وكان سالم بك يجلس بجانب مراد و بجانبه كاظم افندى . . وقال سالم بك لمراد فى ود ودعابة :

— ستكون تهنئتى لسناء بعد زفافها . . وأنا مصمم على أن تمضيا أيامكما الأولى فى كابينى بسيدى بشر . . واعتذر له مراد شاكراً بأنه اتفق على أن يسافر بعروسه بعد الزفاف إلى عزبتهم حيث يمضى العطلة مع والدته ، فلم يستطع سالم بك الاعتراض ، ولكنه أخذ من مراد وعداً بأن يمضى بكابينه بضعة أيام فى الصيف مع عروسه . . وفى الصباح حين ذهب مراد لرؤية سناء وجدها منهمكة فى فتح صندوق كبير من الورق وكانت علامات الفضول مرتسمة على وجهها المورد ، ولما رأت مراد رمقته بنظرة تفيض حباً وسعادة وقالت وهي تبتسم :

— أهلا بزوجى العزيز ! . . فكاد قلب مراد يقفز لهذه التسمية الحبيبة . . وتقدم يحتوى يدها بين يديه وهو يقول :

— أهلا بملاكى وبهجة حياتى . . ثم التفت إلى الصندوق الذى كان بين يديها وسأل :

— ما هذا ؟ ! فأجابت سناء :

— هدية من سالم بك نصر . . أحضرها سائقه مساء أمس ! وانتهت من فتح الصندوق فإذا به مجموعة كاملة من الأوانى الفضية المطعمة المنقوشة فى فرنسا . . ولمعت أعين مراد وسناء إعجاباً بالهدية الفاخرة وقال مراد :

— لاشك أنه رجل كريم النفس . . لقد أصر على دعوتى لقضاء بضع أيام فى كابينه بسيدى بشر فهل توافقين ؟ فقالت سناء فى جذل :

— إن الذى يشوقنى هو أن أرى العزبة وأرى والدتك التى لم تتمكن من حضور القران . فنظر إليها مراد فى إعجاب وحنو . ودخلت جيهان هانم فرأت هدية سالم بك فأبدت إعجابها بها وهنأت مراد وسناء فى رقة ورجت لهما حياة زوجية سعيدة . فتقدم مراد وقبل يدها ثما لبثت أن رفعت رأسها وقبلته فى جبينه فى عطف وتأثر بالغ . .

ومضت أشهر وتم عقد قران محمود . وسافر مراد وسناء إلى المنصورة لحضور الحفل الذى كان بالغ الروعة والفخامة . وأعجبت سناء بمديحة أيما إعجاب وكذا مديحه فقد أحبت سناء منذ رأتها . . . وعاد الجميع إلى القاهرة فى اليوم التالى . .

كما تم عقد قران سعيد على خطيبته نارمين وأقيمت حفلة ساهرة بفندق مينا هاوس حضرها مراد وسناء أيضاً . وحاول سعيد جاهداً أن يزيل من قلبه شعور الحسد الذى يحسه نحو مراد فلم يستطع ، فكان كل كلامه إليه وترحيبه به مفتعلا . . ولم يشعر مراد نحو سعيد بالود الذى شعر به تجاه أفراد أسرة سناء الذين أحبوه جميعاً وأنزلوه من أنفسهم أكرم منزلة . .

أما توفيق فقد كان فى مقدمة الناجحين فى امتحان الليسانس فعين معيداً بكلية الحقوق . . . وقد فرح كثيراً بهذا التعيين لأنه يتوق إلى استكمال دراسته ونيل الدكتوراه . . إلا أنه بعد أشهر قضاها فى وظيفته ضاق ذرعاً بالقيود المضروبة حوله وكان يكره التدريس فما لبث أن استقال واشتغل بالمحاماة والكتابة فى الصحف والمجلات وترجمة المؤلفات العالمية فذاع اسمه وارتفع نجمه فى عالم الأدب . .

وفى ليلة جميلة رفافة الأنسام زفت سناء إلى مراد وسافرا إلى العزبة حيث نحرت الذبائح واستقبلا بالزغاريد وطلقات البنادق ! . .

وكانت الحاجة أم أمين تطير فرحاً بزوجة ابنها الحسناء ، وسارت خلف العروسين تنثر الملح فوق رأسيهما خشية أعين الحساد ! ! .

الفصل الثلاثون

خاتمـــــة

كان توفيق قد التحق عقب استقالته من وظيفته بالجامعة بمكتب الأستاذ أحمد بك عبد الرءوف الذى كان مستشاراً ثم اشتغل بالمحاماة ، وكان المحامى العظيم يشغل شقة كبيرة بإحدى عمارات شارع فؤاد الأول وقد قدم إليه توفيق أحد أساتذة الـكلية وزكاه لديه . .

ولم تمض أشهر حتى كان المحامى الـكبير أسعد الناس باشتغال توفيق معه فقد كان جم النشاط والذكاء دمث الأخلاق واسع الاطلاع .

وقد تنبأ له الأستاذ بمستقبل باهر فى المحاماة لو أنه تفرغ لها ؛ ولـكنه كان يعلم عنه ميله للأدب والصحافة فلم يشأ أن يعكر عليه صفوه خاصة حين رأى أنه مبرز فى هذه الناحية تبريزه فى المحاماة . .

وذات يوم بينما كان توفيق غارقاً بين أضابير الأوراق وملفات القضايا ومجلدات المراجع القانونية ، دخل عليه الـكاتب يعرض عليه بعض الأوراق وحمل بعض الملفات المـكدسة أمامه فرجاه توفيق ألا يسمح لأحد بالدخول حيث أنه جد مشغول ! . .

oubelkandil.com

وكانت الغرفة الفسيحة فخمة بحق . . يتصدرها مكتب فخم جلس إليه توفيق وعلى جانب منه تليفون أنيق وعلى الجانب الآخر مروحة كهربائية كبيرة . . وإلى يمين توفيق كان يوجد دولاب كبير يحتوى على معظم المراجع القانونية لكابيتان وديجى وغيرهما من أساطين القانون . .

وفى جانب من الغرفة كان يوجد نضد صغير عليه ما كينة كتابة كان توفيق كثيراً ما يكتب عليها مقالاً أو أقصوصه ! . .

كانت الساعة قد قاربت السابعة حين سمع توفيق نقرات خفيفة على الباب فقال دون أن يرفع رأسه من أوراقه :

— ادخل ! ! . . وفتح الباب ثم أغلق فى رفق ، وتقدم الطارق بخطوات خفيفة وسحب كرسياً بجانب مكتب الأستاذ وجلس دون أن ينبس ببنت شفة ! ! ورفع توفيق رأسه الأشعث ونظر إلى ضيفه دون اكتراث وقد حسبه أحد الموكلين . وكاد يعود إلى أوراقه لولا أنه عاد ونظر ثانية ثم صاح :

— ميرفت ! ! ونظرت إليه ميرفت باسمة فى بساطة ورقة وقالت :

— نعم ميرفت . . هل ضايقك حضوري ؟ ! . .

فهتف وقلبه يدق فى عنف :

— كلا أبته . . إنى أسعد الناس برؤيتك الآن . . كيف حالك ؟ . .

— بخير . . وأنت ؟ ! . . فقال باسماً فى شىء من الاضطراب :

— بخير أيضا ما دمت أعلم أنك سعيدة وبخير . . ألم يعقد قرانك بعد ؟ ! . .

فقالت مستاءة وكأن قوله لم يعجبها :

— لا . . ولن أتزوج ! ! ففغر توفيق فاه دهشة وقال :

— ماذا ؟ ! فأجابت فى هدوء :

— أقصد إنى لن أتزوج الآن . . ثم صمتت لحظة وقالت فجأة :

— إنى أبحث عن عمل ! ؟ فهتف فى دهشة وذهول ! !

— عمل . . ماذا تقولين ؟ !

— نعم عمل ! . . ماذا يدهش فى هذا ؟ إنى متضايقة من الفراغ، وأريد أن أعمل ولو بدون أجر ! فزادت دهشة توفيق وحملق فيها وكأنما شك فى قواها العقلية ! ! وأدركت ميرفت ما يجول فى خاطره فضحكت ضحكة موسيقية رقيقة وقالت :

— لا يا أستاذى . . لست مجنونة ولا أنا أهذى . . وأنا أتيت لتبحث لى عن عمل !

— أنا أبحث لك عن عمل ؟ ! رباه ماذا أسمع ؟ ! فابتسمت ميرفت وقالت :

— أزيدك إيضاحاً . . لقد أتيت لأعمل سكرتيرة فى هذا المكتب . . .

فاتسعت عينا توفيق دهشة وقال :

— ومن أدراك أن المكتب فى حاجة إلى سكرتيرة ؟

فقالت باسمة :

— أتظننى من القسوة بحيث أدع العمل يرهقك على هذا النحو ؟ ! . . لا يا توفيق إنك تسىء بى الظن . . إنك فى أشد الحاجة إلى سكرتيرة . . أقصد إلى ميرفت ! !

واستمع توفيق إلى كلماتها وكأنه يحلم أو يسمع لغواً ! ثم أطرق ووضع رأسه بين راحتيه الكبيرتين وأخذ يعصره وكأنه لا يدرى ماذا يفعل وكيف يتصرف ! ! ونهضت ميرفت وتقدمت منه وربتت على كتفيه ومرت بيد مرتعشة على شعره الأشعث ، فرفع توفيق رأسه المكدود إليها ونهض فجأة واحتواها بين ذراعيه وهوى على شفتيها الرقيقتين وغاب عن الوجود فى قبلة طويلة لم تتمالك ميرفت بعدها أن سقطت على الكرسى وقد دارت رأسها . .

وجلس هو الآخر متقطع الأنفاس زائغ النظرات محمر الوجه . .

openkarabic.com

ولم يدر كيف حدث هذا . . إنه لم يفكر فى أن أحداً مثلا قد يفتح الباب فجأة ويراهما فى هذا الوضع ! ؟ ولحسن الحظ أنه أبلغ الكاتب بألا يدخل عليه أحداً من أصحاب القضايا !

أما ميرفت فكانت نشوانة منفعلة متوهجة الوجنات ، ونظرت إلى توفيق ثم قالت :

— والآن ؟ ! . . فنظر إليها توفيق فى وله وحيرة وتصميم وقال :

— والآن سأقاتل كل من يجرؤ على الاقتراب منك لأخذك منى ، وكفانى عذابى شهور طويلة . . فابتسمت ميرفت فى سعادة وقالت :

— أنت الآخر كنت تتعذب . . ليتك رأيتنى منذ أشهر بعد ذلك اليوم . .

فقال توفيق :

— ذلك اليوم الذى كدت أقضى فيه على سعادتى قضاء مبرما !

فقالت ميرفت فى سعادة ودلال :

— إذن فقد كنت محقة حين قلت لك إنك محتاج لسكرتيرة !

فقال توفيق وقد نهض وأمسك بكتفيها بين يديه فأسندت رأسها الصغير إلى صدره فهمس فى أذنها مصححا :

— بل إلى زوجة وحبيبة أيتها الخبيثة الغالية ! . .

— فانفلتت منه فى خفة ورشاقة وجرت إلى النضد الصغير فى

ركن الغرفة وجلست إلى ماكينة الـكتابة وأخرجت من حقيبة يدها نظارة وضعتها على عينيها ومضت تكتب وكأنها تعزف على البيانو ! . .

وابتسم توفيق لمنظرها الطريف وتقدم منها وقال وهو يضحك :

— بالله اخلعى هـذه النظارة فإنها تحجب عنى جمال عينيك . . ثم هذه الأصابع لم تخلق إلاّ للعزف على البيانو . .

فقالت ميرفت بإصرار :

— أؤكد لك أنى سكرتيرة مدهشة . . جربنى وسترى ! . .

فضحك توفيق وتقدم منها وهو يقول :

— الوقت أمامنا متسع للتجربة ! . .

***

فى كابين جميل بشاطىء سيدى بشر الفخم كانت تجلس سناء وقد حجبت عينيها الجميلتين بنظارة سوداء وارتدت بنطلوناً أبيض وأخذت تعمل بإبرتين بين يديها و بجانبها جلست مديحة زوجه محمود تقرأ فى مجلة . بينما جلس مراد يتحدث إلى رفيق صباه محمود الذى كان يمضى وزوجه عطلته بالإسكندرية . .

وكان طفل جميل فى الثانية يلعب مع طفلة شقراء فى مثل سنه وكانت أعين الأمين تتبعهما فى سرور وحنان . وأقبلت ميرفت بعد قليل

فى ثوب أزرق جميل وكانت قد زادت جمالا وامتلأ جسمها قليلا وقالت لصديقتيها :

— ألم ير أحدكم توفيق ؟ ! ! فرفع مراد رأسه وقال ضاحكا :

— ماذا ؟ ! هل هرب منك مرة أخرى ؟ فابتسمت ميرفت وقالت :

— لقد باءت جميع محاولاتى بالإخفاق . . إن هذا الرجل سيذهب بعقلى يوما . . إن الكتابة هذه شىء يجرى فى دمه . . حتى فى المصيف لا يريد أن يغادر الكابين لينعم ببعض النسيم . .

وقامت إليها سناء وجذبت ذراعها ضاحكة وقدمت مديحة إليها كرسياً . . وما لبثت أن اندمجت معهما فى الحديث تاركة زوجها لكتاباته فى الكابين ! . . وكأنما بدر من الطفل الصغير ما أزعج رفيقته الطفلة فارتفع صراخها فاتجهت إليهما أعين مراد ومحمود وقام مراد إلى الطفل وقال ضاحكا وهو يرفعه بين يديه :

— ما هذا يا محمود ؟ ألا تريد أن تكون جنتلمان أبداً ؟ !

وسمعه محمود فصاح به محتجاً وهو يضحك :

— إن محمود جنتلمان ولا شك ولكن الطريقة الحديثة فى معاملة المرأة هى الضرب ومحمود يتبع هذه الطريقة ! . .

وضحكت سناء ومديحة وميرفت لقوله وتقدمت سناء من كريمان ابنة محمود وحملتها بين ذراعيها وقبلتها وهى تقول

— لا تتألمى من هذا الوحش الصغير . . . لقد أخطأنا ولا شك بتسميته محمود ! !

فضحك محمود الأكبر وهو يقول فى مرح .

— لا عليك يا سناء فكثيراً ما كنت وأنا فى سنه أضرب مديحة فترتفع صرخاتها الكاذبة تماما كما تفعل هذه الخبيثة الصغيرة ! .

القاهرة فى ١٩٥١/١/١٩ محمد عبد الرحيم سليمان

تمت

obeikandl.com

obeikandl.com

حـــول عودة الروح

لتوفيق الحــكيم

خطاب من المؤلف

obeikandl.com

سيدى الأستاذ الكبير توفيق الحكيم

طويت اليوم الصفحة ٢٣٢ من الجزء الثانى من « عودة الروح » وكانت المرة الخامسة أو السابعة التى أقرأ فيها هذه القصة وفى كل مرة كنت مع تكرار القراءة معانى رائعة غابت عن ذهنى وفى كل مرة كانت القصة تزداد ارتفاعا فى نظرى . .

ولست أريد أن أقرظ القصة الخالدة التى نشرت باللغة الروسية فى لينينجراد وحازت تقدير أعضاء أكاديمية الأدب فى فرنسا ولكنى أريد أن أقول إنها قصتك بالطبع ! . قصة الفترة الزاهرة من صباك . . قصة حبك الأول ! وهى أيضاً قصة الحياة تعود إلى جسد الأمة المصرية العريقة التى نامت طويلا وتخشب جسدها حتى ظن الكثيرون أنها ماتت فإذا بها تهب من نومها قفزاً تنفض عنها غبار الزمن وتتقدم فى تؤدة لتتخذ مكانها تحت الشمس . .

مهلا يا أستاذى الكريم ولا تحاول أن تؤكد لى أنى واهم وأن القصة محض خيال ، فكلنا يعلم أن محسن هو توفيق . . أليس هو محسن الذى عرفناه فى عودة الروح وعصفور من الشرق حتى أن العبقرى المرحوم الدكتور اسماعيل أدهم والفنان الدكتور ناجى حين كتبا عنك كتابيهما القيم رجعا إلى هذين الكتابين كمصدرين لتاريخ فترتين من حياتك . .

فترة الطفولة وفترة الدراسة فى فرنسا . . كما رجعا إلى «يوميات نائب فى الأرياف» باعتباره يسرد جانباً من حياتك وأنت وكيل للنائب العام . .

سيدى : لست فناناً ولا من الذين درسوا فن الكتابة وقواعده فلا تنتظر منى أن أسر وأسكت على نهاية عودة الروح . . فأنت قد أوضحت لنا مضمون كلمتى عودة الروح وجعلتنا نوقن ونؤمن أن مصر قد عادت إليها الروح مائة فى المائة وأنها سليمة بخير أربعة وعشرين قيراطاً !

ولكن الذى أريد أن أعرفه أنا القارىء المتلهف الذى ترك قلبه تحت رحمة قلمك النارى يرفعه ويخفضه ، يهدهده ويعصره ثم يلسعه بقسوة . . يا لله يا سيدى العزيز لم لم تترفق بصغيرنا العزيز محسن ؟! . .

هذا الرجاء كان يجب أن يوجه إلى القدر الذى نسج بأنامله هذه القصة الرائعة ، أعرف هذا ولكن ماذا كان عليك وأنت الكاتب الخالق لو أضفت بضع صفحات نعلم منها ما آل إليه أمر محسن الصغير وفاتنته « سنية حلمى » ! . .

ماذا كان أثر الخيبة فى نفسه ؟ وهل كان هذا الأثر من العمق حتى جعله على الأيام يكره المرأة حتى لقب بين الكتاب بعدو المرأة ؟ أم ماذا ؟! أم أنك أخفيت النهاية لأنك وجدت أن القصة هكذا جميلة تتمشى مع أصول الفن الصحيح ! . .

أقسم يا سيدى أن للقصة نهاية أخرى ضننت بها علينا . .

ولأكن فضولياً أو « طفيلى مقترح » فأعرض عليك من عندياتى نهاية أو خاتمة للقصة ربما تدفعك يوما إلى إخراج الجزء الثالث من « عودة الروح » مفخرة الأدب المصرى . .

* * *

الزمن : خمسة عشر سنة بعد الثورة ! . . يذهب الفيلسوف الفنان محسن وقد عُرف فى عالم الأدب والكتابة باسم نجيب الماوردى مثلا . . يذهب إلى بلاج سيدى بشر برفقة صديق له كابين هناك . . يستلقى الأستاذ على كرسى على الشاطىء يرقب الغاديات والرائحات كما هى عادته وقد وضع على عينيه الواسعتين الدائمتى التحديق حتى فى لا شىء ! . نظارة سوداء وأسند عصاه جانباً وأخذ يملأ رئتيه بالهواء . . تمر غادة هيفاء ساحرة القد ناصعة البياض فاحمة الشعر ، ارتدت مايوهاً محتشما بالنسبة لمايوهات ذلك البلاج الراقى المحتشد بالأوروبيات و بنات الذوات . .

يدق قلب الكاتب بشدة لم يعهدها منذ خمس عشرة سنة و يجيل عينيه فى القد الممشوق الذى يتخطر أمامه فى رشاقة الطائر المرح . . . وتغوص نظراته فى الشعر الفاحم اللامع كأنه « قمر من الأبنوس ! » وتزداد دقات قلبه سرعة . .

يضطجع الأستاذ إلى ظهر الكرسى و يسترسل فى خواطره و يرسل إلى الأفق البعيد نظرات ساهمة حالمة . .

تعود الغادة بعد قليل إلى كابينها حيث ينتظرها رجل قارب الأربعين أشقر الشعر وسيم القسمات يبدو لمن يراه أنه لم يتعد الثلاثين وكان يجلس مع جماعة من أقاربه من بينهم محامية شابة شهيرة . .

تدلف الحسناء إلى الداخل وترتدى ملابسها وتخرج إلى الشلّة كاملة الزينة ساحرة الجمال فتأخذها نظرات الإعجاب من الجانبين رجالا ونساء ! وتجلس بجانب الرجل الأشقر الوسيم ولا تلبث أن تندمج فى الحديث وتقول المحامية :

— ألم يعثر أحدكم على نجيب الماوردى ؟ ! إنه هنا . . لقد قابلته وتشاجرت معه كالعادة ! . .

تضحك الحسناء وتقول وعيناها تبتسمان فى حلاوة :

— ولمَ ؟ ! إنه أرق كاتب عرفته . . لقد قرأت كتابة الأخير . . كم كان رائعاً ! فتقول المحامية :

— ولكنه يا سنية يكره المرأة ويشهر بها وينقم على نهضتها المباركة . .

فتقول سنية حلمى فى حماس :

— كيف هذا ؟ ! إن كل ما كتب ينمّ عن حبه للمرأة بل تقديسه لها !

— لا يا عزيزتى . . إنك واهمة . . ألم تقرأى مقاله منذ أسبوع

في إحدى المجلات ، الذى يقول فيه إنه يفضل المرأة التى تجيد عمل صينية البطاطس على تلك التى تحمل دكتوراه فى التاريخ أو الفلسفة ! . . إنه شديد التجنى على جنسنا . . . ثم تنظر إلى سنية بعد قليل وتقول :

— على أي حال سنقابله بعد قليل وسأحاول استدراجه للحديث فتعلمين إذ ذاك أنه عدو شديد الخطورة !

تضحك سنية ضحكة ساحرة تكشف عن أسنان كالماس النضيد وتنظر إلى الشخص الجالس بجانبها فى مرح وتقول :

— وأنت يا مصطفى . . ماذا ترى فى نجيب الماوردى ؟ !

فيبتسم مصطفى راجى ويقول فى غير اكتراث :

— إن قراءاتى له لا تكفى للحكم عليه . . ويصمت . .

وتقول سنية متفكرة :

— أنا لا أشك أبدا أن نجيب الماوردى ليس صديق المرأة فحسب ، بل عابدها الذى يحرق البخور بين يديها ولا يتورع عن تقبيل موطىء قدميها ! . .

تبتسم المحامية وهى تنظر إلى سنية فى خبث وجذل وتقول :

— قد يكون هذا ! . . ربما إذا رآك غيّر رأيه ! ! فما أظنه يجهر بعداوته للمرأة أمام من لها سحرك وظرفك الآسر ! ! . .

يتضرج وجه مصطفى وسنية على السواء ، ويحاول مصطفى أن يبتسم

فلا يستطيع ! بل ينظر فى شبه احتجاج إلى قريبته المحامية . . التى تضحك فى مرح وانطلاق . .

يحضر صديق لمصطفى كان على موعد معه فلا يلبث أن ينصرف معه .

تلتفت سنية إلى زميلتها المحامية وتهيب بها فى حياء أن تقدمها إلى صديقها نجيب الماوردى ، فتسارع المحامية إلى تلبية رغبتها فى سرور وتسير الاثنتان إلى حيث يجلس نجيب أو محسن وقد خلع نظارته وسرح نظراته فى الأفق وعيناه المخيفتان نصف مغمضتين . .

تتقدم سنية وزميلتها على استحياء وتنظر إليه . . بينما تقول المحامية بصوت مرتفع بعض الشىء كأنما هى تريد إخراجه من تأملاته :

— بونجور يا أستاذ نجيب !

يفيق الأستاذ ويجيل عينيه الواسعتين فى السيدتين ، ولا يكاد ينظر إلى وجه سنية التى يأخذها شىء من الاضطراب حين تنظر فى وجهه ! .

يرد الأستاذ التحية فى شىء من السرور :

— بونجور يا أستاذة . .

يأخذ سنية اضطراب عجيب وانقباض لا تدرى له سببا ، ويرى نجيب من الأوفق أن يقوم من جلسته حيث لا توجد مقاعد لضيفتيه . .

ينظر نجيب إلى رفيقة صديقته فإذا بها قد ولت وجهها ناحية أخرى فلا يرى منها سوى شعرها الفاحم وجانب من وجهها الناصع وتنتقل

نظراته إلى قدها الممشوق فيتأكد أنها تلك الغادة التى سارت بالقرب منه منذ ساعة وخفق قلبه لها ! فتزداد دقات قلبه شدة . .

تقترح المحامية الذهاب إلى البوفيه لتناول بعض المرطبات فيوافق الأستاذ فى سرور . .

يسير الثلاثة نحو الكازينو ولا يكاد نجيب أو بالأحرى محسن وسنية ينظران إلى بعضهما ! . . .

يأخذ الثلاثة مجلسهم حول إحدى الموائد وتحس المحامية بجو الجمود والحرج بين الاثنين فتقدم كلا منهما للآخر :

— زوجة ابن خالى سنية هانم راجى ! . . الأستاذ الكبير نجيب الماوردى ! غنى عن التعريف بالطبع ! . . . ولكن الأستاذ نجيب أو بالأحرى محسن يكون قد أسقط فى يده فلا يسمع من كلمات المحامية شيئاً ! . . فقط هو ينظر فى وجه سنية كالمأخوذ أو المذهول وقد علته صفرة وشحوب وأخذ قلبه يدق بجنون ! ! . . من ؟ سنية أخيراً ! . . ياللعجب . . يالهف قلبى عليك أيتها الغالية . . . رباه ما هذا السحر وماهذه الحلاوة ؟ ! رفقاً بقلبى أيها القدر فلا قبل لى بهذا المزاح الثقيل ! . .

أما سنية فتكون فى حالة لاتقل سوءا عن حالته وتقول فى نفسها . .

محسن ! ! ياللعجب هو بعينيه الواسعتين العميقتين وجبينه العريض وقسماته الحزينة . لا شك أنه هو . . ولكن نجيب الماوردى ؟ !

من يكون نجيب هذا ؟ ؟ تراه بدل اسمه ؟ ! لا شك فى هذا . . إنه محسن بعينه ! . .

تنظر إليه مبهورة الأنفاس متوهجة الوجنات فيطرق هو وقد احمر وجهه وتقوست شفتاه فى قسوة وسخرية وجمدت ملامحه . .

تتهيأ الأستاذة للهجوم وتحاول استدراج الأستاذ كى يبسط آراءه فى المرأة حسب اتفاقها مع سنية ولكنها تنظر إليها فى شىء من السخط والرجاء وكأنها تقول لا داعى ! . . ولكن المحامية بما عرف عنها من عناد وجرأة تسترسل فى حديثها محاولة التدليل على صدق حكمها على الأستاذ . .

ينظر نجيب إليها فى استياء أولا ثم لا تلبث عيناه أن ترسلا ذلك البريق المخيف وذلك الشعاع من السخرية والألم الصارم . . . وتكتسب ملامحه سيماء الجمود والتهكم . . ويقول :

— المرأة ! ذلك الحيوان الجميل الذى ابتلى الله به آدم . . حقاً ما أسعده ذلك الذى يبتعد عن طريقها ويتجنب شرورها ! !

يلمع السرور فى عينى المحامية بينما تبهت سنية وتطرق برأسها . ما هذا الذى تسمع ؟ ! أهذا محسن الذى يتكلم ؟ بل أهذا نجيب الماوردى الذى تذوب كتابته رقة وغزلاً وهياماً فى المرأة ؟ !

لا ! . . لا يمكن أن يكون هذا ! . . وعاودها الشك فى شخصية

الـكاتب ، فعلى فرض أنه هو نجيب الماوردى فهل يعقل أن يكون هو نفسه محسن ذلك الفتى الرقيق الوديع ذو القلب الـكبير المرهف الحسّ الذى كانت تشعر بقلبه يذوب و ينصهر إزاء نظراتها وكانت تحس به يرتفع ويهبط مع أناملها وهى تعزف له لحنه المحبوب « قدك أمـير الأغصان . . من غـير مكابر » ! تصمم سنية على أن تتحقق من شخصيته وهى جريئة ذكية لبقة كما تعلم ! وتعاود النظر إليه . . إلى عينيه .. يالله نفس العينين ونفس الشفتين والشفة السفلى على الأخص!.. إنه محسن ولا شك ! ولـكن ماهذه المرارة والحقد فى كلماته ؟ ويجاوبها قلبها من الأعماق : وهل هو ينسي الصدمة الأولى فى حبه الأول يوم خرج شبه مطرود من غرفتك . . هو الرقيق الشاعر المرهف الحسّ . . كانت صدمة شديدة قاسية أدركت قسوتها بعد قراءة إشعاره وأزجاله ومقطوعاته التى يناجيها فيها و يسكب بين يديها حبه الطاهر القوى . . يا إلهى كم كانت قاسية شريرة ! ! كأنما قد قلبها من الصخر ! . . إذن هو على حق حين ينعت المرأة بأنها حيوان جميل شرّير . .

وتحس سنيـة إحساساً قوياً بالذنب والجرم وفى نفس الوقت تحس بالفخر لأنها أول من خفق بحبها قلب نجيب الماوردى الـكاتب الشهير الذى يتلقف الآلاف كتبه ويحاولون معرفة شيء عن حياته الخاصة . . إنها ملهمته . . إنها حبيبته ! . . ويتضرج وجهها . .

حبيبته ! ؟ يااللاأنانية . . حبيبته بعد أن ذاع اسمه وصار علماً فى الأدب والكتابة ! وتزداد إطراقاً ووجوماً . وتحس الأستاذة أن مهمتها انتهت وأن النصر قد كتب لها وتحدس أن ثورة توشك أن تشب بين نجيب وقريبتها التى لا شك صدمت بما سمعت منه . . وكانت الأستاذة تودّ مشاهدة المعركة بشغف لولا أنها نظرت فى ساعة معصمها فتذكر موعداً هاماً فتنهض منصرفة غير عابئة باحتجاجات سنية أو نظرات الأستاذ !

يزداد نجيب ارتباكا وإن حاول أن يخفيه بقناع من السخرية والجمود بينما ترفع سنية رأسها ببطء وتنظر إليه فى حنان وألم فتقابل عيناه عينيها فيجفل قليلا ثم يحول نظراته عنها إلى البحر الممتد المصطخب. تهمس سنية :

— محسن ! . . يتململ الأستاذ ويرتجف ولا يرد . .

تتردد سنية قليلا وتصمم على أن تلج قلبه من باب آخر . . فتقول وهى تحاول أن تتجنب عينيه :

— إنك شديد القسوة على المرأة يا أستاذ وهى لا تستحق منك هذا ! كنت أحسبك من أنصار المرأة ومحبيها . .

تزداد قسمات نجيب جموداً وقسوة ويقول دون أن ينظر إليها وهو يحاول أن يتخلص من تأثير صوتها الذى أوحشه خمس عشر سنة :

— وماذا يدعونى إلى أن أكون من أنصارها ؟ ! ليست المرأة فى حاجة إلى أنصار وكفاها ما سلحتها به الطبيعة . : وقانا الله شرها !

فطرق سنية وتتسارع دقات قلبها وتتلاحق أنفاسها فى شىء من الغضب وتنظر إليه فى جرأة وتقول :

— ولكنك يا أستاذ لا تستطيع أن تنكر أن المرأة بهجة الدنيا بل سر هذا الوجود العظيم الحافل بالجمال . . فيسارع الأستاذ مصحّحاً :

— الحافل بالشرور إذا أردتِ الدقة ! فالمرأة أكبر مجرمة فى حق الرجل ! ألم تستهل أعمالها الجميلة بإخراج آدم من الجنة ؟ ! فلا تلين سنية بل تقول فى هدوء :

— نعم . . لتعمر الكون ! . . هذه حكمة الله ! فيقول نجيب وهو يصرّ على أسنانه :

— نعم حكمة الله . . لا شك أنها حكمة الله ! . . ويتهدج صوته فى العبارة الأخيرة فيرق له قلب سنية حتى لتكاد تبكى . . تماماً كما بكت من أجله وهو صغير . .

ينظر إليها نجيب خلسة فيلمح الدموع متألقة فى عينيها فيذكر أيضاً ذلك اليوم الخالد . . حين بكت سنية من أجله ! . . ثم قبلته قبلة ما كان أحلاها . . ويرتجف قلبه ويتململ للذكرى وينظر إلى شفتيها السماويتين فإذا بهما كسابق عهدهما بل لقد إزدادتا جمالا وسحراً

ثم لا يلبث أن يتذكر بقلب يعصره الألم والمرارة أن هاتين الشفتين الفاتنتين وقف عليه هو . . مصطفى راجى . . زوجها السعيد الموعود . . لا شك أنه يقتطف منهما آلاف القبل . . ويحس نجيب بقلبه ينفطر مرارة وينز ألماً . . ويحسّ رغبة فى البكاء كطفل صغير . . يبكى كما بكى يوم خرج مطروداً من عندها وكأنه آدم يطرد من الجنة ! . .

تحس سنية بما ينتاب نجيب فتنظر إليه حانية فى شبه استغفاء وتذكر قسوتها وجنايتها على قلبه وهى أيضاً تذكر يوم تقطعت السبل بحبيبها مصطفى حين سافر إلى المحلة ليدعوا أهله لخطبتها . . لقد أحست يومها إحساساً داخلياً بأن هذا من تدبير القدر انتقاماً لمحسن المسكين وتذكر كيف عادت إلى قراءة مقطوعاته وأشعاره التى رفعها فيها إلى مرتبة القديسات والملائكة . . يالله . . إنها تكاد تذكر معظم ما كتبه ذلك التلميذ العاشق الشاعر ! . . وتذكر أيضا أنها تمنت فى ذلك الحين لو أتيح لها إصلاح ما حدث . . وهاهى الفرصة تواتيها بعد خمس عشر سنة فيخفق قلبها إزاء هذا الخاطر . . نعم كيف تصلح الغلطة الكبرى ؟ !

هل هذا ممكن ؟ . . لقد انتقمت الأقدار لمحسن المسكين واشتدت فى انتقامها فحرمتها نعمة الولد صحيح أن ذلك لم يؤثر البتة على مكانتها فى قلب مصطفى ولكن هى . . إنها تريد طفلا تسبغ عليه من حبها

وأنوثتها ولكن . . مالمحسن وشئونها الداخلية الخاصة ؟ . . ماذنبه ؟ !
لقد أبعدته الأقدار عن طريقها فإذابه بعد سنوات فى قمة المجد والشهرة . .

وتسائل نفسها فى حياء . ترى لو كان محسن قد تزوجها أكان يصل إلى هذه المكانة الرفيعة ؟ ! ويحمر وجهها حتى يصير كتفاحة أمريكانى ناضجة ولكنها تستمر فى خواطرها . . إنها تكبره بعامين . . ولكن عامين ليسا شيئاً يذكروكم من زيجات سعيدة موفقة تمت بين رجال ونساء يكبرونهم سناً . أين هى منه الآن ؟ ! إن الناظر إليهما يجزم بأن محسن يكبرها بعشر سنوات على الأقل ! ! ترفع عينيها إليه وترق نظراتها وتمتلئ حناناً وعطفاً وخاصة حين تلمح خطوط الأسى واضحة جلية على جبينه المنبسط فى شموخ وجلال .

وتهمس سنية والدموع تترقرق فى عينيها الجميلتين :

— محسن ! أنسيتنى ؟ أنا سنية صديقتك ! . . وتكاد تقول « حبيبتك » ولكنها تتراجع فى آخر ثانية ! . .

ينتفض نجيب ويظهر عليه الانفعال ولكنه يتمالك نفسه ويقول فى نبرة متهدجة ولكنها ثابته :

— إن اسمى نجيب الماوردى كما لعلك تعلمين يا سيدتى ، وأحب أن تخاطبينى باسمى ! فتقول فى ألم :

— تراك أقمت بينك و بين الماضى سداً وحاجزا ؟ !

أبهذه القسوة تحاول أن تقتل محسن العطيفى وتطوى صفحته ؟ . .

فيقول فى إصرار :

— إنى الآن شـــخص آخر لا يعنينى من أمر محسن العطيفى قليل أو كثير . .

— ولا حتى سنية ؟ ! ! فيرتجف محسن وينظر إليها فى دهشة وغضب وهيام وحقد و يقول ثائراً :

— يا ســيدتى ماذا تريدين منى ؟! أما يكفيك أن حطمت قلبى وجعلتنى أحيا هذه السنوات الطوال بغير قلب ؟ !

تتسارع دقات قلب سنية وتهتف فى فرح وتأثر بصوت متهدج وقد ترقرقت الدموع فى عينيها :

— صحيح يا محسن ؟! أ كنت تذ كرنى طوال هـذه المدة ؟ ! يا للسعادة ! !

— ينتفض محسن وينظر إليهـا بعينين يتطاير منهما الشرر و يصيح هادراً :

— ماذا ؟ ! تقولين يا للسعادة . . يا للعجب أنت سعيدة برؤيتى ؟ ! عجبا أيتها الأقدار . . سنية هانم حلمى سعيدة حقا برؤية محسن العطيفى ألا يبدو الأمر مهزلة ؟ ؟ ! !

obeikandl.com

تموت الابتسامة على شفتيها و يبدو الألم والجزع فى عينيها وتصيح :

— محسن ! ! ماذا دهاك ؟ ! ألا تصدق ؟ . . أبهذه السرعة تنسى ما بيننا ؟ . . فيقول محسن وهو يبتسم ابتسامة قاسية مريرة :

— وكيف لى أن أنسى ياسنية هانم . . إن ذكرى ذلك اليوم لا زالت محفورة فى قلبي وستستمر حتى يستوى ذلك القلب فى أعماق التراب . . كنت مستعدا ذلك اليوم أن أبيع عمرى فى سبيل نظرة عطف من عينيك . . عينيك هاتين اللتين عذبتانى طويلا وقتلتانى وأحسب أنهما على استعداد لقتلى مرة أخرى ! ! نعم كنت على استعداد لأن أموت نظير أن أحظي بعطفك ثانية واحدة و بعدها يهون كل شيء . ولكنك ياسيدتى كنت نشوانة ممتلئة القلب بحب مصطفى بك الذى صار زوجك . . كنت ضنينة بلحظة تقضينها فى غير التفكير فيه . ولم أكن أظن قط أن الحب يصير المرأة الرقيقة بل النبية القديسة قاسية غليظة الكبد . . أنانية إلى حد الوحشية . . لم أعلم هذا إلا أخيرا بعد أن تحطم قلبى ! يا للسخرية ثم تقولين إنك سعيدة ! يا لسعادتى بك هلم يا قلب صفق فإن سنية هانم سعيدة بك . . بالله أيها القدر كفى . . كفى فلست أحتمل . .

ويولى وجهه نحو الموج بينما تنظر إليه سنية واجمة مبهوتة وهى تحس بكلماته كسياط على وجهها وترتجف حين ترى الدموع تنهمر

من عينيه فى صمت . . دموع كثيرة . . وتود فى هذه اللحظة لو قامت وجففت عينيه بقبلاتها ! لعلها تخفف عن قلبه بعض ما يشعر به من آلام بسببها . . ولكن حياءها الغريزى يمنعها فتحدق إليه ساكنة وقلبها يتلوى و يئن من أجله وتطاوعها دموعها فتبكى هى الأخرى . . تبكى بحرقة كما لم تبك من قبل ويخرج نشيجها محسن من وجومه و يرتعد حين يراها تبكى بهذا الشكل و ينظر إليها و يندم على ما قال . .

و يقول فى صوت يغلبه التأثر :

— كفى يا سنية هانم . . كفانى ما أنا فيه ولا تزيدينى هما . .

فتبتسم من خلال دموعها وتقول فى نبرة باكية :

— أخيرا نطقت باسمي وكنت تتحاشى التفوه به كأنك تلفظ كفراً . . تريد أن تنسى وأن تسلو ولكنى لن أنسى ولن أسلو . . إن أسعد لحظات عمرى هى التى قضيناها معا . . كنت أحيانا تناجينى بعينيك الواسعتين العميقتين وأحيانا كنت أجلس إلى البيانو العزيز . . أتذكره يا محسن ؟ أتذكر حين كنت أعزف لك بينما ينطلق صوتك الجميل الحنون بلحن عبده الحامولى الخالد « قدك أمير الأغصان » !

هذه النظرة التى ألمحها فى عينيك الآن هى نفسها التى طالعتنى يوم كنت تسرد علىّ جانبا من طفولتك الزاهرة الزاخرة بالفنّ واللحن . وذكرياتك مع « لبيبة شخلع » المشهورة وكنت فى غفلتى لا أعلم

أنك تطلعنى على خبايا قلب ذكى عبقرى أودعه الله قبسا من نوره القدسى . . قلب فنان يتفتح للحياة والجمال . .

كم كانت جميلة تلك اللحظات يا محسن . .

يستمع إليها محسن كالذاهل أو المسحور . . وكانت وهى تتكلم تبتسم وتبكى . . ويحسّ فى تلك اللحظة أنه غفر لها ما تقدم من ذنبها وما تأخر ويحس أنه يحبها كما لم يحببها من قبل ! وسيحبها إلى ما شاء الله . . أليست حبيبة قلبه الأولى وأليفة روحه ؟ ومن المحال أن ينتزع صورتها من قلبه إنسان ومن المحال أن تأخذ مكانتها امرأة أخرى . .

وتمتد يده على غير وعى منه إلى يدها ويضغط عليها بقوة فترفع إليه سنية عينيها البديعتين وتترامى نظراتها على شفتيه وجبينه ، ويقوم محسن من جلسته وتقوم هى ويدها فى يده وترفع أهدابها الوطفاء الطويلة إليه وتطل على قلبه من خلال عينيه فيخفق قلبه خفقة الهيام والحب وينظر إليها نظرة يودعها لوعة خمس عشرة سنة ثم يهمس فى خشوع وحياء :

— هل تسمحين ؟ ! فتجاوب عيناها أن نعم ! فيرفع يدها النورانية إلى شفتيه ويضغط عليها برفق ولا يدرى كيف تنهمر دموعه فى تلك اللحظة حتى تغمر اليد الناصعة البضة فترتجف سنية وترفعها بحركة آلية إلى شفتيها وتقبل موضع قبلته وهى تبكى ! ينظر إليها محسن ويجن جنونه

ويمنع نفسه منعا من الارتماء على قدميها ولكنه يتمالك بقوة خارقة وينظر إليها فى حدة ويقول :

— وداعا يا سيدتى ! تصيح سنية وهى تتشبث بيده :

— كلا مستحيل ! بالله لا تذهب يا محسن . . أريد أن نتحدث معا . . أريد أن تسمعنى لحننا الجميل « قدك أمير الأغصان » ! إنى فى شوق إلى صوتك . . إلى استعادة اللحظات الهنيئة القدسية الماضية ! . .

فيبتسم محسن فى حرارة وهو يتخلص من يدها الصغيرة ويبتعد وهو يقول .

— تلك أيام ذهبت من المحال أن تعود . . وداعا .

ويسير فى طريقه .

ختـــام

سيدى الأستاذ الكبير :

ربما أثار غضبك أنى تطاولت على أشخاص روايتك الخالدة وألبستهم الثوب الذى شئت وأنا واثق أنك ستغضب حين ترى أنى ألبست عزيزتك سنية مايوها ! فما أظنك ترضى لها أن تعرض فتنتها على الناس ! ولكنى فى الواقع لم أجد فى مخيلتى المحدودة سوى تلك الصورة أرسمها للسيدة المبجلة سنية هانم . .

سيدى : هل أنتظر ردا . . أظن لا . . وعلى كل حال لا بأس يكفى إنى كتبت ما أردت ويكفى أنى انتقمت للعزيز الصغير محسن أو بالأحرى انتقمت لكل شاب أحسّ بالخيبة فى حبه الأول . . صحيح إن غرام المراهقة أو الحب الأول كثيرا ما يكون مآله الإخفاق والخيبة التى تترك فى القلب جروحا لا تندمل والسبب فيما يبدو لى أن الفتى وخاصة إذا كان أديبا فنانا مثل محسن يتعلق قلبه دائما بمن تكبره سناً ولا يعلق قلبه بفتاة فى مثل سنه أو أصغر . . ولعل السر فى هذا أن الفتى الفنان يهفو قلبه إلى المرأة ككل فنان . . وبالطبع هو يريدها امرأة كاملة الأنوثة متفتحة الأكمام لا طفلة صغيرة حمقاء ، فهو يعيش فى الواقع بقلب أكبر منه . . قلب فنان يصبو إلى الكمال فى كل شىء . .

obeikandi.com

هذا هو ما دعانى إلى تخيل هذه النهاية لروايتكم الخالدة ولـكل رأيه . وتقبل يا سيدى الأستاذ عاطر تحياتى وعميق إجلالى والسلام م؟.

* * *

أرسلت هذا الخطاب منذ سنة تقريبا إلى الأستاذ توفيق الحـكيم ومكثت أنتظر الرد دون جدوى . . وعجبت فأنا أعلم أن كل كلمة فى خطابى لها فى نفسه صـدى . فأنا حين أتحدث عن محسن أو نجيب الماوردى إنمـا أتحدث عن توفيق الحـكيم وهو نفسه لا يستطيع أن ينكر هذا . .

و بعد ذلك صدر كتاب لأديب معروف مهدى إلى توفيق الحـكيم وطلع علينا الفنان والصحفى الممتاز الأستاذ إحسان عبد القدوس بمقال عنيف هاجم فيه المؤلف — وهو صديقه — وأخذ عليه إهداءه الـكتاب إلى توفيق الحـكيم . .

وكنت قد سمعت من بعض زملائى الجامعيين أن الحـكيم لا يقابل أحداً وإذا اضطر إلى مقـابلة قارىء أو معجب أو أديب مبتدىء قابله بفتور وجفاء ، فعرفت إذ ذاك سرّ سكوت الأستاذ الـكبير عن الرد . .

وأتيحت لى الفرصة كى أقابله بدار أخبار اليوم ، وسمح بالمقابلة فى الحال وجلست إليه وكلى رهبة وتحفظ وأخذت أنقل نظراتى الزائغة بين وجهه ووجه بتهوفن الذى تربع فى جلال فوق خزانة الكتب الحافلة بالمؤلفات العالمية فإذا به بعد دقائق يرفع كل كلفة وإذا بالرقة والبساطة والعذوبة تتدفق من فمه إذ يتحدث ، ووجدتنى أبادله الحديث فى شغف وسرور وأفرغت بين يديه كل ما فى صدرى بغير تحفظ ولا حرج وإذا به يتقبل كلامى تقبل الأستاذ النبيل من تلميذه .
وسألته عن سبب امتناعه عن ردّ خطابى فأجاب بأنه العمل الذى يستغرق كل وقته ، فعجبت لأنى أعلم أن عمل توفيق الحكيم بأخبار اليوم لا يستغرق كل وقته إلاّ إذا كان التأمل والسهوم هما أهم ناحية من نواحى هذا العمل !

وقمت بعد ساعتين أمضيتهما مع توفيق الحكيم ، وكنت أسعد ما أكون بكل ثانية بل كل لحظة أمضيتها معه . . وتعددت مقابلاتنا بعد ذلك

وسألته يوما أن يعلق بشىء على خطابى فرفض فقلت : ولم ؟ ! فقال :

— لأن مؤلف عودة الروح مات من زمن ! فقلت جزعا

— « بعد الشر » ! . كيف هذا بالله ؟ ! فقال :

— إن المؤلف يموت بمجرد أن ينتهى من كتابه . . هذه العواطف

وهذه الروح التى يكتب بها وهذه الآراء التى يسوقها . . كلها تموت بمجرد أن ينتهى الكتاب وإلاّ فمن يصدق أن وليم شكسبير الذى كتب « روميو وجولييت » وصوّر هذه العواطف المضطرمة هو نفسه الذى كتب « هاملت » ؟ . . من يصدق أن خالق جولييت هو خالق « أوفيليا » ؟ لا أحد ! . . لولا أن هذه هى الحقيقة .

والسبب فى هذا أن شكسبير الشاب المضطرم العاطفة مات بعد أن كتب « روميو وجولييت » وهو حين كتب « هاملت » كان إنسانا آخر . .

وكذلك « جوته » عبقرى ألمانيا وشاعرها الأكبر همّ أكثر من مرة أن يحرق « آلام فيرتر » بعد أن كبر وكتب كثيرا ورأى أكثر . . ذلك لأنه لم يصدق إنه كتب يوما هذه الكلمات الباكية وصوّر هذا الغرام اليائس . .

لقد مات فى نفسه جوته الشاب وبقى جوته الناضج المفكر . . .

فلا تطالبنى بأن أعلق بشىء على عـــودة الروح بعد أن مات مؤلفها . .

ثم إنى لست كاتبا وإنما أنا مهندس . . مهندس وضع رسما لفيلا أفرغ فيها كل فنه ثم قام ببنائها وتأثيثها كأحسن ما يكون ثم تجىء حضرتك أو غيرك وتطالبه بتعديل أو إضافة .

لا . . لا أستطيع . . لطالمـا تلقيت خطابات ورسائل من وزراء ومديرى مصـــالح تعليقا على نقداتى التى كنت أحرّرها بعنوان « فى قفص الاتهام » ولم أحاول مرة أن أعنى بنشرها أو حتى بقراءتها أحيـانا . .

هذا هو رأيي وتستطيع أن تنشره .

القاهرة فى ٣ مارس سنة ١٩٥١ — المؤلف

obeikandi.com